الإسلام كبديل

د. مُراد هوفمَان

تعريب: عـادل المعَـلّم

دار الشروق

الإسلام كبديل

الطبعـة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

بين يدى الكتاب

قال محدثى مستنكراً: ألا مازلت تجرؤ على الزعم بأن فى الإسلام حلاً لمشاكلنا، برغم التخلف والجهل والفقر والضعف الذى يعيشه المسلمون، يجسدون بها الانحطاط؟

أجبت: الإسلام برئ من كل هذا براءة الديمقراطية من استبداد الحكومات التى تدعى أنها ديمقراطية، وبراءة المسيحية من هتلر وموسولينى، ومن زواج الشواذ بالكنيسة، ومن تخلف العصور الوسطى.

قال: ألا ترى كيف يقود الغرب العالم ويتحكم فيه بقوة وقدرة وسلطان؟ أليس عنده النموذج الذى يستحق التقليد؟

أجبت: كلمة غرب هذه واسعة جدا: فهناك دول غرب أوروبا ودول شمالها وجنوبها، وأمريكا وحدها، وبكل تلك الدول هناك الحكومة، والإعلام، وهناك المثقفون، ثم صفوة الصفوة من المفكرين، ومن الناحية الأخرى العامة والبسطاء، وفى حالة أمريكا نضيف لكل ذلك هل تقصد الرجل الأبيض أم الأسود؟ اللاتينى أم الآسيوى أم الشرق أوسطى، أم اليهودى. ولكن بطريقة التعميم - التى لا أفضلها وأجد فيها تبسيطاً مخلاً بالحقائق - رأيت فعلاً ماذا فعل الغرب فى البوسنة والهرسك، وقبل ذلك فلسطين، وقبل ذلك ماذا فعل فى كثير من دول آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط لمدة قرن أو أكثر، ورأيت محاكمة سيمسون مرتين، مرة حصل على البراءة من المحلفين السود، ومرة بالإدانة من المحلفين البيض لنفس التهمة.

قال: تفوق الغرب على العالم بسبب نظامه الديمقراطى الرأسمالى، وبنى الجيوش القوية الحديثة، وطبيعى أن يمد نفوذه حيث يستطيع ليكسب أسواقا جديدة.

أجبت: الحكمة ضالة المؤمن، كما جاء فى الحديث، فعلينا أن نأخذ من الغرب كل إيجابياته الصالحة لنا، وكذلك من الشرق والشمال والجنوب، على ألا يكون فى ذلك ما يخالف شرعنا.

قال: وهل ينفع أن تأخذ من أى نظام بعضه وتترك بعضه؟

أجبت: إذا كان أصحاب النظام أنفسهم ينتقدونه ليطوروه ويقضوا على نقط ضعفه،

ألا يحق لى أن أفعل مثلهم؟ اقرأ مثلاً الكتاب الذى نشره كلينتون قبيل حملته الانتخابية الأولى ضد بوش « رؤية لتغيير أمريكا» ضمنه برنامجه الانتخابى ، وكشف عيوب الحكومة ـ وقد نشرته مؤسسة الأهرام تحت رقم إيداع ٩٨٩٢/ ٩٢ ـ اقرأ فيه :

حصل واحد فى المائة من الأمريكيين على ٧٠٪ من إيرادات الدخل (صفحة ١٩) ـ إن قيم البلاد الفاسدة فى الثمانينات لا يجب أن تضللنا ثانية (صفحة ٢٢) ـ واشنطون تحابى شركات التأمين والأدوية (صفحة ٣٣) ـ يجب أن ننزع السلطة من البيروقراطية والمصالح الخاصة التى تهيمن على واشنطون (٣٧) ـ لم تكن السنوات الاثنتا عشرة الماضية سوى موسم صيد لجماعات الضغط ولتجار النفوذ الجاثلين فى واشنطون (٣٨) ـ تستهلك أمريكا التى لايزيد سكانها على ٥٪ من سكان العالم ، مايقرب من ٥٠٪ من المخدرات غير القانونية (٨٤) ـ فى كل عام يلقى أكثر من ٢٠٠٠٠ أمريكى حتفهم بالمسدسات(*) (١١٧) ـ ظل الجمهوريون فى واشنطون اثنى عشر عاماً ، احتلت الانتخابات عندهم المرتبة الأولى والشعب المرتبة الأخيرة (١٧٥) ـ إننى جئت من حيث يسود التطاحن العرقى ، لقد استغلوه [الحكومة] لتقسيم صفوفنا أعواما (٢٠٢) ـ منذ سنوات قليلة زرت أنا وهيلارى أحد الفصول الدراسية فى لوس أنجليس وتحدثنا إلى عشرة من تلاميذ الصف السادس الذين كان همهم الأول الذى يثير قلقهم هو احتمال إطلاق الرصاص عليهم أثناء الذهاب إلى المدرسة أو العودة إلى البيت ، والهم الثانى الخوف من إكراههم فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة على الانضمام لإحدى العصابات ، أو التعرض للضرب ، أما همهم الأخير فهو إدمان آبائهم للمخدرات (٢٠٩) ـ لقد بدأ الملايين من الناس يفقدون إيمانهم بفكرة الديمقراطية ذاتها(**) ، بل وبات يتهددهم خطر انهيارهم معنوياً لأنهم يشعرون بأن حياتهم ربما لم يعد لها أى معنى (٢١٩ ـ آل جور) ـ أقول لكم بكلمات الإنجيل : لاتفقدوا الأمل . فإن هذه الأمة سوف تجدد نفسها (٢٢٦ ـ آل جور) ـ كثيراً ما يأتينى شخص ما يقول : كل ماتقوله يابيل حسن، ولكنك رجل سياسة ، فلماذا أثق بك؟ (٢٢٩) ـ إنه [بوش] لن يحطم القبضة الخانقة التى تسيطر بها المصالح الخاصة على انتخاباتنا وتسيطر بها مراكز الضغط على حكومتنا . ولكننى سوف أفعل (٢٣٥) .

قال : ما يخص الحكم والقانون فى شرعنا قليل جدا ، وأضف لهذا الاختلاف فى فهمه ،

(*) فى أمريكا حوالى مليون سجين ، وأكثر من ذلك تحت الرقابة ، ونسبة المساجين إلى السكان أعلى نسبة فى العالم ، وتشاركها إسرائيل فى المقدمة .

(**) فى الانتخابات الأخيرة ، والسابقة لها ، ذهب للصناديق نصف المسجلين ، وفاز كلينتون بأصوات أقل من ٢٠٪ من تعداد الشعب الأمريكى .

وكل فريق يدعى أنه صاحب الفهم الأفضل والإسلام الأفضل ، فبأى إسلام تأخذ ؟ ثم ألا ترى فى اغتيال ثلاثة من الخلفاء دليلاً على الفشل؟

قلت : من رحمة الله وحكمته أنـه شرع لنا قواعد رئيسية أو كلية قليلـة كما تقول ، علينا ألا نخـالفهـا ، وتـرك لنـا مجالاً واسعاً فسيحـاً لإعمال الفكـر البشرى فى تفصيـل القـوانين والأنظمة التى تحقق أكبر قـدر من المصلحة ، حسب مقتضيات كل عصر وكـل بيئة . أما مسألة الخلاف فى الفهم والتفكير، فأكثره فى الفـروع وليس الأصول ، وعلينا الأخذ فى ذلك بآراء العلماء وأصحاب الاختصـاص ، ومثل هذا الاختلاف ـ والذى يعتبره البعـض تعددية وتنوعا وثراء فى الفكر ـ موجود فى كـل مجالات الفكر الإنسانى ، فحتى فى الغرب ، تختلف الأنظمة السيـاسية والاقتصـادية والاجتماعيـة بين دوله المختلفـة ، وداخل نفـس الدولـة ، تختلف البرامـج والأهداف والأفكـار من حـزب إلى حزب ، بـل وداخل الحزب نفســه هناك الاختلافـات ، وهناك التغيير والتطويـر حسب العصور المختلفـة ، ومع القادة والمفكـرين المختلفين . وساندت أمريكا ديمقراطية يلتسن عنـدما قصف البرلمان بالدبابات . وفى أكثر بلاد العالم هناك المحاكـم الدستورية العليا التى تراجع دستورية القـوانين ، وترسى القواعد الجديـدة والقابلـة للتغيير. بـل كثيرا مـا تختلف الـدول فى فهمهـا وتطبيقهـا للاتفـاقيـات والمعاهدات بينها .

أما اغتيال الخلفاء الثلاثـة ، فلو أن أياً منهم اهتم بأمنه الشخصى ــ رغم الظروف التى نشأت فيها الخلافة ـ وأحاط نفسه بالحراسة البسيطة ـ وليس بنظم الحراسة المتعددة المعقدة الحديثة والتى ترهق ميزانيات الحكومات ، وترهق الشعوب ـ ما كان اغتيل . وليس الاغتيال بدليل على فشل الحكـم أو انعدام كفاءته وشرعيته ، كما أنه ليست السـلامة من الاغتيالات بدليل على عكس ذلك ، وخذ عندك مثلاً بسيطـا ، أشد حكام العالم استبدادا ودكتاتورية فى الاتحاد السوفيتـى وأوروبا الشرقية لم تحدث لهم حالـة اغتيال واحدة خلال نصـف قرن ، باستثناء شـاوشيسكو فى رومانيا ، وعلى النقيض مـن ذلك ، تعرض حكام أمـريكا وحكام ولاياتها وشخصياتها السياسية البارزة لعمليات اغتيال لم تتوقف منذ إبراهام لينكولن ـ الذى قتلوه حياً واعتـدوا على قبره ميتاً ـ منها على سبيل المثـال فى عصرنا جون كينيدى ، ثـم قاتل كينيدى ، ثم روبرت كينيدى ، ثم ريجان ثم الاعتداء على البيت الأبيض أيام كلنتون .

قال : وما قولك فى كبت الرأى والفكر الذى تمتـاز به أكثر الدول الإسلامية ، إن لم يكن كلها؟ مع قهر المعارضين وقمعهم؟

قلت : ليس للإســلام دخل بمسائل كبت الـرأى والفكر، فإذا كانـت الآية تقول ﴿ لا إكراه فى الدين﴾ فهل يجرؤ مسلـم على فرض رأيـه وقهر الآخـر وهو يعلـم أن رب العالمين

لايريد إجبار أحد على دينه؟ وإذا كان القرآن يصف المؤمنين ﴿ وأمرهم شورى بينهم﴾ ثم يأمر الرسول ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ تلك الشورى التى فسرها على ابن أبى طالب بأنها مشاورة أهل الفكر واتباع رأيهم ، وإذا كانت كل كتب السيرة تحكى عن النبى صلى الله عليه وسلم كثرة استشارته لأصحابه ونزوله على رأيهم حتى فى معمعة الحرب ، سواء كان ذلك فى بدر أو أحد أو الخندق ، فهل يعلم مسلم بكل ذلك ، ثم يفرض رأيه ويصادر على الآخرين؟

وما رأيك أنت فى حرية الفكر والرأى فى الغرب فى حالات سلمان رشدى وتسليمة نسرين ، ثم جارودى الذى يُحاكم الآن فى فرنسا لمناقشته رقم ٦ ملايين لضحايا النازى ، ومارلون براندو الممثل العالمى ، والذى انفجر باكياً ، معتذراً لليهود - أو ممثلاً - بعد تجرئه بالقول إن اليهود يسيطرون على هوليوود ولا تهمهم مشاكل الآخرين . وهل قرأت كتاب «من يجرؤ على الكلام » لبول فندلى ؟

وسوف أهديك قريبا الترجمة العربية لكتاب الصحفى النرويجى أندرس ساندفيج ؛ Silenced & Defamed .

قال : كل كلامك نظرى ، وليس فيه مايقنع على الواقع العملى .

أجبت : اقرأ لزجريد هونكه الألمانية «الله ليس كذلك» ، واقرأ لويل ديورانت الأمريكى فى «قصة الحضارة » ماكتبه تحت « عبقرية الإسلام» وماكتبه عن الحضارة الإسلامية ، ثم اقرأ مايراه الدكتور مراد هوفمان فى كتابه « الإسلام كبديل» ، وهو ألمانى حاصل على الدكتوراه فى القانون من أمريكا - أى جمع أفضل مافى الغرب - رؤيته المميزة ، وهو قد نشأ كاثوليكياً ، ثم قاده فكره وضميره للإسلام ، وهو خبير فى شئون الغرب الثقافية والحضارية ، كما كان خبيراً نووياً فى حلف الأطلنطى ، وكما أنه خبير سياسى محنك .

* * *

<u>تنويه :</u>

قد استفدت كثيرا من ترجمة الدكتور غريب محمد غريب للطبعة الأولى ، فحقٌّ على شكره والثناء عليه ، هو وناشر الطبعة الأولى ، مؤسسة بافاريا فى ميونيخ . وألفت نظر القارئ أن ما بين الأقواس المستطيلة ، والهوامش السفلية ذات النجوم هى من عمل المعرب .

عادل المعلم

تمهيد

فاضت المكتبات بعد الأحداث المأساوية الكثيرة فى العالم الإسلامى ، بالكتب عن الإسلام . ولكن يتبين من نظرة دقيقة ناقدة أن قلة قليلة من المؤلفين تهدف - أو تحاول - تناول الأساس الروحى للإسلام .

تحاصر القارئ كتب كثيرة تخيفه من الأصولية ، التعصب ، الحرب المقدسة ، سيف الإسلام ، فيخرج فى النهاية بتعليقات واستنتاجات اجتماعية - سياسية سطحية .

من المستحيل فهم - ولو بقدر ضئيل - حماس وحركية المسلمين المعاصرين دون فهم معتقداتهم الروحية .

يتناول هذا الكتاب - ومؤلفه ألمانى مسلم - المفاهيم الإسلامية الخلافية والمثيرة للجدل فى عشرين فصلا . إنه دعوة على أساس علمى ، مؤيدة بالتاريخ والحاضر ، ونقية حرة من التماس الأعذار .

عندما تنافس العالم الغربى والشيوعية على قيادة العالم ، كان يمكن اعتبار الإسلام نظاما ثالثا بينهما ، ولكنه اليوم البديل للنظام الغربى . يتوقع بعض المراقبين بعيدى النظر أن يصبح الإسلام الديانة السائدة فى القرن القادم ، إن شاء الله . السبب فى هذا يقترحه عنوان الكتاب ، فليس الإسلام بديلا من البدائل لنظام ما بعد التصنيع الغربى ، بل هو البديل .

الرباط - رمضان ١٩٩٣

مراد ويلفريد هوفمان

مقـدّمـة

«الناس أعداء ماجهلوا» . أحد الأقوال المأثورة عن على بن أبى طالب .

الجهل يولد الخوف والكراهية ، هذا ما يؤكده التاريخ والعلاقات بين الأفراد والأمم . ولا يمكن الاكتفاء بما يبثه المراسلون للصحف والتليفزيون كمصدر فى حالة المسألة التى لا يعرف أحد عنها إلا القليل ، فهناك دائما خطر إبراز بعض الجوانب على حساب الأخرى ، حسب اهتمامات المراسل ، الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى رسم صورة زائفة ، قد تثير الحساسيات الفكرية .

يصدق هذا فى موضوع الدين ، والإسلام مثل نموذجى للالتباس وسوء الفهم عند الغربيين الآن .

فكما كان يحلو لرسامى القرن التاسع عشر أن يصوروا المسلمين ـ الذين أطلقوا عليهم خطأ المحمديين ـ كمحاربين متوحشين لا يتركون سيوفهم وأسلحتهم ، أو غارقين فى شهواتهم الجنسية مع حريمهم ، فاليوم ترسم كلمة إسلام فى الذهن صورة فقيه ملتح متعصب أو إرهابى عديم الرحمة . وكل ذلك مبنى على فهم خاطىء ، فى استطاعة من درس الثقافة الإسلامية أوعاش بين المسلمين أن يصححه .

اعتقد مسيحيو القرون الوسطى أن الإسلام ما هو إلا هرطقة وبدعة منشقة عن المسيحية ، وأساس ذلك أسطورة قديمة هى أن محمدا كان كاردينالا ثم ارتد ، وألحق بدينه الجديد الوثنية القديمة . ولذا صوروا له تماثيل وأيقونات ذهبية ، بل قالوا الأشعار فى ذلك . وما كل ذلك إلا تشويه بشع لديانة أساسها التوحيد، أكدت مرارا وتكرارا أن محمدا ما هو إلا بشر اختاره الله ليوحى إليه رسالته فيبلغها للعالمين .

حقق المجتمع الإسلامى نجاحات عديدة أثارت مخاوف الغربيين خشية من تفوق المسلمين السياسى والعسكرى :

ففى أقصى الغرب ، عبر المسلمون ـ سنة ٧١١ ـ مضيق جبل طارق ليؤسسوا حضارة

الأندلس الزاهرة ، وفى الوقت نفسه امتدت إمبراطوريتهم شرقا إلى ترانسوكسانيا وسط آسيا ، ثم جنوبها ، إلى جنوب سهل الإندوس [الهند وباكستان] .

أصبحت الأندلس جسرا بين أوروبا والعالم الإسلامى ، وتشهد ـ حتى الآن ـ وفرة من الكلمات العربية فى مجالات العلم والثقافة المختلفة على نفوذ الحضارة الإسلامية ، التى عاش تحت ظلها المسلمون والمسيحيون واليهود جنبا لجنب فى انسجام وتوافق وعطاء متبادل ، لم نر له مثيلا .

وفى إسبانيا جرت أول محاولة لترجمة القرآن إلى اللاتينية سنة ١١٤٣م ، وظلت لعدة قرون مرجعا للغرب ، حتى إنها طُبعت فى بازل عام ١٥٤٣م بناء على اقتراح مارتن لوثر . تعددت ترجمات القرآن ، وصاحبها دائما الاعتذار ، فالقرآن الموحى به إلى محمد من ٦١٠م إلى ٦٣٢ م فى مكة والمدينة به صعوبات لا تُعد ولا تحصى أمام مترجميه . فالقرآن عند المسلم ، هو كلمة الله موحاة بلسان عربى مبين ، وترجمته لن تتجاوز المستوى السطحى ، فمن ذا الذى يستطيع تصوير جمال كلمة الله بأى لغة أخرى ؟ لطف الكلمات العربية ودقتها ورقتها وأنغامها تجعل من الصعوبة بمكان ترجمتها . لا تستطيع ترجمة أن تحافظ على روح وشكل النص العربى ، وهذا يقود لصعوبات فى تفسير المعنى . ولا يسهل على القارئ غير العربى أن يجد طريقه ممهدا لفهم القرآن ، بل هناك الخطر الوارد فى عدم الإلمام بالسياق الكامل للنص ، وفصل أجزائه، ثم تعسر الفهم ، أو الأسوأ من ذلك الفهم الخاطىء . ونادرا ما يعى غير المسلم كيف طبع القرآن آداب المسلمين وفنونهم الثقافية من بلاغة وخط وزخرفة وترتيل ، سواء كانوا يتكلمون العربية أو الفارسية أو التركية أو الأوردو . ومن الإشارات العلمية فى القرآن بحث المسلمون فى علوم الفلك والطبيعة والطب وغيرها .

عند المسلم ، القرآن هو كلمة الله فى صورة كتاب ، كما عند المسيحى ، المسيح هو كلمة الله فى صورة بشر . ومحمد هو الرسول الذى بلغ كلمة الله للعالم ، ومثلما أُسيء فهم القرآن لعدة قرون ، أُسيء تقدير محمد . يمثل محمد للمسلم الأسوة الحسنة فى كل أمور الدنيا والآخرة ، وهو الرسول والمعلم الذى لم ينسحب من الدنيا لحساب الآخرة . (*) فزواجه النساء لم يقبله الغربيون ـ وخاصة نساك

(*) قال محمد ﷺ إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليزرعها إن استطاع .

وقال أحد تلاميذه المخلصين ـ عبد الله بن عمر ـ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وإعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

الكنيسة فى العصور الوسطى (*) ـ كذلك لم يقبلوا تأسيسه لدولة المدينة (**) . بينما عند المسلمين ، جمع الدنيا بالآخرة هو برهان نجاح محمد فى رسالته وقيادته المسلمين، ومن هنا يثار الجدل اللانهائى حول طبيعة الدولة الإسلامية .

كما تتوالى منذ قرون تفسيرات وتأويلات القرآن بواسطة العلماء والمتصوفة ، يتوالى نسج الأساطير حول محمد . فالرجل الذى أكد مرارا وتكرارا أنه بشر ، أصبح عند بعض المتصوفة نورا مضيئا ، وأول خلق الله ، بل القصد الحقيقى من خلق الكون . بينما أصبح عند بعض العلماء المعاصرين مصلحا اجتماعيا مثاليا .

امتد الإسلام تاريخيا وجغرافيا ، صاحب ذلك اختلافات فى فهم المسلمين وممارساتهم له ، فلن تدهش أحدا تلك الاختلافات فى أربعة عشر قرنا ، وخلال بيئات وثقافات مختلفة على امتداد شاسع من المغرب والجزائر غرب إفريقيا إلى ماليزيا وإندونيسيا شرق آسيا ومن تركيا فى الشمال إلى جنوب إفريقيا .

ومثل هذه الاختلافات موجودة فى المسيحية ، من الأيقونات الملونة عند الأرثوذكس اليونانيين إلى كنيسة الله عند الكلفانيين ، ومن الكاثوليكية الإيرلندية إلى الكنيسة الميثودية المتشددة .

ولكن تلك الألوان المختلفة للإسلام لاتتعدى الفروع ، فالأصل والأساس الإيمانى واحد : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . فالله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ليس له شركاء ، من الأزل إلى الأبد ، بل هو خالق الأزل والأبد . وأكبر خطيئة فى الإسلام هى الإشراك بالله (***) والجزء الثانى من الأساس الإيمانى فى الشهادة : محمد رسول الله . فما جاء به محمد هو من الله .

يجب أن نجعل تلك الحقائق البسيطة نصب أعيننا ، ولا ننسى أن الإسلام ـ والكلمة والدين يعنيان التسليم لله ـ يضع الله وكلمته مركزا لكل شئون الحياة .

(*) قبل أن تعترف الكنيسة بالشذوذ وتعقد زواج الشواذ ، ويعلن بعض آباء الكنيسة على العلن ممارستهم له .

(**) يعتبر اليهود والمسيحيون الملتزمون داود الرجل الكامل والنبى الكامل فى تاريخ البشرية . خاض داود حروبا كثيرة ، منها ما كان ضد أحد أبنائه ، بل جاء فى العهد القديم أن ملك الفلسطينيين رفض تضرع داود أن يحارب فى صفوفه ضد اليهود ـ سفر صموئيل الأول ، الأصحاح ٢٩ الآية الثامنة .
ولا خلاف أنه كان له من النساء أضعاف أضعاف ما كان لمحمد .

(***) ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء : ٤٨ ، ١١٦) .

ينشأ كثير من سوء الفهم بسبب ميلنا إلى تقييم كل شيء من منظور قيمنا ومثالياتنا وموازيننا فى الغرب ، وفى أواخر القرن العشرين . بل هنا فى الواقع المنشأ الحقيقى لسوء الفهم .

هل يمكن أن نعتبر مقاييس مجتمع ملحد ـ بدرجة كبيرة ـ مقاييس مطلقة ؟

لو رأى جيل أجدادنا ما نفعل اليوم لصدمته أمور كثيرة ، نعتبرها نحن من أمور الحياة اليومية الطبيعية . فعلى سبيل المثال ، هل نذهب إلى الكنيسة مغطاة شعورنا كما كنا نفعل من قبل ؟ .

فتغطية الشعر تقليد قديم . اعتادت المجتمعات اليهودية القديمة تغطية الشعر . وما زالت اليهودية الملتزمة تغطى شعرها ، وما زال اليهودى الملتزم طالبا أو أستاذا يذهب لمحاضراته فى جامعة هارفارد وعلى رأسه الطاقية التقليدية . لماذا إذا لا نقبل أن تغطى التركية المسلمة شعرها ؟ (*) ومع ذلك ، فالإسلام يطلب من المرأة أن تغطى شعرها عند الصلاة أو قراءة القرآن فقط (**) والرجال والنساء متساوون فى الحقوق والواجبات .

« الناس أعداء ما جهلوا » ، فإذا تتبعنا أصل الثقافات المغايرة لنا لاتضح لنا الكثير . « الحرب المقدسة » هذا المصطلح إنما هو مسيحى النشأة ، فشا أيام الحروب الصليبية . أما المصطلح الإسلامى ،الجهاد، فهو يعنى بذل أقصى الجهد فى التقرب لله . قد يكون ذلك بجهاد النفس ضد الشهوات ، وقد يكون بالدفاع عن العقيدة أو محاولة نشرها .

يمكننا إعداد قائمة بالمبادئ والمفاهيم الإسلامية التى أسيىء فهمها . ونشكر ألمانيا مسلما خبر القانون والفلسفة ، وقدم للقارئ رؤيته الخاصة .

تشبه رؤية دكتور هوفمان للمقاصد الرئيسية للإسلام السنى تعاليم «فضل الرحمن» العالم الباكستانى الراحل ، والذى أزعجته الدوائر المتشددة فى باكستان .

(*) فى حى يهودى بالقدس Meah Shearim ، لافتة تطلب من السائحين احترام التقاليد اليهودية وتغطية الشعر والذراعين والساقين .

وكل رسومات مريم العذراء ، سواء كانت بواسطة فنانين شرقيين أو غربيين تظهرها محجبة ، ومازالت الراهبات المسيحيات حتى اليوم يغطين شعورهن .

وترى فى الكنيست الإسرائيلى ـ والذى لم يخل من أعضاء من الأحزاب الدينية ـ من يطلق لحيته ويرتدى الطاقية أو القبعة التقليدية ، كذلك تجد أمثال هؤلاء فى الحرس الخاص لرئيس الوزراء الإسرائيلى ، ويتقبل العالم ذلك بدون إثارة اعتراضات ولا مشاكل .

(**) جاء فى الحديث المرسل عن أبى داود : إذا بلغت المرأة المحيض فلا يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه .

ويشارك د . هوفمان الفيلسوف والشاعر الباكستانى الراحل محمد إقبال فى دعوته لتجديد فهم الإسلام . ويؤكد أن القرآن إشعاع متجدد لا يخبو ولا يضعف ، يستخدمه البشر مما يثرى حياتهم ويفجر طاقاتهم ويوجهها ـ بكل ما يملكون من مواهب وملكات ـ نحو الخير المطلق .

يرفض د . هوفمان جبرية الاستسلام ، ويبرىء الإسلام منها (*)

أما إلصاق الإرهاب والأصولية بالإسلام فى الوقت الحاضر ، فهو مأساة . والأصولية ما هى إلا مصطلح من التاريخ الدينى فى أمريكا . ثم هل نلصق الإرهاب بالمسيحية كلما سمعنا بحادث دموى فى أوروبا أو أمريكا ؟ (**)

ويبدو لى أن حصار الأتراك لفيينا عام ١٥٢٩ ثم عام ١٦٨٣ ترك خوفا لا يُنسى عند الأوروبيين ، وبصمات على دين العرب والأتراك والفرس والباكستانيين والمالاويين . حتى المثقفين يعلمون قليلا عن كنوز الحضارة الإسلامية فى الآداب والفنون ، ونادر من يعلم أن قصر الحمراء فى الأندلس وتاج محل فى الهند من أعمال المهندسين المسلمين . وكم من الناس يعلم كيف يُبجل المسلمون عيسى وأمه مريم ؟ فعيسى عند المسلمين آخر رسل الله قبل محمد ، دعا إلى حب الله والزهد فى الدنيا ، ولم يُصلب ولكن رفعه الله .

سيجد القارئ فى هذا الكتاب تفسيرات جديدة ، وقد يذهله المؤلف ـ أو حتى يصدمه ـ بأفكار مستمدة من الأساس الصحيح للإسلام .

سيجد القارئ الإسلام ـ الذى كان يُعتقد أنه بقايا وحطام بالية من العصور الوسطى

(*) الصق الغرب فى القرون الماضية جبرية الاستسلام بالإسلام، وزعم على ذلك أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين . ثم انقلبت التهمة إلى عكسها فى النصف الثانى من القرن العشرين من جبرية الاستسلام إلى تهمة العنف والثورية والدموية فى الإسلام .

(**) بل إننا لم نسمع عن أصولية أو إرهاب أرثوذكسى أو كاثوليكى برغم مذابح الصرب والكروات للمسلمين فى البوسنة ، ولم نسمع أيضا بذلك عند تجدد الصدام بين الكاثوليك والبروتستانت فى إيرلندا . ولم نسمع أياً من الكلمتين مطلقاً عن الجماعات اليمينية فى أمريكا برغم حوادثها ، ولم يحظ الانفجار الهائل لمبنى أو كلاهوما عام ١٩٩٥ بقتلاه المقاربين للمائتين باهتمام الإعلام الأمريكى نفسه وليس الإعلام العالمى ، ولو حتى بواحد من الألف من الاهتمام بانفجار مبنى التجارة العالمى الذى قتل فيه أربعة ، واتهم فيه الإرهابيون المسلمون . وغنى عن القول إننا لم نسمع بالإرهاب ولا الأصولية اليهودية رغم مذابحهم للفلسطينيين ـ قديماً وحديثًا ـ ومصادراتهم للأراضى والأملاك الفلسطينية ، حتى حولوا الفلسطينيين إلى لاجئين خارج وطنهم ، وعمال يومية داخل وطنهم .

التى عفا عليها الزمن - دينا حيا أنضر ما تكون الحياة ، ونأمل بذلك أن يزداد تقديرا وفهما له .

وختاما ، لا ننسى بيت الشعر المشهور لجوته

إذا كـــان الإســـلام هـو التــســليـم للـه

فــإننا كلـنا نـحـيـا ونموت فـى الإســلام

أنا ماريا شمل

أدقنت ، ١٩٩١

الفصل الأول

الإسلام والغرب

بعث رسول الإسلام فى السنة السادسة من الهجرة - بعد صلح الحديبية - رسائل إلى حكام الدول المجاورة [1] ، النجاشى فى الحبشة ، كسرى فارس (٥٩٠م - ٦٢٨م) ، هرقل الروم الشرقيين (٦١٠م - ٦٤١م) [كذلك المقوقس فى مصر ، المنذر بن سارى فى البحرين ، هوزة بن على فى اليمامة ، الحارث بن أبى شمر فى دمشق ، جيفر بن الجلندى فى عمان] .

أرسل إليهم محمد يدعوهم فى وضوح وصراحة للدخول فى الإسلام ، فذلك خير لهم ولرعاياهم .

بدأت العلاقة بين الإسلام والغرب بتلك الرسالة من محمد إلى هرقل . تلك العلاقة التى لم تنقطع ولم تتوطد طوال أربعة عشر قرنا ، برغم بعض الإيجابيات فى العلاقات الاقتصادية والفكرية . فعالم الغرب وعالم الشرق كانا فى حالة مواجهة وعداء أكثر من تكامل وانسجام ، كل منهما يتوجس خطر الآخر ولا يفهمه ، مع ذاكرة خازنة واعية .

يكشف تاريخ التوسع الإسلامى - خاصة مساحته وسرعته - الكثير . فبعد وفاة محمد (٦٣٢م) بفترة قصيرة ، شمل الإسلام الشام وفلسطين (٦٣٤م - ٦٣٥م) ، فارس (٦٣٧م)، مصر (٦٤٣م - ٦٤٩م)، أرمينيا (٦٥٢م)، قبرص (٦٥٣م)، المغرب (من ٦٧٠م)، بل وحتى إسبانيا من (٧١١م) . [كذلك دخل الإسلام بعض المناطق فى الصين قبل نهاية القرن الهجرى الأول (٧١٥م) ، وقد رأيت فى ألمانيا على بعد ٢٠كم من ميونيخ قصرا مبنيا على الطراز العربى ، وعلى مدخله شاهدان باللغة العربية عليهما اسما رجل مسلم وابنته وتاريخ وفاتهما كمسلمين فى مطلع القرن الهجرى الثالث] .

وضرب المسلمون حصارهم الأول على القسطنطينية (٦٧٢م) وكان فى مقدمة الصفوف الصحابى المشهور أبو أيوب الأنصارى - الذى استضاف محمدا فى بيته أول قدومه المدينة - وعلى أبواب القسطنطينية دفن .

على ضوء هذه الفتوحات الناجحة ، تشبث الغرب بدعوى انتشار الإسلام بالسيف . فإن كان صحيحا من الوجهة العسكرية أنه لم تستطع أى قوات أن تصمد أمام

حماسة المسلمين ، فإنه أيضا صحيح بنفس الدرجة أنه لم يكن بوسع تلك القوات قليلة العدد أن تسيطر على تلك المساحات الشاسعة ما لم يرض بها الأهالى وينضموا تحت لوائها .

وهناك بالقطع تفسير صحيح لايستسيغه الغرب : فضل كثير من المسيحيين فى الشرق والغرب الإسلام على عقيدة التثليث أو الطبيعة الإلهية لعيسى[٢] . وقد امتد الإسلام بعد ذلك - وما زال يمتد - فى إفريقيا بدون السيف (*) .

كما صنعت الفتوحات الإسلامية التاريخ ، نهضت الحضارة الإسلامية بالعلوم والآداب والفنون نهضة شاملة ، من رياضة وطبيعة وكيمياء وطب وصيدلة ، وعلوم الزراعة والاجتماع والتاريخ ، والفلسفة . لقد اكتسحت الحضارة الإسلامية حضارة الغرب من القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر . ويكفينا أن نذكر فى هذا الصدد أمثال الرازى والبيرونى وابن رشد وابن سينا وابن خلدون وابن بطوطة والخوارزمى [٣].

توقف الزحف الإسلامى على أوروبا من الأندلس غربا فى فرنسا عام ٧٣٣م . وبدأت الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر وحتى الثالث عشر . وبدأت محاولات أوروبا استرجاع إسبانيا والبرتغال .

وفى عام ١٢٠٤م ، عانى المسيحيون فى القسطنطينية أشد المعاناة على يد الغزاة . لم يكن ذلك على يد المسلمين ، ولكن على يد الغزاة المسيحيين اللاتين ، الذين نهبوا وسلبوا واغتصبوا (**) .

(*) امتد الإسلام إلى شرق آسيا ، ماليزيا وتايلاند وإندونيسيا والفلبين ، بواسطة التجار المسلمين ، لم يصل لتلك المناطق جندى مسلم واحد ، وعدد المسلمين من الجنس المالاوى أكثر من ٢٠٠ مليون مسلم ، أى يقارب عدد المسلمين العرب . وقد احتل الهولنديون والإسبان والبرتغاليون والإنجليز كثيرا من تلك المناطق لعدة قرون ، وصاحب جنودهم بعثاتهم التبشيرية ، ولم يأت ذلك بنتيجة تذكر أمام اعتناق الأهالى الإسلام.
واليوم ، ينتشر الإسلام فى أوروبا وأمريكا ، وترى شعوباً إسلامية تُسحق - مثلما فى البوسنة والهرسك والشيشان وكشمير - بسبب تمسكها بدينها . أما آن الأوان لتلك الدعوى أن تنتهى ؟ ألم يقرأ من يروج لها ما جاء فى القرآن ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ (البقرة - ٢٥٦) ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (الكهف ٢٩).

(**) اقرأ ما كتبه « ويل ديورانت » - وهو مؤرخ وفيلسوف أمريكى كاثوليكى - فى موسوعته «قصة الحضارة» الجزء ١٥ ، ما فعلته الحملة الصليبية الرابعة فى عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية .

ثم جاء الدور على الغرب ثانيا ليخشى المسلمين عندما بسط العثمانيون يدهم على القسطنطينية (١٤٥٣م) ، وأرسلوا قواتهم تحاصر فيينا مرتين (١٥٢٩م ، ١٦٨٣م) .

منذ بداية القرن الثامن عشر ، بدا وكأنه ظهرت نهاية ذلك الصراع الملحمى . فمنذ ذلك الوقت وحتى اليوم انجرف كل من العالمين فى تيار مختلف . سلك الغرب تطورا علميا وتكنولوجيا هائلا ، أعطاه تفوقا كاسحا فى الاقتصاد والقوة العسكرية ، مما رآه البعض دليلا على تفوق الحضارة المسيحية . وفى الوقت نفسه سادت العالم الإسلامى حالة من العجز والركود ، جعلته لقمة سائغة لقوى الاستعمار الغربى . وسدد أتاتورك عام ١٩٢٤م الضربة القاضية للإسلام بإلغاء الخلافة .

ومنذ منتصف القرن الحالى ، بدت الحضارة الغربية النموذج المثالى الذى على الجميع احتذاؤه ، إن عاجلا أو آجلا ، فلا ثقافات ولاحضارات أخرى . يرتدى الناس الجينز ويأكلون الهمبورجر ويشربون الكوكا كولا ، يدخنون المارلبورو ويتحدثون الإنجليزية ، يشاهدون ال CNN ، ويسكنون نفس البيوت .

بل ومن الجائز أن يكونوا من المرشحين لعضوية إحدى الكنائس المسيحية بطريقة أو أخرى .

ما زال البحث جاريا عن أسباب تدهور العالم الإسلامى ، [٤] وفى رأيى ، هناك ثلاثة أسباب رئيسية مشاركة :

* ضرب العالم المسيحى والمغول عصب الحياة الفكرية والثقافية فى العالم الإسلامى ، فى قرطبة ١٢٣٦م ، وفى بغداد ١٢٥٨م . وحتى اليوم لم تسترد الحياة الفكرية والثقافية فى العالم الإسلامى عافيتها من هذه الكارثة .

* وفى القرن الرابع عشر الميلادى ، سادت بين العامة فكرة وصول الفقه الإسلامى إلى منتهاه ، كل المسائل تم بحثها وحلها ، والأجيال السابقة أكثر قربا للمصدر وأكثر فهما . وسادت بذلك مدرسة التقليد ، وبصفة عامة ساد جمود لا إسلامى .

* وآخر وأهم سبب ، ليس من العالم الإسلامى ولكن من العالم الغربى ، فلا يمكن إنكار أن تلك الطفرة المادية الهائلة فى العالم الغربى منذ القرن التاسع عشر - عديم الإله - [٥] استلزمت تراجعا فى الإيمان المسيحى .

ففى الواقع ، أصبحت الدنيا محور الحياة عديمة الإله ، وظهر فيورباخ وماركس وداروين ونيتشه وفرويد ، رسل اللاأدرية ، إن لم يكن الإلحاد . وساد المذهب الكمى الذى لا يعترف إلا بما يمكنه قياسه بالحواس ، بينما أصبح الإيمان بإله ، مجرد احتمال

يمكن التسامح فى قبوله طبقا لسوينبرن [٦] . ولكن لايجوز التفكير أو الاقتراب من القضايا الفكرية العليا ، ويعزى الفضل فى ذلك لأعمال مثل «سحر خضوع الموت» (ف . فروويند) ، إن كان فى ذلك فضل .

عبد الناس فى القرن العشرين - قرن العلم والتكنولوجيا - أصناما جديدة : القوة ، المال ، الجمال ، الشعبية ، الجنس . ومع التسليم بأن ذلك العلم لا يقدم إجابة للتساؤل عن معنى الحياة ، أو بدايتها ونهايتها ، فلتكن الإجابة عن تلك الأسئلة بإغفالها أو الانشغال عنها [٧] .

أدى تخلى الإنسان عن فطرة التسامى إلى وقوعه ضحية طمع اللذات الحسية ، والتى أصبحت المقياس الوحيد ، وانتظر من التقدم العلمى أن يقيم له جنة المستهلك علـــى الأرض [٨] . وهكذا قاد المجتمع الصناعى - الذى كل همه : معدل النمو ، الكفاءة ، الحصول على أقصى ربح وبأقل تكاليف - إلى نهم استهلاكى لا يشبع ولا يقنع .

وصف الفريد مولر أرماك ذلك فى كتابه « الدين والاقتصاد » - ١٩٥٩ فى كلمات قليلة :

أنكر الإنسان الله ، فاضطر أن يصنع آلهة أخرى يعبدها ، وكان ذلك ثمن إنكار الإله الحق . . وعند إنكار الإله الحق ، نفقد الجوهر ، وما تاريخ الانحراف عن الحق إلا تاريخ قوى الشر المدمرة التى تجلب الكوارث . ولا يكمل تاريخ الإيمان إلا بذكر تاريخ عدم الإيمان .

ماذا يستطيعه الإسلام - أو غيره من الأديان - إزاء من طغت عليهم المادة واعتنقوا مذهب عبادة اللذة ؟ ولهذا فمن يسأل : ماذا أصاب الإسلام ؟ نجيبه ساخرين : إن الذى أصاب الإسلام هو ما أصاب الغرب ! [٩] .

وفى ستينات وسبعينات هذا القرن ، على عكس ما يتوقع المرء ، مركل من العالم الغربى والعالم الإسلامى بنقطة تحول كبيرة . فالإسلام المحطم بالأزمات لم يدخل القبر ، وإنما أُفعم حيوية بدرجة أرعبت الغرب منه . ومن الناحية الأخرى بدأت الأزمات تحوم حول العالم الغربى .

بدا هذا وكأنه شىء غير متوقع ، ولكنه أصبح اليوم أمرا مفروغا منه .

لاحظ علماء الاجتماع - مثل دانيل بل - أن النجاح الاقتصادى للرأسمالية العالمية ،

يقوض الأساس الأخلاقى للرأسمالية الذى استمده ماكس فيبر من البروتستانتية . تنكشف هذه الآلية للتدمير الذاتى عندما نلاحظ فى مجتمعات الرأسمالية أن فضائل مثل الاجتهاد ، الاقتصاد فى المعيشة ، الصبر ، الأخوة ، الشجاعة ، انقلبت إلى نقائض وعيوب لا يمكن العيش بها فى المجتمع الصناعى (١٠) .

وهكذا انحرفت الفردية إلى نرجسية ، والأخوة إلى الاجتماع على الحفلات الموسيقية الصاخبة ، واستقلال الشخصية إلى فوضى أخلاقية (كما فى شعار رحمى ملكى) التحرر إلى فسق ، التسامح إلى استواء الخير والشر ، التنافس إلى جنون الاستهلاك ، العشق إلى رياضة جنسية ، المرونة إلى كراهية التقاليد . وباختصار ، كما قال مارسيل بوسو فى ١٩٨٤ مثل تلك الانحرافات لافكاك منها عندما يُساء فهم العقل والحرية والحب (١١) .

يشوب الدول الصناعية الآن نوع من الخلل ، تجسده الجماعات الرافضة للمجتمع ، والتى تبحث عن بديل للنظام الذى أعطاهم المادة والحرية ذات الطبيعة الخاصة .

فهى تفتقد الأمان ، تؤرقها التكنولوجيا المفرطة وقلق المستهلك وتأليه العقل سواء فى الاقتصاد أو الردع النووى .

يبين هذا الرفض أن تخلى الإنسان عن نزعة التسامى المفطور عليها ، يسلمه إلى مصيدة سفلية لانهائية من المطالب و التطلعات ، يلهث وراءها ولا يشبع ولا يقنع . انظر إلى ضحايا المجتمع الصناعى اللا أخلاقى ، عندهم كل شئ ، ذات مستقلة ، تأمين مادى من المهد إلى اللحد ، جنس بلا قيود ، مخدرات جاهزة تحت الطلب ، أوقات فراغ طويلة ، وكل حقوق يمكن تخيلها ، ولكن ما يحسونه فراغ جاثم ، يتطلعون إلى دفء المجتمع ، وحكيم يتبعونه ، وأهم من كل هذا البحث الهام عن المعنى .

تلك هى الخلفية وراء العودة إلى الدين من خلال طوائف عديدة تقوم على تأملات ذاتية وغير موضوعية (روزمارى شتاين) ، مما جعل الكنيسة تعيد استثمار جاذبيتها الصوفية . قد تسلك هذه العودة مسارات غريبة ، ولكنها إن عاجلا أو آجلاً ـ فى بحثها عن البديل الحق ـ ستلتقى بالإسلام الصاعد نجمه .

بدأ بعث الإسلام فى هذا القرن بحركات التحرر التى أدت إلى الاستقلال السياسى ، وكانت الجزائر آخر الدول الإسلامية حصولا على الاستقلال (١٩٦٢) ، باستثناء فلسطين .

فى البداية ، فكرت تلك الدول الناشئة وأبطالها ـ محمد على جناح ، جمال عبد الناصر ، أحمد بن بللا ، هوارى بومدين ـ أن تحتذى النموذج الغربى : الليبرالية ، القومية ، الاشتراكية ، بل وحتى الشيوعية من النموذج الشرقى . لم يكن للإسلام دور رئيسى ، فالقومية العربية فى مهدها لم تكن دينية ، كما لم تكن الصهيونية فى مهدها دينية . بل إن جبهة التحرير الجزائرية والدستور الجديد التونسى كانا علمانيين . تشابه هذا الاقتداء بالغرب بما فعله أتاتورك فى تركيا ، وأفكار المسلمين المستغربين مثل محمد أركون فى فرنسا وبسام طيبى فى ألمانيا .

فشلت كل تلك التجارب لأسباب عديدة : عدم القدرة على زيادة معدل النمو الاقتصادى عن معدل زيادة عدد السكان ، قلة الصادرات ، هروب رؤوس الأموال ، الوساطة والمحاباة فى الأعمال والوظائف العامة ، الفساد ، الديون ، هجرة الرؤوس المفكرة . ولم تصلح حتى المجهودات الجماعية من خلال جامعة الدولة العربية (١٩٤٤) ، منظمة الدول الإسلامية (١٩٦٩) ، منظمة التعاون الخليجى (١٩٨١)، والاتحاد المغاربى (١٩٨٩).

فى مقابل ذلك ، ظهرت الاتجاهات الإسلامية فى بداية السبعينات ، وبدأ فوراً تحليلها بلا هوادة ، حيث وصفت بالأصولية والتعصب السلفى ، وسيأتى فيما بعد فصلان عن ذلك [١٢].

تصور البعض ـ وأمل ـ أن تلك الاتجاهات الإسلامية ما هى إلا حركة احتجاج جماعية ، دالة على التخلف التكنولوجى .

ثبت بوضوح أن ذلك التحليل ينقصه تقدير العامل الدينى ، وفهم شعوب تأخذ دينها مأخذ الجد ، حتى لو كانت من شعوب العالم الثالث .

وضَّح بسام طيبى أن مصطلح « العودة للإسلام » ينطوى على مقدمة زائفة ، لأنه باستثناء ـ بعض المثقفين المستغربين ـ لم يفقد الإسلام مرجعيته كعقيدة ونظام حياة ـ حتى فى تركيا ـ وإن غطى ذلك قشرة رقيقة من الحداثة . (أرنولد هوتنجر) .

أصبح من المسلم به اليوم أن عودة الإسلام تعنى عودة المقدس [الله وما أوحى به إلى محمد] فى شئون الحياة العامة . (شدد جيل كيبل على ذلك فى كتابه «انتقام الله») . يعنى هذا رفضا أساسيا للحداثة الأوروبية ، وتقديم مشروع بديل . حيث ترى وجهة النظر الإسلامية أن التخلى عن الله يحط من شأن الإنسان . (وعلى هذا ، يعود العالم ـ بعد انتهاء الشيوعية ـ إلى عالم ثنائى القطبية من ناحية الفكر) .

ينسجم هذا التفكير مع حال المسلمين المحبطين فى العالم الثالث ، ويقترح عليهم طريقاً كريماً للنهضة بالرجوع إلى أصول دينهم ، وبعيداً عن محاولة تقليد الغرب أو منافسته فى عالمه المادى الاستهلاكى ـ تلك المنافسة التى ليس لهم أى فرصة للفوز فيها ـ وشجع على ذلك سلسلة الإهانات التى لا تنتهى التى ذاقها العالم العربى فى فلسطين على يد الغرب .

بالطبع هناك بعض القوى التى تستغل الإسلام لتحقيق أهداف سياسية ، فخلال حرب الخليج (١٩٩٠ ـ ١٩٩١) تصرف البعض بطريقة أضرت الإسلام أكثر من أى شىء آخر خلال هذا القرن (ولفجانج جونترليرش)[١٣] .

مرة أخرى ـ كما تكرر كثيراً فى التاريخ ـ واجه الشرق والغرب شبح التدمير . خشى المسلمون فى أوروبا وأمريكا على أنفسهم ، وخشى الغربيون فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على أنفسهم ، وبدا كما لو كنا فى انتظار حملات صليبية جديدة من الطرفين ، وتوقف الحوار المسيحى ـ الإسلامى ، بل صور الغربُ الإسلام شيطانا أسوأ مما سبق [١٤] .

من هذا التاريخ المحزن ـ على مدار أربعة عشر قرناً ـ لعلاقة الإسلام بالغرب ، يمكن لنا أن نعى ـ خاصة فى عصر أسلحة الدمار الشامل ـ وجوب تقابل الطرفين بشىء من التسامح ، ويُسَهِّل ذلك فهمٌ أفضل من كل طرف للآخر . يحاول هذا الكتاب إزالة الحواجز الثقافية فى سبيل ذلك الفهم المتبادل .

هوامش الفصل الأول

(١) سيرة ابن هشام ـ صحيح البخارى الحديث السابع ـ كتاب بدء الوحى ، باب كتاب النبى ﷺ إلى كسرى وقيصر ـ كتاب المغازى .

(٢) لم ير نجاشى الحبشة اختلافا بينه وبين وفد المسلمين عندما تناقشوا حول عيسى ـ سيرة ابن هشام .

(٣) انظر كتاب « زجريد هونكه » ـ شمس العرب تسطع على الغرب ، طبع عدة مرات بالألمانية والعربية ، كذلك كتابها « الله ليس كذلك » ، و«تراث الإسلام» جزءان ، و« مقدمة للإسلام » لمحمد حميد الله ، خمس طبعات بالإنجليزية .

(٤) اقرأ لـ « بيتر فالتر » ـ لماذا تخلف العالم الإسلامى فى Cibedo ـ فرانكفورت ١٩٨٨ ، العدد السادس صفحة ١٦١ إلى ١٧٣ .

(٥) « قرن بلا إله » عنوان كتاب « الفريد مولر » الصادر عن أرماك فى ١٩٤٨ .

(٦) « وجود الله » ـ ريتشارد سوينبرن ـ أكسفورد ١٩٧٩ .

(٧) تلك كلمات « هانز أو يسترلى » فى جريدة « فرانكفورت الجماينه » ٩ سبتمبر ١٩٨٧ .

(٨) وصفها بالتفصيل « رينيه جينو» فى « أزمة العالم الحديث » ١٩٨١ ، « مملكة الكمية وعلامات العصور» ١٩٨٣ ، « فانس باكارد » «المتاهة الجنسية » ١٩٦٨ ، و«تشارلز أ. رايخ» « جعل أمريكا خضراء » ١٩٧١ ، وغير ذلك.

(٩) ولذلك ينفعل المسلمون بمرارة عندما يتكلم المستشرقون عن إعادة بعث المسلمين ونهضتهم المنتظرة على طريق الغرب .

(١٠) « التناقضات الثقافية للرأسمالية » لندن ١٩٦٧ للكاتب « دانيال بل» ، انظر أيضا لـ « ولفجانج سليم فروند » مقالته ، فى المجلة النمساوية للعلوم الاجتماعية ، العدد الثالث صفحة ٤٧ .

(١١) مقالة « مارسيل بويزوت » المنشورة فى الجريدة ٣/ ٨٤ للمعهد الأوروبى للأمن ـ بروكسيل .

(١٢) اقرأ لبسام طيبى « أزمة الإسلام الحديث » ميونيخ ١٩٨١ ، « فولفجانج سليم فروند » مناقشة هذا فى «الإسلام والغرب » ١٩٨٢ العدد الثالث صفحة ١٢ ، « فروند » فى العدد الثانى من «الشرق» ١٩٨٧ صفحة ٢١٦ ، « الأصولية اليهودية والإسلامية » « ديتلف خالد» فى جريدة زيوريخ الجديدة، ٢٨ إبريل ١٩٨٣ ، « التطور فى الإسلام » ، بيتر شول ـ لاتور ١٩٨٣ . « الله مع الصابرين » شتوتجارت «الحرب فى سبيل الله »ميونيخ ١٩٨٣ « وليام ديتل » .

(١٣) جريدة فرانكفورت الجماينه ١٦/ ١٠/ ١٩٨٦ صفحة ٩ .

(١٤) « الله ليس كذلك » طبع بالألمانية و طبعته دار الشروق بالعربية .

الفصل الثانى

الإيمان الكامل

تبرر بعثات التبشير المسيحى انتشار الإسلام السريع فى غرب إفريقيا ، السنغال ، الكاميرون ، ساحل العاج ، إلى بساطة تعاليمه وخلوها من الأسرار الغامضة المعقدة . وإذا كان الأمر كذلك ، فسوف نتمكن من وصف الإسلام فى فصل واحد .

حتى تكون مسلماً ، عليك أن تؤمن بإله مُنزَّه فعال ـ لأن هذا الكون لابد له من صانع يقيمه [١٥] ـ وإن الله أوحى لرسله أن يبلغوا البشر رسالاتهم ، وختم رسله بمحمد . لذلك تشهد قائلا : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

لا يخوض المسلمون فى كنه الله ، بل يتوقفون عند ما جاء به القرآن ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ (الإخلاص) ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ (١١ ـ الشورى) ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ (١٠٣ ـ الأنعام) فينزهونه ويسبحونه عن كل شبه .

يرى المسلمون أنه لا يمكن للإنسان أن يهتدى من نفسه للطريق الصحيح (أثبت التاريخ والحاضر صحة ذلك) ، فالوحى الإلهى لا غنى عنه لديهم .

كذلك يؤمن المسلمون أن الله بعث هداه للبشر خلال رسل التوحيد مثل إبراهيم وموسى وعيسى ، وختم بمحمد ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما** ﴾ (٤٠ ـ الأحزاب) .

ظلت حاجة البشرية إلى الوحى الإلهى حتى بعد موسى وعيسى ، فمن وجهة النظر الإسلامية ، حرف اليهود والمسيحيون الرسالة الإلهية . ومع تلك الحاجة ، تهيأت البشرية لفهم وحفظ الوحى الجديد [١٦] ، ولذلك نزل الوحى فى حجة الوداع بعرفة ، يوم الجمعة التاسع من ذى الحجة السنة العاشرة هجرياً (٦٣٢ م) ، بالآية الثالثة من سورة المائدة وفيها ﴿ **.. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ..** ﴾ ، وتوفى محمد بعدها بواحد أو اثنين وثمانين يوماً .

كلمة مسلم هى اسم الفاعل من « أسلم » ، والمعنى أسلم أمره لله ، وجذر الكلمة

«سلم» تعنى خلا من العيوب والفساد والمرض والضرر . فالمسلم طبقاً للتعريف القرآنى ، هو الذى يجد النجاة والفوز فى التسليم الطوعى لله . وعرّف يوحنا سوكولوفسكى إس . جيه الإسلام بأنه : التسليم لله الذى يجلب السلام ، ويهيىء المرء - كلاً واحداً - للسلامة والصحة فى بدنه وروحه (١٧).

ولذلك فإن إبراهيم وعيسى ، كذلك بعض النساك العرب - قبل الإسلام - مسلمون.

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٢٨٥ - البقرة)، **﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾**(النساء ١٣٦).

بينت الآيات أساس الإيمان الحق :

* وجود الله .
* وجود المخلوقات الروحية (الملائكة) .
* نزول الكتب السماوية .
* بعث الله الرسل للبشر .
* البعث بعد الموت ، للحساب والجزاء .
* القدر (سيأتى فى فصل كامل) .

وعلى هذا ، يتبع المسلم الوصايا العشر التى أنزلت على موسى ، والمحبة التى جاء بها عيسى ، وعموما ما جاء فى الشرائع القديمة ما لم ينسخه القرآن (*).

ولما كان الإسلام عقيدة وشريعة ، فقد جعل تصديقا للإيمان أركانا رئيسية خمسة(**) :

(*) هناك خلاف بين علماء الأصول ، هل شرع من قبلنا - الذى لم ينسخه شرعنا - واجب الاتباع ؟ وهو خلاف نظرى إلى حد كبير ، لأننا نعلم أننا لا نستطيع الاعتماد على كتبهم التى أصابها التغيير والتبديل ، ويبقى من شرعهم ما بينه القرآن ، وما لم ينسخه القرآن .

(**) هذه هى الأركان ، وليست كل الإسلام ، والحديث النبوى يقول « بنى الإسلام على خمس » بمعنى هذا هو الأساس ، فإذا كان البناء لا يقوم إلا على أساس ، فأيضا لا يقتصر البناء على أساس ، فبدون الجدران والسقف لن يكون ذلك بناء ، والجدران والسقف هما بقية ما أمر به الشرع من أعمال . ونهى عنه من سوء ومنكر .

شهادة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .
خمس صلوات فى اليوم .
الزكاة .
صوم رمضان .
حج البيت من استطاع إليه سبيلا [١٨] .

وإذا كانت الشهادة فقط من بين الأركان الخمسة لا تحتاج لمجهود بدنى ، فبقية لأركان الأربعة تحتاجه ، فالإسلام عقيدة وشريعة ، أى علم وعمل ، وما أكثر ما تكرر فى القرآن ﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾ واقرأسورة العصر ﴿ **والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

المسلم عرضة للخطأ وارتكاب الذنوب ، ولا يثير هذا تساؤلا : ألا يزال مسلما ؟ ولكن إذا قطع صلته بربه فتوقف عن الصلاة أصبح من الصعب التسليم بإسلامه .

القرآن هو مرجع المسلمين . نزلت على محمد مائة وأربع عشرة سورة ، تتكون من ستة آلاف ومائتى وست وثلاثين آية ، فى الفترة من ٦١٠م إلى ٦٣٢ ميلادية (١٣ قبل الهجرة إلى ١٠ هـ) . وعند المسلم ، القرآن هو كلام الله ومعجزة الإسلام ومحمد[١٩] ، فهو ليس كمعظم الكتاب المقدس - بعهديه - من صياغة البشر .

قد ينكر غير المسلم أصالة الوحى القرآنى ، ولكن لا يستطيع أن ينكر أصالة النص القرآنى وأنه ذاته ماقرأه محمد حرفا بحرف ، حاول المستشرقون عبثا بكل الطرق إنكار ذلك دون جدوى ، ولو اتبعوا تلك الطرق مع الكتاب المقدس لما بقى منه حتى الأشلاء .

قد يرفض غير المسلم محتوى القرآن ، ولكنه لايستطيع أن يتجاهل تأثيره الخلاب على قارئه ، لقد فتن البليغ جوته وفريدريش روكيرت [٢٠] . وعند العربى ، لغة القرآن دليل كاف على منشئه الإلهى . وللأسف يغالى بعض المسلمين فى تأويل آيات القرآن لاستخراج مختلف أنواع العلوم منها ، تلك التى قد لا تمت بصلة لكتاب العقيدة والشريعة ، مستندين لفهم خاطىء للآية الثامنة والثلاثين من سورة الأنعام ﴿ **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ [*] .

(*) الكتاب هنا ليس القرآن إنما هو اللوح المحفوظ .

وما وضحه موريس بوكاى من أن المعرفة العلمية الحديثة - التى طعنت الكتاب المقدس كثيرا - لم تمس القرآن ، بل كشف القرآن منذ أربعة عشر قرنا عن ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ - الآية الثانية من سورة العلق ، ويبن العلم الحديث كيفية تعلق البويضة المخصبة بجدار الرحم ، ومثل ذلك من الإشارات العلمية فى القرآن (٢١) كل هذا لايعنى الإفراط فى تأويل القرآن واعتباره موسوعة علمية .

برغم استحالة ترجمة القرآن دون فقدان بعض المعنى وجمال الأسلوب ، بسبب ثراء اللغة العربية ، فإنه أصبح أكثر الكتب ترجمة وطبعا فى العالم (٢٢) ، والكتاب الوحيد الذى يحفظه عن ظهر قلب مئات الألوف من البشر . وعربية القرآن هى التى تجمع العالم الإسلامى الذى يتجاوز الآن بليون نسمة .

حافظ القرآن على اللغة العربية - قواعدها وكلماتها - فجعلها اللغة الوحيدة فى العالم التى كتب بها نص منذ ١٤٠٠ عام ، يستطيع مئات الملايين من عامة أهلها قراءته دون الحاجة للتأهل بدراسات خاصة لذلك ، أو لترجمته (*) .

أصبح هذا الكتاب سلاحا معجزا (جريدة الوقت الألمانية) ، وتصدر قائمة أكثر الكتب مبيعا بعد حرب الخليج (٢٣) .

ليس بالضرورة فى كل الحالات أن يكون ارتفاع مبيعات ترجمات القرآن عاملا إيجابيا ، فقد تؤدى قراءة القرآن على أسس غير صحيحة إلى نتائج عكسية ، ولذلك جاءت السنة شارحة ومفصلة للقرآن [فهى له كالمذكرة التفسيرية أو الملاحق الشارحة لإعلانات المبادئ ، أو للاتفاقيات والمعاهدات ، أو القوانين] ، فهى المرجع الثانى للمسلم ، وقد أمر القرآن وأكد وكرر فى آيات كثيرة على طاعة محمد ﷺ، وأنه الأسوة الحسنة .

كثيرا ما تؤدى عدم الإحاطة بالأحداث التى نزلت فيها آيات (أسباب النزول) ، أو عدم الأخذ بكامل السياق القرآنى إلى افتقاد الصواب فى الفهم . كذلك يتنوع فهم المفسرين للقرآن حسب مناهجهم ومذاهبهم ، فمن تفسير ظاهرى لباطنى ، وشيعى لسنى ، وصوفى لعملى حركى (٢٤) ، وطبرى القرن التاسع لمحمد أسد القرن العشرين (٢٥) .

غالى البعض فى الأمر بطاعة محمد صاحب الشخصية الكاريزمية (٢٦) واتباع سنته ، فرأوا أن يقلدوا كل أفعاله ، حتى ما لم يتعلق بالرسالة من أعمال نتاج البيئة

(*) لا يستطيع عامة المثقفين الإنجليز أو الألمان أو الفرنسيين فهم نصوص كتبها أجدادهم منذ سبعة قرون فقط .

والعصر (مثل ركوب الناقة ، وإطلاق اللحية ، وطريقة تنظيف الأسنان . . . أو تفضيل بعض أنواع الطعام) .

يتضمن هذا الختان و هو غير مذكور فى القرآن ، ولكنه عادة ترجع إلى العهد القديم ، تمارسها كل الفرق الإسلامية (*) .

يغالى البعض فى تمجيد محمد وتقديسه ـ خاصة إبان الاحتفال بالمولد النبوى ـ الأمر الذى لا يخلو تماما من الزلل ، ولنا عبرة فى تاريخ عيسى عند المسيحيين . أكد محمد مرارا

(*) فرق العلماء بين أفعال محمد ـ ﷺ ـ التى تختص بالرسالة وغيرها ، فكما ذكر المؤلف ركوب الناقة أو الأكل باليد أو الأكل على الأرض أو طريقة اللباس ، فكل ذلك من نتاج البيئة والعصر ، ولا يختص بإبلاغ الرسالة ، وإن لم يمنعه القرآن ، ثم قسم العلماء أفعال الرسول وأقواله الخاصة بالرسالة ، فهناك ما هو بوحى ، وهناك ما هو باجتهاد ، فالأول واجب اتباعه ، لاخلاف فى ذلك ، أما الثانى ، فما فعله محمد صلى الله عليه وسلم بصفته رسولا ، فهو أيضاً واجب الاتباع ، أما ما فعله بصفته رئيس دولة أو قائد جيش أو كبير عائلة ، فهذا أيضا ينقسم قسمين ، الأول ما يمثل مبادئ عامة أو قواعد كلية ، فهذه قائمة على أسس شرعية ، فهى واجبة الاتباع ، ثم يبقى ما يمثل قرارات تفصيلية أو تنفيذية طبقاً للأحوال والوقائع المحيطة ، فتلك يمكن للمسلم الاجتهاد فيها ولا يلزمه اتباع ما اجتهد فيه الرسول .

وأمثلة للأخير : (١) فى غزوة بدر ، نزل الرسول بجيشه فى موقع ، فجاءه الحباب بن المنذر يسأله : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة. قال : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش .

(٢) فاوض رسول الله ـ ﷺ ـ غطفان خلال حصار الأحزاب للمدينة على أن يرجعوا ولهم ثلث ثمار المدينة ، واستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة زعيمى الأنصار فرفضا ، فقطع مفاوضاته مع غطفان خلال ذلك الحصار الذى نوت به قريش والعرب استئصال محمد والمسلمين !

(٣) أرسى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبدأ «يد الصانع يد أمانة» ويعنى هذا إذا طلب أحد من حرفى أن يصنع شيئاً ، لباساً أو حليا أو ما شابه ، ثم تلف ذلك الشىء فلا يطالب الصانع بعوض عما أتلفه . ثم جاء على بن أبى طالب ـ أدرى العالمين بسنة محمد معلمه وابن عمه وحميه وأخيه ـ فقال لا يُصلح الناس إلا التعويض .

(٤) حررت عائشة جاريتها بريرة ، فأصبح لها أن تخلع زوجها الذى شُغف بحبها ، فوسط محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئلا تفارقه ، فسألته أتأمرنى يا رسول الله ؟ فأجاب : إنما أنا شافع . فقالت : لا حاجة لى به . وفارقته .

أما موضوع اللحية والختان ، فيجرنا إلى مسألة أخرى . قسمت المذاهب أوامر الشرع إلى : فرض ـ تطوع أو مندوب أو سنة . ونواهى الشرع إلى حرام ـ مكروه . وأضاف الحنفية الواجب ، وهو بين الفرض والمندوب أو السنة . وأضافوا الحرام تنزيها بين الحرام والمكروه .

وقد جاءت أحاديث نبوية تفيد أن إطلاق اللحية والختان من الفطرة . وقال بعض العلماء إن إطلاق اللحية من السنة وقال بعضهم ، إنها فرض ، وأكثرهم أن الختان سنة . أما تنظيف الأسنان ونظافة الجسد واللباس ، والنظافة بصفة عامة ، فهى سنة قريبة من الواجب ، وبأى وسيلة مشروعة مناسبة .

وتكرارا أنه بشر [قال : إنما أنا بشر ، وقال للذى هابه مهابة شديدة : إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد] ، كذلك أكد القرآن وكرر ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ﴾ آخر الكهف ومع ذلك تجد بعض المغالين يقولون إنه نور ، وإن العالم خلق من ذلك النور ، وإن العالم خُلق من أجله ، ونسجوا حوله البدع والأساطير (٢٧) .

حتى تفهم الإسلام تماما ، عليك أن تدرس السنة من مجموعة الأحاديث الصحيحة ، ولتصبح مسلما حقيقيا وتقيم الحضارة الإسلامية (٢٨) . عليك أن تتبع السنة [واقرأ للقرضاوى كتابه الأخير : السنة مصدرا للمعرفة والحضارة] ولن يسمح هذا الكتاب الصغير بتناول السنة بالتفصيل .

يتفق الإسلام والمسيحية فى الدعوة لكثير من الفضائل مثل : الإخاء ، الأمانة ، التقوى ، الكرم ، وغير ذلك ، ويختلف الاثنان فى فروع رئيسية ، منها :

١ ـ يعيش المسلم بدون كهنوت ولا بناء دينى طبقى (هيراشيه) ، يصلى لله مباشرة ، ويدعو الله مباشرة ، فى دين صاف من الأسرار والغوامض . يناسب ذلك إنسان العصر الديمقراطى أكثر من أسلوبى الكنيستين البيزنطية والكاثوليكية القائمين على الوساطة .

٢ ـ يحرم الإسلام أكل الخنزير والمسكرات والمخدرات بجميع أنواعها ، مما يحافظ على الصحة العامة ، ولا يُسقط المسئولية عمن يرتكب خطأ فى حالة سكر أوتخدير تحت دعوى أنه مريض نفسيا أو معنويا .

كذلك تحافظ الصلوات الخمس بما فيها من روحانيات الخشوع والتأمل والدعاء على الصحة النفسية للمسلم ، الأمر الذى لا تكفله صلاة الأحد أو الصباح عند المسيحى .

٣ ـ على النقيض من إدانة القديس بولس للجنس والزواج ، ودعوته للعزوبية ـ الأمر الذى أدى إلى كثير من الكبت والمعاناة والآثام [والأبناء غير الشرعيين والشذوذ والفضائح بين آباء الكنيسة] ـ شرع الإسلام الجنس بالأمر بالزواج ، وحرمه تحريما باتاً خارج الزواج ، فهو يهذب ويصقل و يحمى طبيعة الإنسان ، لا يكبتها ولا يُطلق عنانها للإباحية ، ويعرف الإسلام تماما الفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة ولا يعمل ضد الطبيعة ، فهو يعلم تماما ما يجلبه ذلك من كوارث .

٤ ـ لا يقول الإسلام بأن الإنسان ولد ابنا للخطيئة وفى حاجة لمن يحرره منها [بل يقول إن الإنسان خليفة الله على الأرض] ولا يقول بتوارث الخطيئة ، ويُجبل الناس

على الاعتقاد بإثمهم الأزلى الذى يستحقون عليه اللوم الجماعى ، الأمر الذى له تأثيره السلبى كما علمنا علم الاجتماع .

وفى المقابل ، يأمر الإسلام بوسائله الذهبية (مثل الصيام والصلاة اليومية ، والزكاة والحج) على تهذيب النفس الإنسانية وصقلها وصهرها فى محبة الله ومحبة الناس .

٥ ـ لا ينحصر منهاج المسلم فى عالم العمل والتجارة والاقتصاد فى أهداف تحقيق أعلى ربح وأقل تكلفة [وتكديس رأس المال] ، بل له أهدافه الاجتماعية مما يجعله تصحيحا لمنهاج المجتمع الصناعى .

٦ ـ أخيرا ، وطبقا للسورة التاسعة بعد المائة من القرآن ـ والتى يجب أن يعلقها فوق مكتبه كل مسلم ومسيحى ـ ولا أدرى ـ وملحد ، ومؤلف هذا الكتاب ـ ﴿ لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ويعتبر بها قبل الدخول فى أى مقارنات للأنظمة المختلفة .

ويجب أن يكون المسلم مثالا للتعايش السلمى مع من يختلف معه فى الفكر والعقيدة ، حتى مع الدولة العلمانية ، رغم زعمها أنها السبيل الوحيد لسعادة العالم .

هوامش الفصل الثانى

(١٥)﴿ ... ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (ق : ١٦) لا يوحى هذا بفكرة وحدة الوجود ، واقرأ آية الكرسى .

(١٦) النسخ فى الآية ١٠٦ من سورة البقرة، وعموما ، لا يتعلق بحقائق تاريخية أو غيبية، وأتفق مع محمد أسد أن المقصود بآية هنا هو الرسالة ، والنسخ لما قبل القرآن وليس فى نفس عصره، راجع لمحمد أسد « رسالة القرآن » - جبل طارق ١٩٨٠ ، الهامش السفلى ٨٧ على الآية ١٠٦ سورة البقرة ، ومحمد أيوب «القرآن ومفسروه » والخاص فى القرآن يُقدم على العام ، حتى إذا كان نزوله قبله ، واقرأ فى ذلك : التحريم التدريجى للخمر لـ « هليموت جاتزه » فى كتابه «القرآن وتأويله » - زيوريخ ١٩٧١ ، صفحة ٢٦٤ .

(١٧) « السلام والإسلام » فى مجلة الفكر والحياة ، ١٩٨٣ العدد الثانى صفحة ١٤٥ .

(١٨) من ضمن آيات الإيمان فى القرآن : الآية ٢٨٥ سورة البقرة ، والآية ١٣٦ سورة النساء . أما آيات الأركان الخمسة فهى كثيرة متكررة فى القرآن .

(١٩) اقرأ فى تاريخ القرآن « علوم القرآن » لأحمد فون دنفر ، ليستر ١٩٨٣ ، ولمحمد طالبى «انطباعات من القرآن » باريس ١٩٨٩ ، ولبول شفار تزناو «القرآن للمسيحيين »، الطبعة الثانية هامبورج ١٩٩٠ ، ووجهة نظر المستشرقين لـ « رودى باريت » فى « محمد والقرآن » شتوتجارت ١٩٨٥ .

(٢٠) اقرأ فى مجلة الإسلام : الإسلام وجوته . أحمد فون دنفر ١٩٩٠ الأعداد ١ - ٤ ، ولـ « شميده » جوته والإسلام ١٩٨٢ العدد ٦ ، وترجم روكيرت القرآن فى نظم شعرى بديع « القرآن» ١٨٨٨ ، وأعيد طبعة ١٩٨٠ . هيلدشيم ، وإنه لمن الأمور المثيرة للحيرة أن أحد أعظم فلاسفة التاريخ الألمان «كانت »وجدت البسملة على شهادته فى الدكتوراه، راجع كذلك « المفكرون الألمان والإسلام »لأحمد فون دنفر

(٢١) « الكتاب المقدس والقرآن والعلم الحديث » ومؤلفه الطبيب الفرنسى موريس بوكاى ، طبع بلغات كثيرة طبعات عديدة .

(٢٢)ألحق محمد حميد الله بترجمته للقرآن ، قائمة من أربعين صفحة لترجمات القرآن، بما فى ذلك اللغة اليديشية ، انظر « القرآن المقدس » الترجمة الفرنسية ، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٥ . أول ترجمة للإنجليزية كانت فى ١٦٤٨ ، ومصدرها الترجمة الفرنسية ١٦٤٧ . أما أول ترجمة

للألمانية فكانت ١٦١٦ بيد سالومون شفيجن ومصدرها الترجمة الإيطالية . والآن توجد ٢٢ ترجمة بالألمانية ، واحدة فقط نشرها ألمانى مسلم سنى .

(٢٣) جريدة الوقت ، ١٥/ ٢/ ١٩٩١ : السلاح العجيب ـ سوزانا ماير .

(٢٤) لتأخذ فكرة عامة عن الموضوع ، اقرأ فى نشرة كتاب العالم الإسلامى مقالة محمد سورتى عن التفسير والتأويل للقرآن باللغة العربية ، ليستر ١٩٨٧ ، العدد الرابع ، صفحة ٥١ . كذلك ما كتبه رباح الاسلامبولى فى المجاهد الجزائرية ٣٠/ ٣ ، ١/ ٤/ ١٩٩٠ عن التعليق على القرآن .

(٢٥) « جامع البيان فى تفسير القرآن » للطبرى ، وحاشية رقم ٢ فى تعليق محمد أسد ، طبعة أكسفورد ١٩٨٧ .

(٢٦) انظر سيرة ابن اسحاق وسيرة ابن هشام ، « حياة محمد » أكسفورد ١٩٥٥ ، « محمد» لمارتن لنجز ، نيويورك ١٩٨١ ، « حياة محمد » لفرجيل جورجيو ، باريس ١٩٧٠ ، « محمد» لإميل درمنجهام ، باريس ١٩٦٠ ، « محمد » لكا ترين ارمسترونج لندن ١٩٩١ .

(٢٧) « و أن محمداً رسول الله » ـ آنا ماريا شمل ، كولون ١٩٨١ .

(٢٨) أصح كتب الحديث البخارى ومسلم و [موطأ مالك] وارجع للعقيدة الواسطية لابن تيمية ورسالة التوحيد لمحمد عبده ، مقدمة للإسلام لمحمد حميد الله .

الفصل الثالث

المسيّحيّة والإسلام

كلما نطق المسلم اسم محمد ، أو قرأه فى كتاب ، أضاف قائلا - ﷺ - كذلك يفعل مع عيسى .

قد يُدهش هذا القارئ الذى لا يعرف الإسلام ، فالإسلام لا يعتبر نفسه دينا جديدا بعد المسيحية ، بل إتماما للتوحيد الذى جاء به إبراهيم (الآيه ١٣ من سورة الشورى) . وعلى هذا فيمكن اعتبار الإسلام بعثا وتجديدا لدين التوحيد القديم ، فهو على هذا الأقدم والأحدث بين ديانات التوحيد الثلاثة . ولا يبنى الإسلام صلاحيته على رفض الديانتين الأخريين (٢٩) ، ولا يحتكر المصدرية الإلهية وطريق الفلاح كما تفعل الكنيسة الكاثوليكية ، بل هو يقوم على الاعتراف بكل الأنبياء السابقين وما أنزل عليهم من ربهم ، كما بينت الآية ٨٤ من سورة آل عمران ﴿ **قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ . وبكلمات بول شفارترناو : القرآن وحى للعالمين (٣٠) . وفى الواقع ، يشترك الإسلام والمسيحية واليهودية فى أوجه كثيرة ، واختلافاتهم أقل من تلك التى مع البوذية والهندوسية (٣١) .

يعتبر المسلمون عيسى أحد رسل الإسلام والتوحيد ، ولكن ليس آخرهم (٣٢) . ويقول القرآن إن العهد القديم والعهد الجديد (٣٣) بشرا بمحمد الذ ى سيكون خاتم النبيين ، كما بينت الآية الأربعون من سورة الأحزاب .

روت سورة آل عمران وسورة مريم فى كثير من آياتهما عن عيسى ومريم ، كذلك السنة : ﴿**قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين**﴾ [آل عمران : ٤٧ - ٤٩]

﴿واذكر فى الكتب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجآءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ايليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصنى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبرا بولدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾ [مريم : ١٦ ـ ٣٤].

بين هذا بوضوح أن المسلمين يرون عيسى رسولا ولد بمعجزة من مريم العذراء ، ليس ابن الله وليس متحدا فى الجوهر مع الله كما تقول العقيدة المسيحية ، بل هو عبد الله . اقرأ أيضا الآية ١١٠ فى سورة المائدة ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ [المائدة : ١١٠].

واقرأ سورة الإخلاص ، واقرأ الآيةالثالثة فى سورة الجن ﴿ وأنه تعالى جدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴾ والآية ٦٨ سورة يونس ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ .

والآيتين ٨٨ ، ٨٩ سورة مريم ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا ﴾ (٣٤) [مريم : ٨٨، ٨٩]

يرفض القرآن بحزم وحسم ووضوح مفهوم التثليث ، الآيات ٧٢ ـ ٧٥ سورة المائدة

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ (المائدة : ٧٢ ـ ٧٥) .

كذلك يرفض تأليه مريم [٣٥] ﴿ قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين. وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ (المائدة : ١١٥ ـ ١١٨) .

فمريم كابنها عيسى لم يكونا إلا آية من آيات الله المعجزة ، وواحدة من المؤمنات الصالحات القانتات ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين. وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين. ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ (التحريم : ١٠ ـ ١٢) .

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا﴾ (النساء : ١٧١) .

يؤكد القرآن أن عيسى رُفع ولم يُصلب ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا﴾ (النساء : ١٥٧) .

كيف يبدو فى العالم الغربى الآن رفض الطبيعة الإلهية لعيسى ، والروح القدس

كذات إلهية ، وبالتالى التثليث ؟ أعتقد أنه فى هذا المجال ، سيكسب الإسلام مؤيدين وأنصارا من المسيحيين .

لا تلعب الروح القدس أى دور فى الحياة اليومية للمسيحى ، ويزداد الاقتناع أن تلك الذات المقدسة ما هى إلا نتاج التفكير الأفلاطونى والغنوصى فى فترة ما قبل المسيحية ، ثم الأفلاطونية الحديثة التى تغلغلت فى المسيحية ، وأيضا - ولكن بدرجة أقل - بأسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس ، وقد تنفس كل ذلك مؤلف إنجيل يوحنا - كائنا من كان - ثم سطره فى إنجيله قائلا :

فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . هذا كان فى البدء عند الله . . . .

استلزم ثالث الثالوث تأويلا لترجمته ، قُدمت كلمة برقليط (Periqlyte) أولا على أنها الروح ، ثم تحولت وبحروف لاتينية كبيرة إلى الروح القدس[٣٦] .

وعلى أى حال ، لم يشر عيسى من قريب أو من بعيد إلى التثليث ، بل اعتنق - ككل اليهود المسيحيين - مفهوم اليهود الصحيح عن الله [٣٧] .

لم يمنع هذا مجمع نيقية (٣٢٥ م) من تأسيس عقيدة التثليث ، ليس عن طريق إعلان أو تصريح ولكن فرضا للعقيدة بالقانون ، وإفناء كل ما يخالفها من كتب ومخطوطات .

ومن الأهمية بمكان (أو من المأساة) أن أقدم نسخة لدينا من الإنجيل ، إنما كتبت بعد المجمع ، ومع أنه ليس من الضرورى أن نوافق على كل ما كتبه كارل هاينز ديشنر وماكتبه عن «التاريخ الإجرامى للمسيحية » ، فمقالته عن الديانة المزورة يقترب كثيرا مما أكده القرآن من تزييف للكتاب المقدس [٣٨]

توقف اللاهوتيون البروتستانت وبعض الكاثوليك عن تضليل أنفسهم وراء مصادر غير موثوقة ، ناهيك عن المتناقضات والمفارقات التى لا تعد ولا تحصى ، وعن الإيمان بالأفكار الوثنية التى وجدت طريقها إلى الممارسات المسيحية . شككت الأبحاث التاريخية فى مثول عيسى للمحاكمة ، ولم يشهد دفنه ولا قيامه أحد [٣٩] .

يفسر ماسبق الزيادة الهائلة فى عدد المؤلفات التى تتناول عيسى فى الثلاثين سنة الماضية ، حيث يقع فهرست هذه الأعمال فى أكثر من ٥٠٠ صفحة . كذلك ما أضعف أدلة تجسيد الله فى عيسى ، فحتى الأناجيل فى صورتها الحاضرة لا تبين ذلك ، بل على العكس ، وليس فقط فى الجمجمة (*) ، بل حتى فى إنجيل يوحنا ، حيث يقول عيسى : إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهكم . الأصحاح ٢٠ ، الآية ١٧ .

(*) الموضع الذى يزعمون أنهم صلبوا المسيح فيه .

وإطلاق كلمة الأب على الله ، والابن على عيسى وعلى البشر إنما هو من باب المجاز الواضح ، وتشبيه العلاقة بين الله والبشر بالعلاقة بين الأب والابن وارد في كثير من الأديان .

يمكننا بعد الخلفية السابقة أن نميز داخل الكنيسة أربع نظريات بخصوص المسيح :

١ ـ تؤمن أغلبية البسطاء ـ خاصة فى المناطق الريفية ـ بتوحيد خاص يجعل من عيسى والله واحداً . يقوم هذا التجسيد الإلهى على حاجتنا لعبادة من لا يختلف كثيراً عن أنفسنا (ومثل هذا الإله هو الذى قتله نيتشه !) .

٢ ـ وفى العالم البروتستانى بالذات ـ حتى بين رجال الدين ـ تغيرت النظرة إلى عيسى ، فيضمحل اعتباره إلهاً ويقوى اعتباره مثلاً يُثير الإعجاب ، عاش على المحبة ، جديرا بأن يقلده الناس ويتبعوا قيمه ومعاييره ، حتى لو أثبت التاريخ أنه لم يكن هناك عيسى ، أولم تبرهن الفلسفة الإنسانية المسيحية أنها مجموعة قيم ؟

وبهذا يتعرض عيسى لخطر الاختزال إلى عنصر اجتماعى فى منظومة البؤس اللاهوتى .

٣ ـ وعلى الطرف الآخر ، نجد شعوذة تلجأ إلى الأسرار والغموض لتأويل المشاكل والمتناقضات .

هذا ما أعاينه عندما أقرأ « روديجر أثمان » حيث يكتب عن « الليلة الغامضة » ، والتى ولد فيها الله (هكذا) ، وعندما يمارس غنوصية المسيحية [٤٠] .

يقنع مثل هؤلاء اللاهوتيين بأى مصادر تخدم تصوراتهم عن أساطيرهم الإلهية ، الأم الكبرى ، النور ، الخطيئة والخلاص . لا يجد مثل هؤلاء اللاهوتيين غضاضة فى القول بأن « الله حقق الكمال لذاته بأن أصبح رجلاً » ، ويستمرون قائلين « لقد أصبح الله شخصاً آخر بالتجسيد » [٤١] ، ولا يخافون أن يرميهم أحد بالهرطقة .

٤ ـ أخيراً ، هناك اتجاه يمثله اللاهوتى السويسرى هانزكونج ، يعترف بهشاشة النصوص الأصلية ـ بشجاعة وبلا مداراة ـ ولا يلجأ إلى زخرف الغنوصية أو الكلمات الرنانة . يحاول كونج حل المعضلات التاريخية والوجودية ، بالتضحية بعقيدة يتعذر الدفاع عنها ، وذلك بإعطاء تعريفات جديدة . فيصبح عيسى مختاراً من الله ، ومُخوَّلا من الله ، ويصبح التثليث الوحى من الله إلى عيسى عن طريق الروح القدس . [٤٢] .

استخلص كونج ذلك بعد ما تبين له الفرق الهائل بين مفهوم الأب والابن والروح القدس ، وتعاليم الكنيسة الخاصة بالتثليث ، مع ما تقول به الأناجيل . لم يجد فيها شيئاً يصلح أساساً ـ من قريب أو بعيد ـ لعقيدة التثليث [٤٣] . فإذا كانت هذه النظرة للمسيح تعنى أنه ليس ابن الله وليس متحدا معه فى الجوهر وليس الوحى ذاتا إلهية ، فإنها نظرة إسلامية ، وهى تعضد القول بأن المسلمين هم المسيحيون الأفضل ، وبالتالى الأقدم . وفى القرآن فقط تجد المسيح اليهودى (*) ، كما اكتشف ذلك كونج .

هذا الفهم الجديد ، القديم ـ والذى يخلع القلوب ـ لعيسى ، يجعل معتنقيه فى حاجة لتفسير كيف هم مسيحيون (بالمفهوم المسيحى المتعارف عليه) ؟ [٤٤] .

فى تقديرى ، يرتبط هذا الشعور ـ بشكل أو بآخر ـ مع مفهوم الخلاّص والنجاة ، والذى خلفيته الخطيئة الأصلية ، بينما فى مقدمته آلام عيسى عند صلبه .

يرفض الإسلام تماماً فكرة الخطيئة الأصلية لأنها جبرية ، ولأنها تضاد المبدأ القرآنى ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ، ولأنها تحمل فى طياتها سقوط الخلق الإلهى . مثل تلك الأفكار تناقض ما جاء به القرآن عن الله [٤٥] .

لايكتفى الإسلام بإنكار مفهوم الخلاص ، بل يصم بالتجديف الاعتقاد بأنه كان على الله أن يُضحى بنفسه ويُصلب حتى يفتدى بآلامه كل البشر ، فينجيهم من جهنم[٤٦] . فكأن الله غير قادر على إنقاذ البشرية إلا بخلق إله آخر يتألم ويُصلب ، وكأن الله أصبح ضحية للإنسان الثائر ضده . وهذا يتعارض تعارضا كاملا مع الله فى الإسلام .

وعلى هذا ، فنحن نتفق مع بول شفارتزناو عندما يرى إنكار المسلمين لموت عيسى على الصليب هو إنكار لمفهوم الصلب والفداء والخلاص والخطيئة الأصلية . وعند المسلمين ، لم يقتل اليهود عيسى ولم يصلبوه ولم يقاس آلام ذلك ، ولكن شُبِّه لهم . وفى هذا يقول القرآن ﴿ **إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى** ﴾ من الآية ٥٥ سورة آل عمران .

ولا أحد يعلم كيف رُفع عيسى رغم التخمينات الكثيرة ، [٤٧] وفى ذلك يقول القرآن ﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل**

(*) المقصود بالمسيح اليهودى ، المسيح البشر الذى يقول : إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . وذلك طبقاً للتوحيد اليهودى الصحيح .

رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما وإن من أهـل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ [٤٨] ١٥٧ ـ ١٥٩ سورة النساء . ولهذا فيجب أن تُقبل أسطورة حياة عيسى فى كشمير ، وموته هناك فى سن متقدمة كما هى [٤٩] .

أوجزنا فيما سبق خلفية السؤال الكبير : ما هى فرصة الحوار المسيحى ـ الإسلامى ـ اللازم لحفظ سلام العالم ـ فى النجاح ؟ [٥٠] .

لن يكون هناك سلام عالمى بدون سلام بين الأديان . ذلك عنوان المحاضرة التى ألقاها هانز كونج فى الجزائر ٢٢ نوفمبر ١٩٨٨ ، وبالطبع لم يكن يعرف ماذا حدث فى الخليج بعد سنتين . أمل كونج فى مزج لشعوب العالم بناء على تقارب وتفاهم دينى ، ليس دين واحد ولا مزج للأديان .

تم إنجاز كثير من الأعمال التحضيرية لمثل هذا الحوار ، خاصة من الجانب المسيحى فيما يخص مادة الحوار ومناخه [٥١] . يشمل ذلك الاجتماعات فى قرطبة ، والمنشورات الرفيعة لبعض ذوى المرتبة الدينية مثل مايكل ليلونج [٥٢] ، وتهنئة البابا السنوية للمسلمين بمناسبة عيد الفطر ، ودعوته لصلاة جماعية فى آسيزى ٢٧ أكتوبر ١٩٨٦ .

يستدعى التفهم المتبادل أن يقبل كل جانب ، الآخر على ما هو عليه . فليس من الضرورى أن يخاطب المسلمون المسيحيين كوثنيين ، وعلى الكنيسة أن تتخلى عن شعار لا خلاص خارج الكنيسة ، وشعار لانبى خارج الكنيسة .

وفى الحقيقة ، فإن إحدى مفارقات الفاتيكان أن يقرر النظر للمسلم العادى بكل احترام ، وفى الوقت نفسه يتجنب أى إشارة للقرآن أو محمد [٥٣] .

نستطيع أن نرى مما سبق أن التقارب بين الأديان ، أقرب لأن يظل محدوداً ، طالما هناك فى قلب كل دين أساسياته الخاصة والتى لا تقبل التفاوض . وكما قال هانز كونج فى محاضراته فى قرطبة :

* ابن الله فى المسيحية .

* كتاب الله فى الإسلام .

وفى الحقيقة ، فالتباين واضح . فمحور المسيحية شخص ، ومحور الإسلام كتاب ، ومحور اليهودية عقد . فكلمة الله أصبحت بشرا فى المسيحية ، وكتابا فى الإسلام [*] [٥٤] .

(*) فى الحقيقة هى فى الإسلام كتاب وبشر : القرآن والسنة .

وفى الحقيقة أيضا ، التوفيق بين المسيحية والإسلام وارد ، إذا تبنت السلطات المسيحية فهم كونج لعيسى ، ومن هنا قد تكون نقطة البداية للاعتراف بالقرآن [الذى صحح الاعتقاد الأساسى للمسيحيين].

وعلى أى حال ، علينا ألا نستهين بالحوارات العالمية ، طالما يتم فيها استبعاد ما هو غير قابل للتفاوض ، ولانستهين بالخطوات الصغيرة ، والقيمة العلمية من اللقاءات الفردية ، خاصة مع المسلمين فى أوروبا ، طالما لا يصر أحد الطرفين على تحويل الآخر عن دينه ، ومعروف أنه لا يتحول أحد من الإسلام إلى المسيحية .

هوامش الفصل الثالث

(٢٩) اقرأ «الإسلام» لـ «إيمانويل كيلرهانس» الطبعة الثانية ، بازل ١٩٥٦ صفحة ٣٧٧ .

(٣٠) « علوم القرآن للمسيحيين » لـ « بول شفارتزناو » الطبعة الثانية - هامبورج ١٩٩٠ .

(٣١) طبقا لما كتبه الأب «جورج بوكرمان» فى جريدة فرانكفورتر الجمناينه ٢٥ / ٩ / ١٩٨٦ صفحة ١١ .

(٣٢) اقرأ لمحمد عطاء الرحمن « عيسى نبى الإسلام » الطبعة الثالثة - لندن ١٩٨٣ ، ولأحمد عبد الوهاب « حوار النصوص بين المسيحية والإسلام » - باريس ١٩٨٧ ، ولـ « كينيث جى . روبرتسوف » « جيسوس أم عيسى : مقارنة فى الكتاب المقدس والقرآن » نيويورك ١٩٨٣ ، واقرأ لـ « نيلو جيجى » «مريم فى القرآن محور التقاء بين المسيحية والإسلام » - نيويورك ١٩٨٤ .

(٣٣) جاء فى إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤ / ٢٦ : وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ماقلته لكم . وفى الأصحاح ١٦ / ١٣ :

وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه .

وكلمة Parakletos مفترض أنها Periklytos ، وهى التى تم ترجمتها من اليونانية إلى المعزى ، أما الكلمة الأصلية فترجمتها أحمد فى العربية .

اقرأ لـ « دافيد بنيامين » كتابه [الصغير الحجم الكبير القيمة ، وترجمته دار نهضة مصر] « محمد فى الكتاب المقدس » ميونيخ ١٩٨٧ صفحة ١٨٣ ، واقرأ لصاحب مستقيم بليهر « شهادة الكتاب المقدس على المعرفة القرآنية » فايلرفيست ١٩٨٤ ، صفحة ١٨ ، بول شفارتزناو من المرجع المذكور .

(٣٤) اقرأ أيضا الآية ١١٦ سورة البقرة ، ٢٦ سورة الأنبياء . واقرأ لأحمد فون دنفر « الإسلام وعيسى» ميونيخ ١٩٩١ .

(٣٥) فى الممارسة المسيحية اليوم ، احتلت مريم المرتبة الثالثة ودفعت الروح القدس أسفل للرابعة .

ومن الممكن للمسلم الصوفى أيضاً أن يغالى فى حب مريم - اقرأ « مارى والإسلام» لـ تشارلى - أندريه جيلى باريس ١٩٩٠ .

(٣٦) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤ : ١٦ ، ٢٥ وراجع أيضا دافيد بنيامين وصاحب مستقيم .

(٣٧) اقرأ لـ « أدولف شلاتر » كتابه « تاريخ المسيحية الأولى » جوترسلوه ١٨٩٢ ، « جون هيك وإدموندإس . ملترز »« ثلاث إيمانات - إله واحد : مقابلة اليهودية والمسيحية والإسلام » لندن ١٩٨٦ .

(٣٨) اقرأ لـ « كارل هاينز ديشز » كتابيه « الاعتقاد الزائف » ميونيخ ١٩٨٨ ، « التاريخ الإجرامى للمسيحية » هامبورج الجزء الأول ١٩٨٦ ، الجزء الثانى ١٩٨٨ .

(٣٩) اقرأ لـ « فيديج إريك » « الصلب بلا محاكمة » ـ فرانكفورت ١٩٨٦ .

(٤٠) « رودجير ألتمان » ، ملحق فرانكفورت الجماينه ٢١/ ١٢/ ١٩٨٥ .

(٤١) « هانز فالدينفيلسى » ، فرانكفورت الجماينه ٢٤/ ١١/ ١٩٨٥ .

(٤٢) « هانز كونج/ جيه فان اس » فى «المسيحية وديانات العالم» الجزء الأول : الإسلام . ترجمة بيتر هاينج ، لندن ١٩٨٧ .

(٤٣) « هانز كونج » ـ من أجل حوار بين المسيحيين والمسلمين ـ شتوتجارت ١٩٨٤ صفحة ١٣٥١ .

(٤٤) « هانز كونج » ـ « لماذا مازلت مسيحياً ؟» أدنبره ١٩٨٧ .

(٤٥) للتعرف على دور الخطيئة الأولى فى تاريخ الكنيسة ، اقرأ لـ « إيلامين ياجلز » «آدم وحواء والحية» راينبك ١٩٩٠ .

(٤٦) « كارل ـ الفريد أودين » جريدة فرانكفورت الجماينه ٤/ ٤/ ١٩٨٥ : شهدت فرنسا ازدهار نظام لاهوتى لا إلهى عديم القدرة ، يعانى باستمرار مع الفقراء . واقرأ « جين ديلماو » باريس ١٩٨٥ .

(٤٧) اقرأ تعليقات حمزة أبى بكر الذكية على الآية ١٥٧ سورة النساء وترجمته للقرآن ، الطبعة الثالثة باريس ١٩٨٥ ، كذلك لـ « جى بارنيدر » «عيسى فى القرآن» أكسفورد ١٩٧٧ ، حيث جعل التأكيد على (شبه لهم) ، فكأن ظاهر الأحداث أوحى لهم بذلك ، بينما واقعها مخالف .

(٤٨) اقرأ لمحمد أسد « رسالة القرآن » ـ جبل طارق ١٩٨٠ الهامش السفلى رقم ١٧١ على الآية ١٥٧ سورة النساء ، وليوسف على « القرآن المقدس » ، الطبعة الثامنة ، برنتوود ١٩٨٠ ، الهامش السفلى ٦٦٣ على نفس الآية .

(٤٩) « أندرياس فابر ـ كيزر » ـ عيسى عاش ومات فى كشمير » لوسيرن ١٩٨٦ .

(٥٠) انظر بخصوص الحوار المسيحى الإسلامى س . م . عبد الله : « الإسلام : فى سبيل الكلام مع المسيحيين » الطبعة الثالثة التبزجر ١٩٩٠ .

(٥١) اقرأ « الحديث بين الإسلام والمسيحية » ـ كولون ١٩٨٣ ، « فى سبيل حوار مسيحى إسلامى » ـ «موريس يورمان » فرانكفورت ١٩٨٥ .

(٥٢) «مايكل ليلونج » ـ باريس ١٩٨٦ .

(٥٣) « هانز كونج » « المسيحية والإسلام » ورقة عصرية للتبادل الحضارى ـ شتوتجارت ١٩٨٥ العدد الثالث صفحة ٣١١ .

(٥٤) « هانز كونج » « العالم» هامبورج ٦ مارس ١٩٨٩ صفحة ١٣ .

الفصل الرابع

الدِّين والمَعْرفة

يمثل حلم «بيتى هو حصنى» هدفا أساسيا فى الإسلام ، الذى ينهى بشدة عن التنصت والتجسس ومضايقة الجار . وإذا طرقت الباب ثلا ث مرات ولم يجبك أحد ، دعهم فى سلام وانصرف لحالك (٥٥).

ولكن التعطش للمعرفة والفضول العلمى شىء مختلف. يدعو القرآن إلى استخدام العقل للتزود بالمعرفة فى عشرات المناسبات : أفلا تعقلون . . . أفلا تتفكرون . . . ألم تروا . . . إن كنتم تعقلون . . . لقوم يعقلون . . . ﴿وقل رب زدنى علما﴾ ١١٤ سورةطه . ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (الزمر : ٩) .

بل يمكن اعتبار أول آيات القرآن نزولا ـ أول سورة العلق ـ دعوة لاكتساب المعرفة بالقراءة والكتابة ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسن من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسن ما لم يعلم ﴾

يتفكر المسلم الحصيف فى الله وخلقه قائما وقاعدا وعلى جنبه ، يسعى وراء الموضوعية والأدلة وليس الأهواءالشخصية ولا الظن والحدس (٥٦) . وما أكثر الأحاديث النبوية التى تدعو الناس وتدفعهم دفعا لطلب العلم :

العلماء ورثة الأنبياء ـ رواه أصحاب السنن عدا النسائى .

من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله له طريقا من طرق الجنة ـ رواه مسلم وأصحاب السنن

طلب العلم فريضة على كل مسلم ـ رواه ابن ماجة .

واشتهرت أقوال مثل : اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ـ اطلبوا العلم ولو فى الصين .

استجاب الصحابة ـ وفى مقدمتهم الخلفاء الأربعة ـ والمسلمون الأول بكل جدية

لتلك الدعوة . وعندما سئل على بن أبى طالب إن كان محمد خصه بشيء فأجاب : والذى فلق الحب وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما فى القرآن ، إلا فهما يعطى لرجل فى كتابه وما فى هذه الصحيفة (ثلاثة أحاديث للرسول خاصة بالدية والأسرى والقصاص - رواه البخارى فى كتاب العلم)

كونت بهجة التطلع للمعرفة مع الاستعداد الدائب لاستخدام العقل منصة الانطلاق الصحيحة ، ليحقق المسلمون بدءا من أواخر القرن الثامن الميلادى إنجازاتهم العلمية الهائلة . نكتفى بضرب المثل بأربعة عشر منها (٥٧)

* ابن فرناس (ت ٨٨٨) أول من حاول الطيران باستخدام آلية من الأجنحة .

* محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٨٤٦) أبو الجبر واللوغاريتمات ، وقد اشتقت الأخيرة من اسمه .

* أبو بكر الرازى (٨٦٤ ـ ٩٣٥) درست جامعات أوروبا كتابه المنصورى لعدة قرون .

* الفيلسوف والحكيم ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) وموسوعته الطبية «القانون» ظلت مرجعا للجامعات الأوروبية حتى القرن التاسع عشر .

* الحسن بن الهيثم (٩٦٥ ـ ١٠٣٩) ترك تراثا علميا ضخما فى الرياضيات والفيزياء والفلك ، وهو الذى أنشأ علم الضوء الحديث وألف كتاب المناظر الذى استقى منه علماء أوروبا معلوماتهم عن الضوء ، وترجم إلى اللاتينية عام ١٥٧٢ وألف ٤٤ كتابا فى العلوم الطبيعية والرياضية ، وهو أول من قدم تفسيرا صحيحا لظاهرة قوس قزح وهو الذى استحدث اسماء : الشبكية ، القرنية ، السائل المائى ، السائل الزجاجى ، ومهد لاستعمال العدسات لإصلاح عيوب الإبصار ، وهو الذى صحح أن الإبصار هو عبارة عن سقوط الضوء من المرئى إلى الرائى ، وقال إن الأشعة الضوئية تسير فى خطوط مستقيمة .

* أبو الريحان البيرونى (٩٣٧ ـ ١٠٥٠) متعدد العبقريات مثل جوته ، مؤرخ للعلم ، ديبلوماسى ، باحث فى اللغة السنسكريتية ، فلكى ، صيدلى ، خبير بالفلزات . . .

* عمر الخيام (ت بين ١١٢٣ ، ١١٣١) شاعر ، رياضى ، صحح التقويم الهندى بدقة أعلى من تقويم ١٥٨٢ الجريجورى

* الفيلسوف ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨) ولتعليقاته على أرسطو تأثير بالغ على أوروبا (وقد اكتشف البقع الشمسية خلال وقت فراغه !)

* الحكيم المصرى ابن النفيس (ت ١٢٨٨) وقد اكتشف الدورة الدموية .

* ابن بطوطة (١٣٠٤ ـ ١٣٦٨ أو ١٣٧٧) الرحالة المغربى ، ذهب حتى تيمبوكوتو وبكين ونهر الفولجا وهو شبيه بماركو بولو .

* ابن خلدون الأندلسى (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) ، ومقدمته لموسوعته عن تاريخ العالم أهلته لأن يصبح مؤسس علمى الاجتماع و التاريخ الحديثين ، مع إحداثه ثورة نقد المصادر .

* الملاح أحمد بن مجيد ، المرجع فى عبور المحيطات فى القرن الخامس عشر .

* أمير البحر والجغرافى التركى بيرى ريس (١٤٨٠ ـ١٥٥٣) صاحب كتاب «البحرية» الذى مازال يذهل الناس بدقة خرائطه البحرية ، ورفيقه فى العلم سيدى على ريس (ت ١٥٦٢) الذى قاس الشواطئ الآسيوية وطور علم الفلك الملاحى .

تظهر القائمة السابقة أن العالم الإسلامى هو الذى أصبح وريثا للهلينستية وليس العالم الغربى .

وكما قال مارشال هود جون : يتضح بجلاء من تفجر المعرفة والتكنولوجيا فى العالم الإسلامى ، أن التبادل الثقافى بينه وبين العالم الغربى كان فى اتجاه واحد ، حيث لم يكن لدى الغرب شيء يستحق أن يرجع إليه . كان الغرب مستوردا خالصاً ، فمن طواحين الهواء والطرب حتى الأقواس الغوطية فى المعمار . ترك هذا الغزو الثقافى ـ كما نسميه اليوم ـ بصماته فى اللغة ، فعندما نقول :

Admiral, algebra, cipher, amalgam, alchool, lute, guitar, alcove, muslin, tariff.

فهى من العربية وتعنى : أمير البحر ، الجبر ، صفر ، الملغم ، الكحول ، عود ، قيثارة ، الجوف أو الفجوة ، موصلين ، تعريفة .

ولكن بدأت العلوم والفنون ـ خاصة العلوم ـ تخبو فى العالم الإسلامى منذ القرن الرابع عشر . كان أحد أسباب ذلك ظهور نظرية غلق باب الاجتهاد ـ وسيأتى ذلك فيما بعد فى باب الأصولية ـ والتى تنهج نهج الحفظ والتقليد بدلاً من البحث . وطبقا لهذه النظرية ، أحاط القدماء بكل المعارف المطلوبة ، ولا يستطيع أحد معرفة أفضل ، فهم أقرب للمصدر وأكثر فهما .

ويمكن إساءة تأويل القرآن ﴿ لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ (البقرة ٣٢)، تفهم على أنه لا يجوز البحث عن أى علم خارج القرآن، ألم يتكلم القرآن عن ﴿ يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ (البقرة ١٠٢)، اختلط ذلك بسوء فهم آخر للحديث النبوى « كل بدعة ضلالة » (*) مع أن السنة تفرق بين البدعة السيئة والبدعة الحسنة (**) وفى العصور الوسطى، شهر البعض سلاح البدعة الذى لا يُقهر أمام كل تقدم.

ومازال سلاح البدعة مشهرا يعوق تقدم المسلمين، حتى إن البروفيسور حسان بن صادق الطنجى ألقى محاضرة أمام الملك الحسن الثانى فى الرباط فى ٢٤ مارس ١٩٩١، محورها أن يقنع الجمهور أن المسألة كلها خاصة بالشرع والأخلاقيات، ولا تتعلق بالاختراعات من قريب أو بعيد (٥٨).

لم تخل فترة الانحطاط التى بدأت فى القرن الرابع عشر من أشعة أمل. ففى عام١٦٣٤ شيد تاج محل، والجامع الأزرق فى استانبول. وظهر ولى الله الدهلوى (١٧٠٣ - ١٧٦٣)، محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٨٧) فى الجزيرة العربية وعماد بامبا (١٨٥٠ - ١٩٢٧) فى السنغال، ومحمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) فى مصر، وكانوا روادا لحركات الإصلاح.

وظهرت فى غرب إفريقيا المريدية والتيجانية والأحمدية.

ولكن غلب على تلك الفترة الاتجاه المعادى للتقدم العلمى، وبالتالى ندرة العلماء. ففى ١٥٨٠ تم إغلاق مرصد استانبول بعد سنة واحدة من افتتاحه، وفى ١٧٤٥ استطاعوا إغلاق أول مطبعة فى العالم الإسلامى بعد سبعة عشر عاما من افتتاحها. ولذلك فلا ندهش عندما نعرف أن تلاميذ المدارس الثانوية فى مصر كانوا خمسة آلاف سنة١٨٧٥ بينما ارتفع عدد طلبة الأزهر إلى أحد عشر ألفا يدرسون العلوم الشرعية.

ولا عجب إذ إنه لم يفز بجائزة نوبل للعلوم إلا عالم مسلم واحد من باكستان، الفيزيائى أحمد عبد السلام (٥٩). كثيرا ما اتهمت الفلسفة الإسلامية بلعب دور هدام أدى لذلك الانحطاط، ولكن تاريخها لا يؤيد هذا الادعاء (٦٠).

حاول الفلاسفة المسلمون منذ القرن التاسع استخلاص نظام فلسفى شامل من القرآن، الذى ليس بكتاب فلسفة، تدرجت مدرسة المعتزلة التى تأسست فى البصرة

(*) ينهى الحديث عن إلحاق شىء بالدين ليس منه.

(**) جاء فى الحديث: من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها.

وبغداد فى الأخذ بمنهاج فلاسفةاليونان ، ولكنها ظلت فلسفة دينية أكثر منها دينا فلسفيا . لم يبحث المعتزلة فيما إذا كان الله موجودا أم لا ، ولم يشكوا فى أن القرآن كلام الله الموحى ، ولكنهم بحثوا فى الصفات الإلهية .

اعتمد المعتزلة على العقل مرجعا وحيدا ، وأوّلوا آيات القرآن بما يتفق مع منهجهم العقلى الذى قام على الأسس الآتية :

* الله تعالى قديم ، عالم لذاته ، قادر لذاته ، حى لذاته ونفوا الصفات أن تكون قائمة بذاتها .

* القرآن مخلوق .

* الإنسان حر الإرادة والفعل ، والشر من صنعه وحده .

لم يسلم المعتزلة من اتهامات بالهرطقة و الزندقة .

وصلت الفلسفة العقلانية الإسلامية ذروتها مع ابن رشد فى القرن الثانى عشر [٦١] ولم يكن قلق العلماء التقليديين على الناس أقل منه على الفلاسفة الذين اقتربوا من اتباع الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، وفلسفتى الإشراق والغنوصية والحلول والتصوف النورانى ، كما فى حالة أبى نصر الفارابى (٨٣٧ـ ٩٥٠) ، محيى الدين بن عربى (١١٦٥ ـ ١٢٤٠) أبى على حسين بن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) .

جاءت مدرسة الأشعرى لتنقض الأساس الذى قام عليه صرح المعتزلة ، فأنكروا قدرة الإنسان وحدها على معرفة حقيقة ماوراء الطبيعة . لم يكتف رائد هذه المدرسة ـ أبو الحسن الأشعرى (٨٧٣ ـ ٩٣٥) ـ بإعادة الفلسفة لخدمة الدين وجعل مبدأ السببية فيما وراء الطبيعة هراء لا يفيد شيئا ، بل إنه ، ومن بعده أبو حامد الغزالى (١٠٥٨ـ ١١١١)[٦٢] ، والذى أكمل عمله ، جعلا الكون كله لايخضع فى خلق الله له لمبدأ السببية ، فهى غير واجبة على الله .

شن الغزالى آخر الهجمات على الفلسفة بكتابه تهافت الفلاسفة ، وأجابه ابن رشد ـ بعد ذلك بعقد أو عقدين ـ بكتابه تهافت التهافت .

قنع المسلم السنى منذ ذلك الوقت أن المعرفة الصحيحة لله ليس لها إلا سبيل واحد لا يقربه الزلل : الوحى . وعليه فى هذا المجال ألا يحاول خارج نطاق الوحى .

منذ ذلك الوقت ، تخلى أكثر المسلمين عن شغل أنفسهم بالفلسفة التى لا طائل من ورائها ، وانحصرت الفلسفة الإسلامية تحت عباءة التصوف (وكثيرا ما ظهرت بصمات الشيعة مثل إخوان الصفا فى البصرة ـ انظر فصل التصوف) .

لم تكن معاداة الفلسفة ـ ولم تكن تريد أن تكون ـ أكثر من نظرية أصلية فى المعرفة ، تقود بلا أدرية يساندها القرآن إلى إلزام الفكر البشرى حدوده المتواضعة . الأمر الذى يبدو اليوم ـ بعد ألف سنة ـ حديثا بشكل غير عادى .

فإنه لم يكن لودفيج ويتجنشتين فى القرن العشرين ، بل الأشعرى فى القرن التاسع الذى أعلن نهاية الفلسفة . ولم يكن دافيد هيوم والنظرية الحديثة للعلوم، بل الأشاعرة هم الذين أبصروا قصور قانون العلّية ، ولم يكن إيمانويل كنت وعلماء اللغة المعاصرون أول من وضع أصلا لنظرية المعرفة ، بل المسلمون فى القرن التاسع .

إذا كنا لانلوم مفكرى الغرب النقديين على انحطاط الثقافة الغربية ، فكيف نلوم الفلسفة الإسلامية على انحطاط العالم الإسلامى ؟

دعنا نفحص الآن موقف الإسلام اليوم من العلوم الطبيعية الحديثة .

ننوه أولا إلى أن المسلمين يعتقدون باستحالة التناقض بين القرآن والعلم ، وما يظهر من تناقض فمرده الخطأ فى فهم القرآن أونتائج الأبحاث العلمية .

المشكلة الحقيقية فى هذا المجال هى الرؤية الحديثة للعلم . يعارض المسلمون من يجعل العلم بديلا للدين ، بل ويتهمونه بتوظيف العلم للشر . قال سيد نصر ـ بعبقرية ـ فى مؤتمر لجمعية ماكس بلانك لعلوم الطبيعة والفلك عُقد ١٩٨٣ : لا يقبل الإسلام تقليص العلم الحديث ، ما وراء الطبيعة إلى علم النفس ، وعلم النفس إلى علم الأحياء، وعلم الأحياء إلى الكيمياء ، والكيمياء إلى الطبيعة ، وبذلك تنحط كل عناصر الحقيقة إلى أصغر صورالظهور : المادة .

يستحق ذلك بعض التوضيح . ترى وجهة النظر الإسلامية أن الغرب يفرط فى ممارسة العلم للعلم ـ كالفن للفن ـ وبسذاجة حتى أصبح شعار « لا خلاص خارج العلم» هو ممارسة العلماء لإيمان بدون دين . يُعَرِّف ذلك العلمُ الله وفقا لمقاييسه القاصرة ، والإنسان كعنصر مجازفة (غير مضمون) فى المحيط التقنى ، والنظام الاجتماعى كآلة . ولذلك قال الفيلسوف الألمانى يورجن هابر ماس : أصبح القانون فى العصر الحديث ـ مثل الفن ـ تجسيدا لمبدأ الذاتية .

أصبح الدين فى عصرنا العلمى دعوة للتخلف ، وطريقا غير عقلى لحل مشاكل الإنسان . أراد نيتشه قتل الله ، وبالطبع فشل ، وأراد العلماء قتل الاعتقاد فى الله ، وهذا قد يصادف كل النجاح .

ولكن العلم التجريبى الذى يكبت الدين ، لا يستطيع أن يحل محله عندما نأتى للمعنى أو إرساء القيم الأخلاقية . ففى هذا الشأن لا يملك العلم قدرة المنافسة مع الدين ، حتى باتباعه أسلوب سير كارل بوبر فى التجربة والخطأ ، فليست الأخلاق وظيفة جسدية ، وليس المعنى مستحضرا كيميا حيوى ، والحب غير علمى بالمرة . حقا لكل من العلم والدين مجاله . وحقا ما أدى تدخل العلم (عندسوء توظيفه) فى مجال العقيدة إلا إلى الشك وفقدان اليقين ، عبادة المعلومات ، وأخيرا أزمة الهوية . إنه من أفضل صوره ، يستطيع أن يقدم علم مسيح علمانى لعصر ما بعد المسيحية [٦٣] .

يستطيع العلم تقديم أسئلة لا نهائية دون أن يجد لها إجابات محددة ، الأمر الذى دعا آندريه مالرو أن يتساءل :

هل حضارة الأسئلة واللحظة الحاضرة تُعد حضارة حقيقية ؟ ولمايكل هارنجتون تساؤل مشابه : هل هناك فى مجتمعنا التكنولوجى ميثاق أخلاق اجتماعى ينقذنا من عبقريتنا ؟ [٦٤] .

ليس المسلمون وحدهم من يعترض على الاستبدال الخاطئ للعلم بالدين ، [٦٥] فالباحثون عن الموازين فى الغرب المعاصر معهم على الطريق ، من هؤلاء هانز جورج جادامر وهيلموت كون . يتحدث الناس عن رفض عالم المادة والعودة إلى عالم ماوراءها ، وذلك بعدما تبين لهم - أخيرا - أنه كلما زاد تحديث العالم واستنارته ، كلما اشتدت الحاجة للدين واستحال الاستغناء عنه ، على الأقل لإضفاء الشرعية للقوة وللقانون ، ولتماسك المجتمع وإكسابه الأمل والدافع . باختصار ، بدأ الناس يتعرفون ثانيا على المساندة المتبادلة بين السياسة والدين ، وأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر ، وأن أقل ما يقال عن فكرة وفاة الدين ، أنها فكرة ساذجة [٦٦] .

شارك فى ذلك انهيار الداروينية الجاثمة ، والفرويدية ، والماركسية ، والنظرة القديمة للطبيعة ، خاصة عند عدم تمكن المخ من بحث المخ [٦٧] . أصبح العلماء أكثر تواضعا عندما تبين لهم أن ما أسموه قوانين الطبيعة إنما هى معلومات أولية وأن العالم لا يقوم على مفهومنا الساذج لمبدأ العلية .

ولكن حتى بعد تحرر العلم من الغرور وسوء التوظيف ، مازال بعض الأكاديميين المسلمين يفتقدون فيه الحيدة ، والحاجة للأسلمة ، ولشعارهم «إدخال الإسلام فى المعرفة» أو «أسلمة المعرفة» تاريخ طويل .

أدى استعمار العرب لاعتناق الصفوة حضارة الغرب ، ولكن جاءت النتيجة

مخيبة : عادة ما تأخر المسلمون خلف زملائهم الغربيين ، ولكنهم فى الوقت نفسه فقدوا أسس حضارتهم الخاصة ، ليكونوا مستهلكين للحضارة الغربية التى لا يستطيعون إتقانها ، فأصبحوا فى النهاية محبطين وممزقين بين حضارتين .

أدى ذلك لرفض البعض فى العالم الثالث لتكنولوجيا الغرب الشيطانية ، التى نمت فى محيط الحادى تشككى نقدى . أما العقلاء فأجابوا أن العلم محايد ، وعلينا الاستفادة منه فى الإطار الإسلامى (٦٨) . إسلامية المعرفة تدعو إلى تعليم إسلامى وإصلاح للجامعات ، ولا ترفض النموذج الغربى بأكمله شره وخيره نافعه وضاره ، ولكن انتقاء ما لا يتعارض مع الإسلام وتطويره وتنميته (٦٩) .

وما أكثر مجالات الإصلاح فى المدارس والجامعات الإسلامية ، حيث ما زالت المناهج تعتمد على التقليد عديم النقد ، سلطة المدرس وصلاحيته (ومرجعيته) مطلقة، تقع كثير من الأسئلة والمواضيع فى نطاق المحظور ، مع تشجيع أسلوب الحفظ والصم . يجب أن يعى المجتمع الإسلامى ككل - بدءا من الأب فى عائلته - أن التقدم العلمى مرتبط بمناخ حرية التفكير الخلاق ، والتى يجب بثها وزرعها والتشجيع عليها من مستوى الروضة ومدارس الأطفال ، لا يوجد سبيل آخر ، ولا يوجد بكل تأكيد طريق مختصر عن ذلك ، لتحقيق التقدم العلمى .

للأسف ، تهدف بعض الاقتراحات لأسلمة المعرفة لاتخاذ أسلوب معاكس لما سبق، ويذكرنى هذا بالمحاولات الفاشلة فى ثلاثينات ألمانيا ، عندما حاول بعض المتعصبين تنقية علم الرياضيات من الآثار اليهودية وإقامة علم الأحياء على أساس آرى .

وللأسف أيضا ، يريد بعض القلة حصر الأبحاث فى التاريخ وعلم الاجتماع والطب والعلوم السياسية والأحياء بما جاء فى القرآن والسنة ، وهذا أيضا فهم خاطىء للقرآن والسنة .

ستكون العلوم إسلامية عندما يسهم علماء المسلمين بدور رئيسى فى التقدم العلمى، وعندما يضع المجتمع المسلم ذلك هدفا رئيسيا له .

وباختصار ، العلم الإسلامى هو علم يمارسه العلماء المسلمون ، بروح علمية وبأساليب علمية .

وقد بدأنا نرى العودة للتطلع العلمى فى العالم الإسلامى ، وخاصة فى العلوم الإنسانية . ويلعب المسلمون الأوروبيون والأمريكيون دورا هاما . ويجب هنا أن نذكر الأبحاث الهائلة التى قام بها ليوبولد فايس - محمد أسد - (١٩٠٠ - ١٩٩٢) والذى قدم ترجمته وشرحه للقرآن قائلا : **لقوم يتفكرون** .

هوامش الفصل الرابع

(٥٥) الآية ٢٧ سورة النور ، صحيح البخارى كتاب الاستئذان ، باب التسليم والاستئذان ثلاثاً .

(٥٦) الآيات : ١٩١ آل عمران - ٧٥ القصص - ٢٩ الروم - ٢٠ الزخرف - ٢٤ الجاثية .

(٥٧) اقرأ لـ « زيجريد هونكه » كتابيها : « شمس العرب تسطع على الغرب » ، « الله ليس كذلك» «جوزيف شاخت وسى . إى بوسفورت » « تراث الإسلام » ميونيخ ١٩٨٣ ، « توماس أرنولد وآرثر جيلام » « تراث الإسلام » أكسفورد ١٩٣١ ، «مارشال جى . إس هودجون » - « مغامرة الإسلام »شيكاجو ١٩٧٤ .

(٥٨) نُشرت المحاضرة - التى حضرتها - بعد ذلك فى المغرب .

(٥٩) وهو من أتباع الطريقة الأحمدية فى باكستان !

(٦٠) اقرأ لـ « م . م . شريف » تاريخ الفلسفة الإسلامية - فيسبادن ١٩٦٣ ، وماجد فخرى « تاريخ الفلسفة الإسلامية » - لندن ١٩٨٣ ، « تى . جه دى بور » - تاريخ الفلسفة فى الإسلام . لندن ١٩٠٣ ، «أوليفرليمان » « مقدمة للفلسفة الإسلامية فى العصور الوسطى » كامبريدج ١٩٨٥ ، «مراد هوفمان» حول دور الفلسفة الإسلامية - كولون ١٩٨٤ .

(٦١) « تهافت التهافت » - ابن رشد ، وله أيضا ، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال «هانز فيلدريوتر » - « أرسطو ، ابن رشد وطريق الفلسفة العربية إلى أوروبا » جوترسلو ١٩٨٩ .

(٦٢) واعترافاته التى تحرك النفوس والتى سماها « المنقذ من الضلال » ، ومن أعماله الغزيرة التى تتجاوز الأربعمائة ، اقرأ إحياء علوم الدين ، مشكاة الأنوار .

(٦٣) انظر « كارل لويز » - « المعنى فى التاريخ » شيكاجو ١٩٤٩ .

(٦٤) « يورجن هابرماس » - « الحوار الفلسفى الحديث » فرانكفورت ١٩٨٥ .

« مايكل هارنجتون » - « السياسة فى جنازة الرب : الأزمة الروحية فى الحضارة الغربية » نيويورك ١٩٨٣ .

(٦٥) انظر « الفريد نورث وايتهد » كيف ينشأ الدين ؟فرانكفورت ١٩٨٥ ، «جان - فرانسوا ليتوارد » - ما بعد الحداثة - مانشستر ١٩٨٦ ، آرنست جيلز - النسبية والعلوم الاجتماعية - كامبريدج ١٩٨٥ .

(٦٦) « بارفيز منصور » أزمة الفكر والعقل فى الغرب ، نشرة كتاب العالم الإسلامى ، ليستر ١٩٨٧ ، العدد الثانى صفحة ٣ .

(٦٧)انظر « عودة النظرية الكبرى فى العلوم الإنسانية » تحرير « كونيتين سكينر »
المشكلة الرئيسية فى أبحاث المخ ، أن الإدراك يتم فيه وليس فى العين أو الأذن .

(٦٨) كما هى حالة أحمد عبد السلام الحائز على جائزة نوبل للعلوم ـ الإسلام والعلوم : المجاهد الجزائرية ١٦ ، ١٧/ ٤/ ١٩٨٩ .

(٦٩) اقرأ « إدخال الإسلام فى العلم» المعهد الدولى للفكر الإسلامى ، داود أسد « أسلمة المعرفة » فى عالم الإسلام ٢١/ ١٢/ ١٩٨٥ .

الفصل الخامس

التصوّف

برغم أن تدخل الإسلام فى تنظيم الحياة اليومية أقل كثيرا من تحكمات اليهودية ، فإن الإسلام يظهر فى عيون الغرب كدين قانون أو دين أحكام ، على علمائه أن يكونوا خبراء فى ذلك (فقهاء) لأن الإسلام يحاول أن يُشكل وينظم يوم المسلم كله .

هذه الملاحظة فى محلها ، خاصة بالمقارنة بيوم الكاثوليكى المعاصر ، والذى ليس عليه إلا أن يذهب لقداس الأحد والذى يمكن أن يقدمه للسبت . أما الصوم وتناول العشاء المقدس ، فقد تم التضحية بهما منذ زمان على مذبح العقلانية الحديثة .

يشكل الإسلام فعليا حياة المسلم نهارا وليلا ، ليس فقط فى علاقة المسلم مع ربه من صلاة وصوم وزكاة وحج ، ولكن أيضا فى كافة معاملاته مع أسرته ومجتمعه والعالم كله . وقد وضع القرآن الأسس والقواعد الكلية لذلك ، ثم جاءت السنة بالتفسير والتفصيل ، وتطرقت إلى آداب الحديث وآداب الطعام وآداب الزيارة ، تلك المسائل التى لم يخطر فى بال الغرب أن يكون لها قواعد [٧٠] .

اهتم الإسلام اهتماما بالغا بالجانب الروحى فى حياة المسلم مع تحقيق توازن كامل ودقيق بين الروح والمادة . وكان محمد الأسوة[٧١] التى تحتذى فى ذلك ، وتبعه أصحابه أبوبكر وعمر وعثمان وعلى ، وآخرون من الصحابة رجالا ونساء . كانت الآخرة وجهته الرئيسية ، ولكن ما الآخرة إلا جزاء العمل فى الدنيا ، فمن هنا جاء الاهتمام بالدنيا . كان محمد وأصحابه المقربون مضرب المثل فى التقوى والزهد ، وممارسته لما أسماه الصوفيون الموت قبل الوفاة ، دون أن يسموا أنفسهم أو يعتبروا أنفسهم متصوفين .

ذكر الله فى كل وقت ، بخشوع وصفاء قلب ، مع اليقين أن كل شئونك فى يده - وبهذا تكون صوفيا - هو هدف كل مسلم ورع .

ولكن التصوف يعنى أيضا : محاولة اكتساب المعرفة الحقيقية خلال الطريق الباطنى الموصل إلى فناء الصوفى فى الله .

حددت الطريقة النقشبندية - وهى ملتزمة بالسنة - ذلك كالتالى :

* التزام الشرع حتى تصل لسلامة الظاهر .

* الوحدة الداخلية بسلوك الطريقة .

* اكتساب المعرفة للتقرب من الله .

* الفناء فى الله من خلال الحقيقة (٧٢) .

فى الدرجتين (أو المقامين) الثالثة والرابعة من الفلسفة التأملية ما يكفى لإثارة المشاكل ، ولهما شبيه فى التصوف اليهودى والتصوف المسيحى . وصف نيكولاس الكيوس القصد النهائى للتصوف الدينى : اتحاد نعم مع لا ، والتغلب على إما - أو فى كل الفلسفة والتنازل عن المعرفةالمنطقية فى الظلام الذى يتحول فيه المستحيل إلى اللازم فى الحقيقة (٧٣) .

تثير درجة المعرفة المشاكل لأنها محاولة - فى غير محلها - لتخطى حدود الفهم البشرى (القائم على الإدراك بالحواس ، واستخدام المنطق ، والوحى للأنبياء) بالإشراق الداخلى - غير العقلانى - عن طريق الحدس والوجد الصوفى .

يمكن تبرير هذه المحاولة باعتبارها رد فعل عند المتعطشين للحقيقة بعد إصابتهم بالإحباط من تصلب نظريات المعرفة - سواء كانت ل « كانت » أو «ويتجشتين » أو «بوبر» - التى تقول لهم بعناد : يمكننا أن نفهم عدم القدرة على فهم غير المفهوم، ولكن لا نفهم غير المفهوم نفسه . وأنه على أى فلسفة صادقة أن تنسحب من البحث فى علم الوجود وتحصر نفسها داخل نظرية المعرفة . لا يقنع غرور الصوفى بهذا النوع من العلم الجاهل، خاصة مع ما جاءت به الآية السابعة من سورة آل عمران **﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾** .

تمنع هذه الآية الحدس والظن فى تلك المسائل ، وتأخذ فى الحسبان حقيقة أن الوحى الإلهى استخدم لغة البشر المحدودة لحمل حقائق - أكبر من تلك اللغة - ما وراء المادة ، باستخدام أساليب التصوير والمجاز وما إلى ذلك .

وبكلمات أخرى : علينا (وتلك نصيحة خالصة لنا إذا أردنا تجنب التلاعب بالألفاظ) أن نتوقف عن تأويل غيبيات القرآن .

تمثل الأعمال المثيرة لمحيى الدين بن عربى الأندلسى (الشيخ الأكبر)(١١٦٥

ـ١٢٤٠) معرفة الخواص ، بما فيها من غنوصية وأفلاطونية حديثة تحت عباءة إسلامية[٧٤] . والأمثال النموذجية فى ذلك أقواله فى الوجود والآخرة والحروف والأعداد ، ونظريته فى « نور محمد » . وهنا يُرفع رسول الإسلام ـ الذى رفض كل ذلك ، وأشباهه وما قاربه ـ كأول خلق الله ، فى وجوده الساطع كشمس الوجود ، وكحامل الأسرار ، ونموذج النور فى عالم الأفكار [٧٥] .

أوقع السعى وراء الإشراق بعض المسلمين فى متاهات التصوف القائم على سحر الأعداد ، والبعض الآخر فى مصيدة الحلول الوسطى كسبيل للفهم والتوفيق وحب كل المخلوقات . نادى الصوفيون ـ من جلال الدين الرومى [٧٦] وحتى فريثوف شون فى القرن الحالى ـ بأن كل الأديان تتساوى من وجهة نظر معينة . قبل شون ـ تبعا لابن عربى ـ التثليث المسيحى ، أى الجوهر العلوى / الجوهر / الوجود ، أو الجوهر (الأب)/ الحكمة (الروح القدس) / الإرادة (الابن) .

أدى الاقتناع بأن للبعض القدرة على اكتساب المعرفة اللدنية بلا حدود ، والكشف ورفع الحجاب ، إلى تميز نخبة أو صفوة ، خاصة أنه من المستحيل تأكيد صحة أو زيف تلك المعرفة . كثيرا ما أدى ذلك إلى ظهور أقطاب صوفية ذوات شخصيات شديدة الجاذبية وفى بعض الحالات بمسحة مسيحانية .

جذب أولئك الذين سُموا شيوخ الطريقة ، أو الأقطاب ، أو أصحاب المقامات أو الخاصة (أو بابا ، أو ديدى ، أو مرابط فى إفريقيا) مريدين وأتباعا بالآلاف ، بل وبالملايين ، كثير منهم من البسطاء والسذج والجهلاء .

ويثير المقام الأخير مشاكل أكبر ، فهو يجلب معه خطر الانزلاق فى فكرة وحدة الوجود : كل شىء هو الله / لا شىء هو الله ، كل شىء هو الله / الله وخلقه واحد ، الله ليس موجودا ولكن أيضا ليس غير موجود .

وصلت تلك الموجة ذروتها المأساوية فى بغداد [عند قتل] حسين منصور الحلاج (٨٥٧ـ ٩٢٢) ، الذى عاش نشوة الحب الإلهى [٧٧] ، والذى ما زالت أشعاره تمس القلوب حتى اليوم .

بالطبع لا يحتاج التصوف الإسلامى أن يذهب بعيدا هكذا ، وتبرهن على ذلك تعاليم الشيخ محيى الدين عبد القادر الجيلانى (ت ١١٦٦) [٧٨] والذى يوقره ـ حتى اليوم ـ ليس أتباعه فقط ، كذلك أعمال فريد الدين العطار [٧٩] (١١٣٦ ـ ١٢٢٠) ، والأكثر أهمية أعمال حجة الإسلام أبى حامد الغزالى .

وقد يكون للجسد أيضا دوره في التصوف ، كما يفعل الدراويش الدوارة في رقصهم وإنشادهم ، وحلقات الذكر التي تتمايل مع الصوت ، الأمر الذي قد ينحدر إلى مشهد مبتذل ، وقد ينحط المريد إلى عبد مطيع لشيخه(٨٠) .

تورطت بعض الطرق في السياسة خلال فترات التدهور، مثل البكتاشية في نهاية الإمبراطورية العثمانية، والوزانية في المغرب التي تعاونت مع قوات الاحتلال الفرنسية . .

للأسباب السابقة ، أخذت السنة التقليدية موقفا معاديا للتصوف ، مثَّله أحمد بن تيمية (ت ١٣٢٨) (٨١) .

ولا يفوتنا أن نذكر للتصوف الإسلامي إيجابياته ، فبالإضافة لدوره في مجال التقوى والزهد بين المسلمين ، فقد ساعد على إبقاء جذوة الإسلام رغم العواصف المعادية القاسية في بلاد مثل الاتحاد السوفييتي وألبانيا (٨٢) ، كذلك لعب التصوف دورا أساسيا في انتشار الإسلام في إفريقيا ، خصوصا الطريقة الأحمدية - التي أسسها أحمد التيجاني - في غرب إفريقيا . بل إنه - داخل المجتمعات الإسلامية نفسها - وازن الثقل الكبير لقانونية الإسلام [لأحكام الإسلام] .

يخطئ من يعتقد انتهاء دور التصوف الآن في عصر العلم والعقلانية ، فالعكس هو الصحيح ، فعلى سبيل المثال الطريقة النقشبندية في استانبول - كان لها ٤٥٠ تكية عام ١٩٢٠ - مازالت حية كما لو كانت طريقة جديدة [وللطرق الصوفية في مصر والسودان أتباع بالملايين].

وقد يُدهش القارئ أن يعرف دخول كثير من المفكرين الأوروبيين الإسلام من باب التصوف ، مثل الفرنسي «رينيه جينو» والذي طبع كتابه «أزمة العالم الحديث» سبع مرات منذ ١٩٤٦ ، ومارتن لنج في إنجلترا ، أحد مريدي الشيخ العلوي (٨٣) ، وشارل أندريه جيليس ، الذي أطلق العنان كاملا لتأملاته الصوفية (٨٤) ، ومعرفته بالله وخلقه، لدرجة تستحوذ الإعجاب .

يمكنك أن تجد أعمال إدريس شاه الصوفية في المكان اللائق في المكتبات القيمة ، كذلك تسجيلات الموسيقى الصوفية (٨٥) .

ويمكن ضم أقطاب التصوف في الأديان العظمى في قائمة واحدة ، سواء كان ذلك لإنجازاتهم ، أو للعقبات المحيطة بهم : مايستر ايكهارت ، يوحنا الصليبي ، انجلز سيلزيوس ، تريزا الأفيلية ، الحسن البصري ، الجنيد، يحيى السهروردي (٨٦) .

لا ينفرد الإسلام بالعودة للتصوف ، فالقبلانية الحسيدية في ازدهار في القدس كما في نيويورك (بين اليهود) ، كذلك تعود كنائس القاعدة المسيحية للتصوف .

قامت الخلفية وراء ذلك على الشك المتزايد ، ليس فقط في العقلانية كمنهاج ، بل كنظام علمي اجتماعي غربي ، هذا النظام الذى جلب استراتيجية التدمير النووى ، كوارث البيئة ، الفجوة بين الناس داخل الدولة ، والدول داخل العالم ، وجلب حربين عالميتين ، مع عشرات الحروب الأخرى .

لقد فضح الجيل الناشئ أيديولوجية التقدم وبين كم تستحق الرثاء .

هيأ علم الطبيعة الحديث الأرضية لمثل ذلك الرفض للعقلانية العلمية المادية ، عندما تطور هذا العلم فى بداية القرن ـ وقت أن كانت مفاتيحه الجوهرية : نظرية الكم ومبدأ الشك ـ ليتعدى حدود المعرفة التقليدية ، إلى غموض الجوهر ، باطنية التصوف حقا(٨٧) .

على أى حال ، لدى الانطباع أن كثيرا من الأجيال الجديدة تريد إصلاح خطأ الارتكان المطلق على العقلانية المادية بالانزلاق فى مسار خاطئ آخر ، وهو الارتماء فى أحضان اللا عقلانية ، مع التسليم والخضوع الكامل للأساطير ، عملا بالشعار القائل «ما ألطف أن يطيع المرء قدره » (٨٧) .

يرى أوربجن بيسر آلية أخرى خلف ذلك : تجاوز رجل العصر ذنب ومشكلة الخطيئة الأولى باللجوء إلى أخلاقيات صناعية [حسب الطلب والمقاس] تكفل له البراءة ، مع إقناع نفسه أن النيات الطيبة تبرر الوسيلة والغاية لأى فعل .

ولكن لم يُجد ذلك شيئا ، بل إنه فى الواقع استبدل مشكلة الخطيئة الأولى بمشكلة أخرى وهى فقدان معنى وجوده . أدى هذا بدوره إلى ولادة الدين من جديد ، مصحوبا باللاعقلانية ، أى الاتجاه إلى الأصولية أو التصوف طبقا لقول كارل رانر : سيكون مسيحى المستقبل صوفيا ، أو لن يكون مسيحيا على الإطلاق (٨٨) .

أعتقد أن المسألة مختلفة قليلا : هل يستطيع المتصوف المقتنع بالأفلاطونية الجديدة (*) (نظرية الواحد ونظرية الفيض) أن يظل على اقتناعه بالتثليث والمفهوم المسيحى للخلق ؟

هناك الاحتمال الثالث المنطقى : أن يصبح مسلماً ، وبهذا يجمع العقلانية مع التصوف .

(*) ولدأفلوطين بمصر ٢٠٤ أو ٢٠٥ ، وتوفى ٢٧٠م . الغاية من الفلسفة عنده أن يصل الإنسان إلى إفناء الذات فى الوحدة الإلهية وإيجاد التجربة الروحية التى يستطيع الإنسان بواسطتها أن يتحد بالواحد . ينكر أفلوطين أن تكون للمعرفة العقلية أية قيمة ، وإنما القيمة كلها فى التجربة الصوفية وفى الكشف وفى الذوق ـ الموسوعة الفلسفية ، د. عبد الرحمن بدوى .

هوامش الفصل الخامس

(٧٠) اقرأ الحلال والحرام للقرضاوى .
(٧١) اقرأ تصوير أحمد فون دنفر لذلك فى كتابه « يوم مع الرسول » - ليستر ١٩٨١ .
(٧٢) مقالة زفير يعقوب - « الطرق الصوفية للدارسين فى تركيا اليوم » فى CIBEDO - فرانكفورت ١٩٩٠ العددين ٥ ، ٦ صفحة ١٢٩ - ١٥٧ .
(٧٣) « تناقض التصوف » - جريدة زيوريخ الجديدة ٢٨/ ٤/ ١٩٨٨ صفحة ٤١ .
(٧٤) كمقدمة : « أصول الاعتقاد » لابن عربى ، « ابن عربى والأشعرية » لـ « تيلمان ناجل » فى تكريم الفلاتورى - كولونيا ١٩٩١ صفحة ٢٠٦ .
(٧٥) بل ذهب فريثوف شون أبعد من هذا ، فقال بدون محمد ما كان العالم خلق « فهم الإسلام » ميونيخ ١٩٨٨ .
(٧٦) يمكنك أن تجد مقدمة مختصرة فى « من الديوان » شتوتجارت ١٩٦٤ .
(٧٧) « أشعار الصوفية » ، باريس ١٩٨٥ .
(٧٨) « فتوح الغيب » لعبد القادر الجيلانى .
(٧٩) « المناجاة الليلية لفريد الدين العطار » - « برنارد م . فايشر » كولون ١٩٨٥ .
(٨٠) صور « توماس روس » حلقة ذكر فى مصر ، ونشرتها جريدة فرانكفورت الجماينه فى ٢٢/ ٧/ ١٩٨٦ صفحة ٧ .
(٨١) انظر العقيدة الواسطية لابن تيمية .
(٨٢) يمكنك الإحاطة بنظرة عامة للموضوع فى كتاب « آنا ماريا شمل » «البعد الصوفى فى الإسلام» لندن ١٩٧٥ .
(٨٣) اقرأ لـ « مارتن لنج » « ولى مسلم فى القرن العشرين »
لندن ١٩٦١ ، و لـ « جون كارتيجنى » « الشيخ العلوى » باريس ١٩٨٤ .
(٨٤) اقرأ على سبيل المثال «مارى فى الإسلام » باريس ١٩٩٠ .
(٨٥) انظر « موسيقى الدراويش » « ألفونس هيرت » فى فونو فورم ، العدد الرابع ١٩٩١ ولإدريس أعمال كثيرة يكفينا أن نرجع إلى «المتصوفة» .
(٨٦) اقرأ لـ « كورت روه » كتابه الصادر ١٩٩٠ فى ميونيخ « تاريخ التصوف الغربى » .
(٨٧)تستحق الكتب الآتية القراءة :
« الروح العلمية الجديدة » - جاستون باشيلارد باريس ١٩٣٤ ، « هنرى أتلان » باريس ١٩٨٦ ، «هانز - بيتر دور » - « الفيزياء والسمو » ، برن ١٩٨٩ .
(٨٨) أوجين بيسر « الأصولية والتصوف » دى بريسه - فيينا ١٨ ، ١٩ / ٣/ ١٩٨٩ .

الفصل السادس

القَـدرُ فى الإسلام

جـاء فى موسـوعـة «مايـر» تحـت المصطلـح المسـيحى : « الاختيـار المسبق - Predestination [ويناظره القـدر فى الإسـلام] ، أنه مـبـدأ راسخ فى العـقـيـدة الإسلامية» ، وهذا صحيح [ولكن مع اختلاف المفهوم] . ويستنتج عامة الغربيين من ذلك أن الإسلام يقول بالجبر وأن الإنسان مسير ، وهذا خطأ .

وإنه لتصور شائع عند الغرب أن ذلك المسلم الذى يعتقد أن كل شئ مكتوب منذ الأزل ، يجلس مستسلما لقدره أمام كوخه ، فى ذل وا ستكانة ، ينظر إلى السماء (*) . وياله من تصور خاطئ .

الحقيقة أن الإسلام لم يغض الطرف عن تلك المسألة ، كما فعلت المسيحية . ففى الديانتين ثارت المشكلة : قدرة الله كلية فى تسيير العالم ، كذلك علمه أزلى كلى بما سيحدث فى العالم ، فكيف يتفق هذا مع مسئولية الإنسان عن أفعاله ؟

المعضلة بصورة أخرى هى :

إما إن الله خالق كل شئ بما فى ذلك أفعال الإنسان ، فلن يكون الإنسان مسئولا عن أفعاله ، ولن يكون من العدل معاقبته عليها .

أو إن الإنسان خالق أفعاله ، وهذا تدخل فى المشيئة الإلهية وتعطيل لقدرة الخالق .

حاولت المسيحية جاهدة فك المعضلة ، عن طريق النعمة الإلهية ، أى خلاص الإنسان بنعمة الله الأبدية واختياره لهؤلاء المخلصين [ليس بسبب عملهم] كما عند أوجستين ، زوينجلى ، كالفن وجانسينيست فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

(*) ظل الغرب طوال أكثر من قرن ونصف يرمى الإسلام بالجبرية ، والمسلمين بالاستسلام والخنوع لمصيرهم المحتوم ، وإذا بهذا الغرب فى الثلث الأخير من القرن العشرين ، يرمى الإسلام بالعكس تماماً ، فيذيع ويشيع أن الإسلام دين ثورى يدعو للعصيان والتمرد ، وأن المسلمين إرهابيون سفاكون للدماء ، راديكاليون أعداء للسلام .

وبالطبع قاد هذا إلى مفهوم « الاختيار المسبق » من الله ، لمن يفوز بالخلاص والأبدية ، ومن يخلد فى النار .

اعتبر توماس الأكوينى - الذى صارت أقواله مرجعا تقليديا - الله خالق كل الأفعال ، ومع هذا فمعرفته المسبقة لا تملى الأحداث ، ولكنه اقترح أن الإرادة الحرة للإنسان - كما جسدها التاريخ - هى جزء من خطة الله الشاملة لخلاص الإنسان .

لم يحل هذا التلاعب بالألفاظ المعضلة ، وجاءها الحل الجذرى [أو جذر الحل] بعد عصر التنوير فى أوروبا وأمريكا الشمالية ، مع مبدأ استقلال الفرد الذى أكد حرية الاختيار ، فحرية الإرادة أصبحت واقعا وليس تساؤلا ، وأصبح جهلا وتظليما أن يتساءل أحد عن قدر ولو محدودا عن الاختيار المسبق أو القدر ، برغم أن الإرادة الحرة ، مثلها مثل عكسها ، لا يمكن إثباتها علميا (مع غياب الله ، تختفى بالطبع كل المشاكل الدينية) .

وجدت تلك المشكلة طريقها فى الإسلام . ظهر من قال بالجبر (الجبرية) ، وظهر فى مقابلهم المعتزلة - فى القرن التاسع الميلادى - الذين قالوا بالإرادة الحرة للإنسان . طبقا لمدرسة المعتزلة ، خلق الله فى الإنسان القدرة الكامنة على خلق الأفعال . وعلى هذا ترجع أفعال الإنسان إلى الله ، وإلى الإنسان نفسه (والأخير هو مايُحاسب عليه) . ولا عجب أن نجد - بعد كل تلك القرون - من يستخدم تلك الفروض ، الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧) (٨٩) والألمانى الشاب محمد بلدريم كاليش الذى يمثل التيار المعتزلى الحديث .

يجب أن نقرأ القرآن بدقة لنتعرف على ما يقوله فى تلك المسألة ، ونتخذ معرفتنا بالله - من القرآن - (٩٠) نقطة انطلاق فى ذلك . ذكر القرآن لله أسماء حسنى - بمثابة صفات - وجاء فى الحديث عن تسعة وتسعين اسماً (٩١) ومن تلك الأسماء من القرآن والحديث :

* العليم - الخبير - المحيط - المحصى - الحسيب - السميع - البصير - الشهيد - الرائى - الناظر - المدرك . . .
* القادر - القوى - القاهر - الغالب - العزيز - الجبار . .
* الخالق - البارئ - المصور - المبدئ - المجيد - الجاعل - الصانع - المبدع - الفاعل - العامل .
* المالك - الملك - مالك الملك - الصمد .
* المنتقم .
* العدل - الحكم - القاضى .

* الرحمن - الرحيم - المحسن - المتفضل - اللطيف - الغفار - التواب - الولى - المولى - الودود .

ونقرأ فى القرآن آيات مثل :

﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ (البقرة ٧) .

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون ﴾ (الأنعام ١٢٥) ، ﴿... ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (ق-١٦) ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(الأعراف-١٧٩) . ﴿ لا يُسئل عما يفعل وهم يسألون ﴾ (الأنبياء-٢٣) ﴿ ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها ﴾ (السجدة-١٣)فهو إله كل الأحداث ، وكما جاء فى الأثر فإنه يعرف دبيب النملة على الصخرة الملساء فى الليلة الظلماء ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لايفلت أحد من قدره [٩٢] . إذا قرأنا تلك الآيات بمعزل عن سياقها وعن الآيات الأخرى التى تتناول نفس المسائل ، فما أسهل أن ننزلق فى فهم خاطىء لإله يهدى ويضل ، يغفر ويعذب الناس دون رحمة ، بلا عدل ولاحكمة ، فقد قضت إرادته بذلك منذ قديم الأزل .

وفى القرآن آيات أخرى ، يبدو من النظرة السطحية أنها تناقض ما سبق ﴿ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾ (الكهف - ٨٨) ، ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شىء عليم﴾ (التوبة - ١١٥) . ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب﴾ (سبأ - ٥٠) .

نادى الأشعرى (٨٧٤ - ٩٣٥) [٩٣] بقبول ما جاء به الوحى بهذا الخصوص بدون الخوض فى محاولة فهمه بالتساؤلات ذات الطبيعة البشرية .

طبقا للأشعرى الله هو خالق القدرة لكل أفعال الإنسان ، ولكن الإنسان يكسب الفعل .

طور الغزالى هذا الفهم فى اتجاه مزيد من الإرادة الحرة للإنسان ، فقد خلق الله القدرة والمقدور عليه ، القدرة على الاختيار ، والمختار ، فكيف يمكن عزو الأفعال للجبر ، وكل إنسان يعرف بالغريزة الفرق بين الأعمال الاختيارية وردود الفعل الاضطرارية ؟

ويكلمات الغزالى نفسه فى الإحياء :

الأصل الثانى : أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد، لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدورجميعا، وخلق الاختيار والمختار جميعا ، فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له ،وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له ، فإنها خلقت مقدورة بقدرة هى وصفه ،وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة ، فتسمى لاعتبار تلك النسبة كسبا ،وكيف تكون جبرا محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟أو يكون خلقا للعبد وهو لايحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها ، وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد فى الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعليق يعبر عنه بالاكتساب .

كتاب قواعد العقائد ـ الفصل الثالث ـ الركن الثالث العلم بأفعال الله(الجزء الأول).

أما المصلح المصرى العظيم محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) فقد قال فى رسالة التوحيد تحت عنوان أفعال العباد : كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود، ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولامعلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ، ويقدرها بإرادته ، ثم يصدرها بقدرة مافيه ، ويعد إنكار شئ من ذلك مساويا لإنكار وجوده ، فى مجافاته لبداهة العقل .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وقدرته، وبين ما تشهد به البداهة من علم المختار فيما وقع عليه الاختيار،فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض(٩٤) فيه واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه.

....

جاءت الشريعة الإسلامية بمحوه [الشرك] ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية :

الأول : أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته.

الثانى : أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات .

يتفق تناول هذه المسألة بتواضع وقناعة لا أدرية مع تحذير الرسول من الخوض فيها (٩٥).

هذه هى خلاصة محاولات علماء المسلمين فى حل مشكلة الجبرية ، أو التوفيق بين علم الله الأزلى ومشيئته ، مع إرادة الإنسان ، دون التطرف فى أحد النقيضين ، وهناك فارق بين اعتبار المشكلة مع الاعتراف بتعسر فهمها ، وبين تجاهل المشكلة واعتبارها غير موجودة .

ومن المدهش إمكان القول إن اكتشافات الطبيعة الحديثة تساند تلك النظرة للمسألة ، فمنذ اكتشف ورنر هايزنبرج مبدأ النسبية عام ١٩٢٥ ، يصف علم الطبيعة حقيقة الذرة بحالتها التوفيقية وليس التبادلية (جزيئات ضد موجات) . وأصبح من السهل فهم الطبيعة الجزيئية بطريقة تشبه التوفيق بين الجبر والاختيار فى الوقت نفسه ، وبذلك يمكن للمسلمين ـ كما وضح أورلينج شون ـ الرد على من وصم محاولاتهم لحل مشكلة دينية/ علمية (مشكلة العلية كجزء من مشكلة الجبر والاختيار) بأنها من ظلمات القرون الوسطى [٩٦] .

ماذا يعنى هذا فى الممارسة الإسلامية ؟

يحاول المسلم تحقيق أهدافه فى الحياة طبقا للمقولة الشهيرة (اسع ياعبد وأنا أسعى معك)، فهو يحاول تحقيق أهدافه مثله مثل المسيحى ، أو حتى الماركسى (والذى لو أخذ ماركسيته جديا لاصبح من معتنقى الجبرية) .

يعرف المسلم عن يقين أنه مسئول عن أفعاله ، وأن الله سوف يكافئه على الطيب منها ، ويعاقبه على سيئها ، أو يعفو عنها ، لأنه كتب على نفسه الرحمة [٩٧] ، ولأنه غفور . يعلم المسلم أن كل شئ بيد الله ، فيبدأ عمله باسم الله ، ويطلب منه العون والمدد للنجاح ، إن شاء الله ، وينسب النجاح له ، ما شاء الله . ويطمئن برعاية الله له ، وأنه فى نهاية أيامه على الأرض ﴿ **إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط....** ﴾ (يونس ـ ٤)

إذا وقعت بالمسلم خسارة أو مصيبة ، فإنه يلجأ إلى الله ويقنع بأن ما أصابه ما كان ليخطئه ، وما أخطأه ما كان ليصيبه كما جاء فى الحديث النبوى ، وكما جاء فى القرآن ﴿ **... وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير** ﴾ (فاطر ـ ١١) ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لايحب كل مختال فخور** ﴾ (الحديد ٢٢ ـ٢٣) .

لاحظ محمد أسد أن الجبرية فى الإسلام لا تؤثر فى المستقبل ، ولكنها تتعلق بالماضى .

هوامش الفصل السادس

(٨٩) انظر « الله اليوم » « آرنولد هوتنجر » زيوريخ ١٩٨١ .

(٩٠) انظر «الأسماء الحسنى فى الإسلام » ـ دانييل جيماريه باريس ١٩٨٨ ، إحياء علوم الدين ـ « أبو حامد الغزالى » الجزء الأول الكتاب الثانى .

(٩١) متفق عليه ، وروى الترمذى الأسماء عن أبى هريرة .

(٩٢) انظر إحياء علوم الدين : كتاب قواعد العقائد ، كذلك كتاب هوتنجر السابق .

(٩٣) انظر كتاب هوتنجر السابق صفحة ١٧ ، « الأشعرية » لـ م . عبد الحى ، و «تاريخ فلسفة المسلم» لـ . م . م . شريف ، فيسبادن ١٩٦٣ ، صفحة ٢٢٠ وما بعدها خاصة ٢٢٩ .

كذلك كتاب « ماجد فخرى » ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية . لندن ١٩٨٣ صفحة ٢٠٨ .

(٩٤) « رسالة التوحيد » ـ محمد عبده ، تحقيق د . محمد عمارة ـ دار الشروق .

(٩٥) انظر الترمذى : باب ما جاء من التشديد فى الخوض فى القدر .

(٩٦) « أولريش شون » ـ « الجبرية والحرية فى التفكير العربى اليوم » جوتجن ١٩٧٦ ، وانظر أيضا كتاب « هانز ـ بيتردور (المحرر) » ـ « الفيزياء والسمو » برن ١٩٨٦ .

(٩٧) اقرأ الآية ١٢ سورة الأنعام ﴿ .. كتب على نفسه الرحمة .. ﴾

الفصل السّابع

الأصُـوليّـة

تقـوم كل ديانة أو مذهب على أساس فكرى معين، العهد القديم ، العهد الجديد ، ماركس وإنجلزولينين. ويرى الأتباع أن مذهبهم ، كامل شامل ، دقيق ، غير قابل للتغيير . كذلك يعتمد الإسلام على القرآن والسنة .

تشترك أيضا الأديان و المذاهب فى أنها تتطور حتى تستطيع أن تواجه التحديات المختلفة فى الزمان والمكان ، وينبثق عن كل منها نظام من الأفكار والعقائد ، يُعتبر الدستور الواجب اتباعه . ولكن المؤمن البسيط ، أو الرفيق ، أو الأخ ، كثيرا ما لا يسعه فهم كل ما آل إليه دستوره ، وهنا يبرز العلماء والقساوسة ومنظرو المذاهب .

ولذلك تحتاج كل ديانة أو مذهب أن تراجع تطورها وما أدخله الأتباع عليها فى محاولة لإحياء أصولها الحقيقية . بهذا ظهر البروتستانت فى المسيحية ، وقامت محاولة إيجاد ماركس الأصلى ، وتحديث توماس مونتزر خصم مارتن لوثر ، أو فرانز آلت الذى يحاول استرجاع عيسى الأصلى فى صورة جديدة .

هذا فقط ما يستحق أن يُطلق عليه مصطلح « الأصولية » . لا يهتم الأصوليون بإعادة تكييف الدين ليلائم الحياة العصرية ، ولكن بإعادة بعث الدين بالرجوع إلى مصادره الأصلية .

هذا الرجوع للمصادر الأصلية ، يمكن أن يتم بمنهجين : منهج عقلانى ، يرجع للمعانى والمقاصد والتأويلات وراء النصوص الأصلية ، حتى يُظهر مناسبتها وصلاحيتها لعالم اليوم ومشاكله المعاصرة . والثانى منهج حرفى ينصب اهتمامه على حرفية النصوص ، ولا يلجأ للتأويل . ونجد المنهاجين فى الإسلام .

ولكن مصطلح الأصولية بمعناه الذى ظهر فى اللغة الإنجليزية ليصفه ، مصطلح أمريكى النشأة ليس له محل حقيقى فى الإسلام (*) . ففى القرن التاسع عشر ، عندما

(*) أطلق علماء الإسلام - قبل ظهور هذا المصطلح فى العصر الحديث - كلمة أصولى على العالم الذى يبحث فى علم الأصول ، وهو علم جليل كعلوم التفسير والحديث والفقه ، وإن عده بعض العلماء أجل تلك =

اتجه الأمريكيون الإنجيليون إلى محاولة الفهم الحرفي للإنجيل وإعادة تطبيقه (ورفضوا بعد ذلك نظرية النشوء والارتقاء لداروين) (*) . (٩٨) أطلقوا عليهم الأصوليين .

ويمكن استخدام نفس المصطلح مع يهود (**) أمثال مناحم شنيرسون الحسيدى وأتباعه فى نيويورك أو بيت المقدس ، عندما يطبقون التوراة حرفيا . فالأصولية إذن ليست محصورة فى الإسلام. وقد عرفت وزارة الخارجية الألمانية «الأصولية» فى مؤتمرها المنعقد فى ٢٢ / ١ / ١٩٨٧ بأنها : حركة تمتثل للقواعد القانونية والقيم وأساليب ممارسة الإسلام الأصلى عند ظهوره ، كنموذج لتشكيل الحاضر . فهى أسلوب لرؤية العالم والتعامل معه .

للمذهب الحنبلى ونظرية المعرفة الفلسفية للأشاعرة تأثيرهما على العالم السنى ، بما فى ذلك التزام النصوص والبعد عن التأويل . أحيا ذلك المنهج ولى الله الدهلوى (ت ١٧٦٣) ، محمد عبد الوهاب (ت ١٧٨٧) حركة السنوسى فى ليبيا ١٩٣٠ ، والجماعات الإسلامية فى باكستان . . . .

اتهم البعض أصحاب ذلك المنهج بالسذاجة - إن لم يكن بالبلاهة - كما يجرى اتهامهم الآن ، بسبب التزامهم بكلمات النصوص ، برغم اتفاق ذلك المنهج مع الاستنتاجات التحليلية - لفلسفة اللغة - فى أحسن النصوص المعاصرة .

أكد التحليل العلمى لنصوص العهد الجديد الشكوك فيها ، فساعد على الخروج من المسيحية ، بينما أكدت التحليلات المماثلة - شديدة التدقيق - للقرآن ، موثوقيته ، وتوافق الأبحاث العلمية الحديثة مع ما جاء به (٩٩) .

ومع هذا ، يواجه الإسلام نفس مشاكل دلالات الألفاظ التى يتعرض لها كل نص : كيف ينبغى علينا أن نفهم فى القرآن الآيات المبهمة أو ذات الطبيعة المجازية عندما تتحدث عن حقائق ما وراء الطبيعة التى تتجاوز نطاق مداركنا العقلية والحسية

=العلوم وأهمها شأناً . وقد عرفه أبو زهرة كالتالى : هو العلم بالقواعد التى تبين طريقة استخراج الأحكام من الأدلة .

(*) حاكمت إحدى الولايات الأمريكية فى مطلع القرن مدرسا ثانويا لتدريسه نظرية داروين ، وسجنته ، وما زالت تلك الولاية تحرم تدريس نظرية داروين لتناقضها مع الكتاب المقدس .

(**) بل إن المصطلح ينطبق تماما على كل اليهود الذين يطبقون حرفية التوراة عندما تتكلم عن الأرض المزعومة لإبراهيم ثم ليعقوب ، وبهذا يدعون أن لهم حق العودة لفلسطين ، وعلى هذا الأساس الأصولى قامت دولة إسرائيل الأصولية ، برغم أن غالبية اليهود بها - بل وغالبية اليهود فى العالم - يرفضون أكثر ما فى التوراة عدا أمرين : الأرض الموعودة ، وأنهم شعب الله المختار وبقية العالم أميون من درجة أقل . وهذا أيضا برغم أن اليهود المسيطرين على بقية اليهود فى إسرائيل وخارجها ليسوا من أبناء إبراهيم ويعقوب ، ولكنهم جاءوا من وسط آسيا .

والحدسية ؟ والتى لا يمكننا أن نفهمها إلا فى نطاق إمكانياتنا وحدودنا البشرية ؟ حيث تستعصى تلك الحقائق على اللغة كما تستعصى على إدراكنا . لذلك يقوم الرسل بتوصيل ذلك لنا .

هذا ما يجب أن يفهمه - ليس فقط كل أصولى من أتباع المنهج الحرفى - بل كل مسلم . وهذا ما تناوله فريتز ماوثنر (١٨٤٩ - ١٩٢٣) ، جوتليب فريجى (١٨٤٨ - ١٩٢٥) فى مقالته عن الإدراك والمعنى (١٨٩٢) ، واستخدم لودفيج ويتجنشتين (١٨٨٩ - ١٩٥١) منهجه فى نقد اللغة وعلم الوجود ليوضح قصور اللغة عن ما وراء الطبيعة [١٠٠] .

يجب أن يعى كل المسلمين أن محاولة الإحاطة بما وراء الطبيعة فى القرآن - بما فى ذلك الذات الإلهية - مستخدمين فى ذلك المنطق البشرى والتأويل ، لن يؤدى بهم إلا إلى خداع النفس بالتلاعب بالألفاظ ، كما حدث من قبل للفلاسفة التقليديين فى ظنونهم وتخميناتهم عن الوجود .

يأخذ أصحاب المنهج الحرفى الآية السابعة من آل عمران ويطبقونها - حرفيا - على القرآن كله ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ ، ويتخلون فى تواضع وذكاء عن محاولة كشف ماوراء الطبيعة ، وما يكتنف ذلك من نظريات غامضة وأفكار تصوفية ، وإذا كان قبول المفكرين والباحثين عن المعرفة قول «كانت » و«ويتجنشتين» عن الحدود الضيقة لمدارك الإنسان ومنطقه ، هو علامة ذكائهم ، فلماذا نتهم المسلمين بالغباء إذا عملوا بنفس القول فيما يخص آيات ما وراء الطبيعة فى القرآن ؟

على هذا المنوال فى فهم القرآن ، يشبه الأصولى الحرفى مؤمنا شكوكيا ، أو فيلسوفاً اسمانيا يأخذ بالظاهر ، ولايركن إلى الظن ، ويجد الآية السادسة والثلاثين من سورة يونس فى صفه﴿ ومايتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يُغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴾[١٠١]

أما الأصولية العقلانية ، فقد بدأت فى العصر الحديث أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، على يد محمد عبده [١٠٢] فى مصر ومحمد رشيد رضا فى الشام ومصر أيضا [١٠٣] وابن باديس والإبراهيمى فى الجزائر ، ومحمد أسد [١٠٤] فى أوروبا . وظهرت كرد فعل للانحطاط والشلل اللذين أصابا العالم الإسلامى ذلك

الـوقـت[١٠٥]، واعتماده المتزايد على الغرب ، مما صبغها بطابع تبريرى واعتذارى .
طالب هؤلاء المصلحون بتجديد الدين ، الاجتهاد فى الأمور المعاصرة ، تنقية الدين مما اختلط به من خرافات وعادات وبدع ، ثم التفريق بين الشرع كما جاء به القرآن والسنة ، وآراء الفقهاء وحواشيهم ومطولاتهم ومختصراتهم وحيلهم ، فهم بلاخلاف غير معصومين[١٠٦] . كذلك بين هؤلاء المجددون أن الشرع أرسى قواعد كلية أو مبادئ رئيسية فى مجالات النشاط الإنسانى المختلفة ، ثم ترك للتنظيم البشرى مجالا للعمل طبقا لاختلاف الزمان والمكان ، وبحيث لا يتعارض مع الشرع وبهذا تناسب الشريعة كل زمان ومكان .

للأسف لم يتمكن هؤلاء المصلحون من تطوير نموذج للدولة الإسلامية والاقتصاد الإسلامى نتبعه فى عصرنا الحديث[١٠٧] ، ولا ننسى أنهم نشئوا فى أوساط تقليدية مزودة بتراث أربعة عشر قرنا ، ولذلك شرطوا للمجتهد المؤهلات الآتية :

* إتقان اللغة العربية .
* معرفة كافية بتفاسير القرآن وعلومه .
* الإحاطة بالحديث النبوى وعلومه والسيرة النبوية .

ولا عجب أن كثيرا ممن يتأهل بكل ذلك لن يكون ميالا للاجتهاد ، وبكلمات أخرى فتح الأصوليون باب الاجتهاد ولكن لم يجتز عتبته أحد . ولذلك أيضا فإننا حتى اليوم نرى من المدينة إلى فاس علماء أشبه ما يكونون بعلماء العصور الوسطى .

ولكن تغير الوضع منذ سبعينات القرن الحالى - كما أكد ذلك جيل كيبيل[١٠٨] - فقد حمل لواء الإصلاح وقوته الدافعة دارسو العلوم الطبيعية والتكنولوجيا ، ويمكن ملاحظة تلك الظاهرة بين طلبة الهندسة فى كثير من البلاد الإسلامية ، أولئك الذين إن لم يكونوا درسوا فى الجامعات الغربية ، فهم قد درسوا بالأساليب الغربية ، ولكنهم ارتبطوا بالإسلام كنظام روحى وأخلاقى .

يقرأ هؤلاء الشباب القرآن متحررين من القيود التقليدية المتوارثة ، والتى عادة ما تكبح جماح الدارسين والعاملين فى المجال الدينى .

وهم معرضون - ككل الشباب - لأخطار المناداة بالإصلاحات الجذرية والدخول فى عالم السياسة ، ويصدق هذا بالذات عندما يبحث أولئك الشباب فى القرآن عن شرعية النظام الملكى ، أو نظام الحزب الواحد .

وإذا كان هناك خطر على استقرار الحكومات الإسلامية ، فإنه يتمثل فى أولئك الأصوليين المتحمسين ، أكثر منه فى المتعصبين الأقل فكرا .

هوامش الفصل السابع

(٩٨) انظر « هنرى . م . موريس » - « الخلق العلمى » سان دييجو ١٩٧٤ ، فولفجانج كلاوسفيتس «الإنسان والديناصور » فرانكفورت الجماينه ، ٧/ ١١/ ١٩٨٦ . والعالم الإسلامى أقل تأثراً بهذه المسألة ، فهو لم يقبل الداروينية منذ البداية .

(٩٩) اقرأ « موريس بوكاى » - « الكتاب المقدس والقرآن والعلم الحديث » مطبوع بلغات كثيرة طبعات كثيرة .

(١٠٠) انظر « فريتز ماوثنر » - « معجم كلمات الفلسفة » الجزء الثانى زيوريخ ١٩٨٠ ، « لودفيج فيتجنشتين » « تفسيرات فى الفلسفة المنطقية» فرانكفورت ١٩٦٣ ، وله أيضا « دراسات فلسفية » فرانكفورت ١٩٧١ .

(١٠١) انظر أيضا الآية ١٠١ - المائدة ، الآية العاشرة سورة الشورى .

(١٠٢) رسالة التوحيد - محمد عبده ، تحقيق د . محمد عمارة ، دار الشروق .

(١٠٣) تلميذ محمد عبده النجيب ، فسر ما يقرب من نصف القرآن على نهج أستاذه ، وأصدر مجلة المنار .

(١٠٤) محمد أسد (١٩٠٠ - ١٩٩٢) ، ترجمة القرآن على النهج السلفى ، ونموذج لذلك كتابه «رسالة القرآن » جبل طارق ١٩٨٠ .

(١٠٥)بين ذلك على أحسن وجه كتاب « هانيريش فون جالتزان » فى القرن التاسع عشر ، ونشر فى توبنجين ١٩٨٢ .

(١٠٦) اقرأ لمحمد أسد « قانوننا » ١٩٨٧ .

(١٠٧) إلا أن محمد أسد أنجز عملاً رائعاً بكتابه « مبادئ الدولة والحكومة فى الإسلام » جبل طارق ١٩٨٠ . وسوف تنشره دار الشروق قريباً بإذن الله .

(١٠٨) باريس ١٩٩٠ .

الفصل الثامن

التسامح أم العُنف ؟

لا يستوعب الغرب مقولة «الإسلام دين التسامح » وهى صحيحة .

ينبه القرآن مرارا وتكرارا أن اختلاف الناس ـ ليس فقط من ناحية اللون ، الثراء ، العرق اللغة ـ ولكن أيضا من ناحية المذاهب الفكرية والشرائع ، هو أمر طبيعى ، بل هو من عند الله ﴿ . . . **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما اتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**﴾ ٤٨ ـ المائدة .

هذا التعدد هو النقيض التام لعقيدة الكنيسة الكاثوليكية : لاخلاص خارج الكنيسة . وتنبأ رسول الإسلام بانقسام أمته لأكثر من سبعين فرقة .

تفرض الآيتان الآتيتان التسامح :

﴿**ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾ ٩٩ ـ يونس .

﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** . . ﴾ ٢٩ ـ الكهف .

واضح أن الإسلام ينهى عن التبشير العدوانى الذى تمارسه البعثات المسيحية ، حتى رسول الإسلام نبهه القرآن ﴿ **إنما أنت نذير** ﴾ هود ـ ١٢ ﴿ . . . **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ** . . . ﴾ ٢٠ ـ آل عمران . ﴿**قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل**﴾ ١٠٨ ـ يونس ﴿ **ما على الرسول إلا البلاغ** ﴾ تكررت فى سورتى النور والعنكبوت وغيرهما . وتمثل الآية ٢٥٦ ـ سورة البقرة القلب والعقل فى هذا التسامح الفكرى والعملى وقبول الاختلاف على أنه من السنن الكونية ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾ ولذلك يجب على المسلمين الجدال فى المسائل الدينية بالحسنى بلا إكراه ولا فرض رأى ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ ١٢٥ ـ النحل .

يدعو القرآن ـ فى كثير مـن سوره ـ للتفكر فى آيات الله وتدبر أحـوال الكون باستخدام العقل والحواس ، ولا يدعو مطلقا للترديد الببغائى للنصوص (*) .

ولكن مـاذا لو فقـد المسلم إيمانـه وارتد ؟حتى فى هـذا يتسامـح الإسلام بـرغم معـاقبة المرتدين بـالقتل ، ليس فقط فى العصور الـوسطى بل حتى فى قرننـا الحالى فى السودان (عام ١٩٨٥ تحت حكم النميرى[١٠٩]) فهذا يساوى بين من يهجـر الإسلام فى سكون ، وبين من يستبدل هـذا السكون بنشاط معاد للإسـلام ، يستحق علية تهمة الخيـانة العظمى ، تلك المساواة لا يمكن قبولها أو الدفاع عنها .

على أى حال تغلب اليوم صوت العقل فى هذه المشكلة ، فى آراء محمد أسد[١١٠] وفتحى عثمان ، اللذين دمغا قتل طه محمود طه فى السودان بأنه غير إسلامى بلا أى تحفظ [١١١](**).

لم يعدم تاريـخ البشرية إرهابا سياسيا أو مـذهبيا ذا صبغة دينية . ليس للإسـلام علاقة بذلك الإرهـاب ، بالضبط كما أنه ليس للمسيحية عـلاقة باتباع نظريـة لاهوت التحرر فى أمريكا اللاتينية[١١٢]، أو حرب العصابات فى شمال إيـرلندا ، أو الجيش الأحمر فى المانيا ، أو الألوية الحمراء فى إيطاليا [١١٣](***) .

ومع هـذا ، فهناك ميـل للعنف فى بعـض الدوائر الإسـلامية : ألا يُعـاقب مـن يفطر رمضان جهرا فى المغرب بـالسجن ؟ ألا تستخدم جماعة الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر ـ فى السعـوديـة ـ التليفـون وقـت الصـلاة ليعـرفـوا من لا يصلى فى الجامـع ؟ ألا تستخـدم الجماعات الإسلامية فى الجزائر العنف ضد من يشرب الخمر أو النساء الحاسرات ؟

أليس حقيقيا أن هنـاك خوفا داخل العـالم الإسلامى من عبـادة مجموعة صارمـة لظاهر النصوص، وضد جوهرها من تسامح وسعة [١١٤]؟

بالطبع لهذا الاتجاه سنده عند أصحـابه ، فهم يرون أن آية ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ تنظم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، أما بين المسلمين ، فهناك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والذى أمرت به الآيات :

(*) بل ما أكثر ما نهى القرآن عن التقليد

(**) هذه مسألة خلافية الآن ، هل يعاقب المرتد بالقتل ، أم إن شرط ذلك أن يعادى الإسلام ويهاجمه ؟

(***)تاريخ وحاضر الغرب ملوثان بالدم من قمـة الرأس حتى أخمص القدمين ، يكفى منه الحربان العالميتان فى القرن الحالى ، واستعمار إنجلترا وفـرنسا وإيطـاليا وهولنـدا والبرتغال لنصف العـالم ، فهل يجوز لأحـد أن يتهم المسيح والمسيحية بذلك ؟

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ ١٠٤ ـ آل عمران ، ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . . . ﴾ ١١٠ ـ آل عمران . ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ ١١٤ ـ آل عمران ، ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. . . ﴾ ، ١٥٧ ـ الأعراف .

وفى سورة التوبة ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . . . ﴾ ٧١ ـ التوبة ، ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. . . ﴾ ١١٢ ـ التوبة .

وفى سورة الحج ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ ٤١ ـ الحج ، ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ ١٧ ـ لقمان .

وطبقا للحديث الصحيح « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان» .

يؤدى فصل هذا الحديث عن بقية الآيات والأحاديث المعنية بنفس المسالة ، إلى تحويل بعض المسلمين لأنفسهم إلى جواسيس على بقية الناس ، يستولون على مسئولية إقامة العدالة والنظام ، ويجمعون فى أيديهم صلاحيات الاتهام والتحقيق وتنفيذ الأحكام .

أولئك الذين يفكرون فى تولى كل ذلك من أنفسهم ينتهكون المبادئ الإسلامية الرئيسية السبعة التالية :

١ ـ أسس القرآن الخلافة ، وبالتالى الدولة الإسلامية ، وبهذا تكون السلطة بيد الحكومة ، فإذا منعت الحكومة الخمور ، فلا يعنى هذا أن يأخذ المسلم فأسه ليحطم البارات .

٢ ـ يؤدى الإجبار فى مسائل الدين إلى النفاق ، والله يكره النفاق ولا يقبل عمل المنافقين .

٣ ـ طالما كانت الأعمال بالنيات ، فالإجبار على عمل لا يفيد العامل ، وقد جاء فى الحديث الصحيح« الدين النصيحة» النصيحة هنا بمعنى الإخلاص .

٤ ـ إذا كان القرآن لم ينص على عقاب دنيوى للارتداد ، فكيف يكون هناك عقاب

دنيوى على ما هو أقل من الارتداد ، وبدون مستند من القرآن(*) ؟

٥ ـ أكثر ما نهى عنه القرآن ، لم يشرع له عقابا دنيويا ، فليس من اختصاص الغيورين أن يقيموا الحق والفضيلة (**) .

٦ ـ الدولة الإسلامية ـ كما سيأتى ـ هى دولة ليبرالية (لا تفرض عقيدة ولا منهجا) ، وفرض الأفكار والأخلاق يؤدى لا محالة لدولة استبدادية .

٧ ـ لا يقبل الفكر أن الله وفر لغير المسلمين الحرية الفكرية والعقائدية ، ثم منع ذلك عن المسلمين .

يتضح من خلاصة ماسبق أن الأوامر القرآنية بالتسامح وقبول الخلافات الفكرية والمذهبية تسرى على المسلمين بين أنفسهم كما تسرى على غير المسلمين. يجب على كل مسلم أن يقيم العدل والحق فى سلطانه ، رب العائلة فى عائلته ، مدير المصنع فى مصنعه، رئيس الدولة فى دولته، ولكن ليس خارج سلطانه، وإلا سنشاهد قيام دولة إسلامية فاشية ـ حفظنا الله من ذلك ـ حتى لو رغبت تلك الدولة فى أن تصبح ثيوقراطية ، يحكمها رجال الدين .

(*)كما ذكرنا سابقا ، هناك خلاف بخصوص المرتد الساكن والساكت ، أما الذى يهاجم الإسلام والمسلمين ويفتن الناس فى دينهم فلا خلاف فى القصاص منه ، ويكفينا فى ذلك من سورة البقرة ﴿ . . . والفتنة أشد من القتل. . . ﴾ ١٩١ ﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ١٩٣

(**) يقصد المؤلف ما يخص حقوق الله كالصيام والحج وعدم الإشراك بالله، وما يختص بفضائل الأخلاق ، كإنجاز الوعدوالأمانة والصدق، وليس ما يختص بحقوق الناس ، كالسرقة والقتل والقذف وما إلى ذلك من أضرار .

هوامش الفصل الثامن

(١٠٩) أعدمت حكومة النميرى عام ١٩٨٥ المفكر السودانى طه محمود طه ـ وهو فى السبعينات ـ بتهمة الردة ، لأنه نادى بالتفريق بين ما له حكم الأبدية وما له حكم وقتى فى القرآن .

(١١٠) اقرأ « رسالة القرآن» لمحمد أسد ـ جبل طارق ١٩٨٠ ، الهامش السفلى ٤٥ على الآية ٣٣ سورة المائدة ، وكذلك « الإسلام » ـ محمد حسين الله .

(١١١) « الإسلام وحرية العقيدة » ـ فتحى عثمان ، عربية ، لندن ، يونيه ١٩٨٥ صفحة ١٠ ، نوفمبر ١٩٨٥ صفحة ١١ .

(١١٢) أدان الفاتيكان فى ١٩٨٤ عنف لاهوت التحرير وأدان الزعم بضرورة العنف للتحرير.

(١١٣) انظر « توماس روس» ـ فرانكفورت الجمباينه ، ١٢/ ٧/ ١٩٨٥ .

(١١٤) انظر سليمان زيغدور « نهاية الإسلام الكيس» فى جريدة الصحارى المغربية ، الدار البيضاء ٢٤/ ٢/ ١٩٩١ صفحة ٨ .

الفصل التاسع

جمهوريّة أم ملكية ؟

السنة والشيعة

أعرف أنه لا جدوى من القول لو كان كذا لكان كذا فى أحداث التاريخ . . ومع هذا فلا يمكن مقاومة افتراضات وأسئلة مثل :

ما ذا لو أن على بن أبى طالب خلف الرسول ؟

وماذا لو أنه جاء بعدعمر بدلا من عثمان ؟

هل كان سيصبح ـ بدون تطوع ـ إمام الشيعة ؟

كفانا من هذه الأسئلة ، ولكن ألفت النظر إلى استنتاجين تاريخيين ، لكل منهما مغزاه الهام : كلنا نعرف أن على ابن عم الرسول ، أول من أسلم من الفتيان ، ومن أول من أسلم من الرجال إن لم يكن أولهم . آثره الرسول بابنته فاطمة ، هذا الفقيه العبقرى ، هو الورع التقى ، هو حكيم الحكماء وهو بليغ البلغاء ، وهو فارس الفرسان ، هو أيضا الزاهد المتصوف والقطب بين الأقطاب ، وبجملة واحدة هو من أقرب البشر للإنسان الكامل .

وقد يمت الأمير عبد القادر الجزائرى قطب القرن التاسع عشر وبطله إلى طبقة أولئك السابقين. امتاز على بكل المؤهلات المطلوبة ، وزاد . ولكن من حِكَم التاريخ أن الخلافة تجاوزت عليا ثلاث مرات ، اختار المسلمون أبا بكر، ثم اختاروا عمر ، ثم اختاروا عثمان [وللثلاثة أيضا فضائلهم المشهورة وسجلاتهم الحافلة ، ويكفى أبا بكر قول الرسول إن له عليه يدا يكافئه الله بها يوم القيامة، ويكفى عمر قول الرسول : لم أر عبقريا يفرى فريه ، وتسميته إياه الفاروق، ويكفى عثمان قول الرسول ماضر عثمان ما فعل بعد ذلك] . بهذا أكد التاريخ الإسلامى مبدأ اختيار الأمة للحاكم ، وأن الحكم ليس بالوراثة . ومع هذا عض الأمويون وبعدهم العباسيون وبعدهم العثمانيون على الحكم ، فأصبح كما قال الرسول ملكا عضوضا (*) .

(*) وهو كذلك حتى اليوم فى كثير من الدول الإسلامية ، إن لم يكن أكثرها .

أما ثانيا فلـو تم اختيار على لخلافة الرسول هـل كان هناك محل لنشأة الشيعة التى [بفرقها الأربعـة : الزيـديـة ، الاثنـا عشرية ، الإسماعيلية ، العلـويـة] تعيش فى أفغـانستـان ، باكستان، إيران، اليمن ، الخليج العربى ، العراق ، سوريا ، لبنان .

و يبدو أنـه غير ممكن ألا تتأثـر ديانـة عالمية بـالحضارات المختلفة لأتبـاعها . فـأبسط وأوضح المظاهر اختلاف طرازات المساجد فى الأندلس والمغرب عن تلك فى تركيا ، أو الهند المغولية ، [أو إندونيسيا وماليزيا].

لذلك كـان من المنطقى أن يكون للإسـلام لونه الخاص فى إيران ، خاصـة أنه جاء على ثقافة مشهورة بخيالها الدينى الواسع ، إن لم يكن الأسطورى . (كانت فارس موطنا ـ إن لم تكن مـولدا ــ لعبادة الشمـس والنار ، الـزرادشيتة، المازدكيـة ، النساطـرة، الغنوصيـة ، الأفلاطـونية الحديثة ، وأخيرا فرقـة الحشاشين والبهائيـة)، والتساؤل المناسب هنـا : هل يؤدى كل هذا إلى طائفة ذات مزيج تركيبى توفيقى ؟

كيف نشـأت الشيعةالتـى كثر الكلام عليهـا الآن ، رغم أنها تمثـل أقل مـن ١٥ ٪ من العالم الإسلامى (١١٥)؟ بدأت مع خـلاف سياسى فى مسألة الخلافة . يجب أن نتـذكر قوة الروابط العائليـة والقبلية فى عصر البعثة ، والتى كانت تمثل مصدر الحمايـة الوحيد لإنسان ذلك العصر ، والـذى كان يعيـش طبقية تقليـدية راسخـة ، ثم تخيـل بعد ذلـك المبادىء الجديدة ــ والمغايرة تمامـا ـ التى جـاء بها الرسول عـن الأمة : ﴿ إنما المؤمنون أخـوة. . . ﴾ الحجرات ١٠

﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بـأموالهم وأنفسهـم فى سبيل الله والذين ءاووا ونصروا أولئك بعضهـم أولياء بعض والـذين آمنوا ولم يهاجـروا ما لكم مـن ولايتهم من شـىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الـدين فعليكـم النصر إلا على قوم بينكم وبينهـم ميثاق والله بما تعملون بصير** ﴾ ٧٢ ـ الأنفال

﴿ . . . **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** . . . ﴾ ١٣ ـ الحجرات .

فـلا عصبيـة قبليـة ، ولا طبقيـة ، والولاء لـلإسـلام وللمسلمين، ولا نقـض للعهـود والمواثيق(١١٦) .

ولنتدبر كيف أصبح المكى حاكما لكل قبـائل المدينة (بل وكيف أصبح بعده أبو بكر ، وهو ليس نبيا ، ولا من أكبر بطون مكة ، كذلك عمر بعده ، حاكمين ليس للمدينة فقط ، بل وللجزيرة العربية كلها) .

زوج محمد زيدا مـولاه من زينب بنت عمتـه ، وجعل بلالا الحبشى مـؤذنا ، واصطفى سلمان الفارسى مستشارا له وقال : سلما ن منا أهل البيت .

لم يأمر محمد بخليفة من بعده ، بل ولم يوص بأحد حتى تتساوى فرص المؤهلين [١١٧] .
اختار المسلمون أبا بكر لقدمه فى الإسلام وصحبته للرسول ، وبذله وعطائه ، ورجاحة إيمانه وفكره . ثم اختاروا عمر ، ثم اختاروا عثمان، ثم اختاروا عليا .

وبينما قال كثير من أهل السنة بوجوب حصر الخلافة فى قريش ، قال الشيعة بوجوب حصرها فى أهل البيت ، على ونسله من فاطمة . خرج معاوية على الخليفة الشرعى على ، وقامت أول حرب أهلية بين المسلمين ، وانشق الخوارج عن على ، ثم اغتاله ابن ملجم ٦٥٧ م . تنازل بعد ذلك ابنه الحسن لمعاوية ، والذى نصب بعده ابنه يزيد الذى لم يكن أهلا لخلافة المسلمين وابتدع مبدأ الملك العضوض فى الإسلام [خاصة وفيهم عبد الله بن عمر ، والحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير وغيرهم] ، فدعا أهل العراق الحسين، وفى طريقه اغتاله جنود يزيد فى كربلاء فى العاشر من محرم ٦٨٠ م .

ولكن الأكثر خطورة ـ إن لم يكن مأساوية ـ ذلك القمع والاضطهاد اللذان أديا إلى نشأة الشيعة[١١٨] بطابعهم الخاص المميز لهم عن أهل السنة ، برغم أنهم أنفسهم عدة فرق : الزيدية ، الاثنا عشرية ، الإسماعيلية ، العلوية [١١٩]، الدروز ، البكتاشية (*)

ويمكن حصر الخلاف بين الشيعة الاثنى عشرية (**) وأهل السنة فى الفروق الرئيسية الآتية :

١ ـ يعتقد الشيعة أن أئمتهم الاثنى عشر معصومون (على ، الحسن ، الحسين ، على زين العابدين ، محمد الباقر ، جعفر الصادق ، موسى الكاظم ، على الرضا ، محمد الجواد ، على الهادى ، الحسن العسكرى ، محمد بن الحسن) وذلك وراثة من الرسول ـ تأويلا للآية ﴿ . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾٣٣ ـ الأحزاب .

(*) أقرب الشيعة للسنة فرقة الزيدية ، وهم فى اليمن ، أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين . وإذا كان الشيعة الاثنا عشرية لا يأخذون بالحديث الذى يرويه أهل السنة ــ إلا فى حالات معينة ـ وكذلك أهل السنة بالنسبة للشيعة ، فإن الزيدية يأخذون برواة الطرفين . ثم الشيعة الاثنا عشرية وهم يلون الزيدية فى القرب من السنة ، وهم فى إيران و العراق والخليج العربى ولبنان وأفغانستان وباكستان، ثم بعد ذلك الإسماعيلية ، أو الباطنية ، وهم يغالون فى تأويل القرآن وموطنهم الهند وباكستان وأفغانسان ، وبعد ذلك العلوية وهم أكثر فرق الشيعة تطرفا وتمجيدا لعلى ، وموطنهم سوريا ولبنان. والدروز ، والخلاف معروف بخصوصهم إن كانوا مسلمين، ويعيشون فى سوريا ولبنان وفلسطين .

(**) هم أكثر فرق الشيعة عددا الآن ، ويمثلون مذهبا وسطا بين الزيدية والإسماعيلية ، أطلق عليهم هذا الاسم لاتخاذهم من على وأبنائه اثنى عشر إماما يعتقدون أنهم معصومون فيما يخص الشريعة .

٢ ـ يعتقدون بأن الرسول أوصى بالخلافة لعلى عند غدير خم ، فى طريق العودةمن حجة الوداع ، عندما قال : من كنت مولاه فعلى مولاه . [وغالى العلويون ـ وهم فرقة أخرى من الشيعة ـ فى سوريا وتركيا فى تمجيد على ، حتى فضلوه على الرسول ، بل ومنهم من قال بحلول الله فيه كعيسى] .

٣ ـ يعتقدون باختفاء(١٢٠) الإمام الثانى عشر فى سرداب تحت الأرض منذ ٢٣٨ هـ وينتظرون عودته إماما مهديا (*) .

٤ ـ يتولى العلماء قيادة الأمة طيلة غياب الإمام المختفى ، كما ينص الدستور الإيرانى الصادر ١٥ نوفمبر ١٩٧٩ فى فصله الأول ، الماده الخامسة .

يتولى العلماء المرجعيون مسئولية وصلاحية القيادة فى جمهورية إيران الإسلامية طيلة فترة غياب الإمام المختفى ، عجل الله بظهوره .

٥ ـ يصبغ الحزن والمأساوية شعور الشيعة ، والظلم الذى قاساه على والحسين ، ويتجلى ذلك فى احتفالاتهم الدموية العنيفة فى العاشر من محرم ، بما يذكرنا بما يفعله بعض المسيحيين فى أسبوع الآلام .

٦ ـ ولدت مشاعر الاضطهاد والقمع عند الشيعة لعدة قرون قوة دفع ثورية ، صرحت بها المادة١٥٤ من الفصل العاشر : تساند إيران كفاح المظلومين ضد الظالمين فى كل أنحاء العالم .

لم يعدأحد يسمع تلك النغمة منذ البيان الشيوعى ١٨٤٨ م .

٧ ـ أخيرا هناك زواج المتعة (**) الذى يأخذ به الشيعة ، أما عند أهل السنة فقد تم تحريمه بعد أن كان جائزا .

(*) كذلك ينتظر كل من اليهود والمسيحيين وأهل السنة إماما ، هو المسيح عند اليهود والمسيحيين ، وهو المهدى المنتظر عند أهل السنة

(**) جاء فى كتاب أحكام الأسرة فى الإسلام ـ محمد مصطفى شلبى :

لا خلاف بين الفقهاء فى أن هذا اللون من الزواج قد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، وبعبارة أدق فى بعض غزواته لأمر طارئ يدعو إليه .

ذهب الجمهور من الفقهاء إلى أن زواج المتعة منسوخ ، وذهب الشيعة الجعفرية (الإمامية الاثنا عشرية) إلى بقاء مشروعيتها لأنه لم يثبت عندهم نسخه كما يقولون ، وهو نوع من النكاح يسمونه المنقطع ويجعلون له أركانا وشروطا ، يثبت به النسب ولا يثبت به الميراث إلا إذا شرط الزوجان ، كذلك ليس للزوجة نفقة إلا مع الشرط . تثبت به حرمه المصاهرة ، لايقع به طلاق ، وإنما تبين منه بانقضاء المدة ، ولها عدة فصلتها كتب الفقه الإمامى .

من يتعرف على الإسلام من هذا الكتاب ، سوف يفهم لماذا لا يقبل أهل السنة المذهب الشيعى ، ويرونه تشويها للإسلام . يفهم أهل السنة من الإسلام أن كل الناس متساوون ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى (١٢١)، ليس فيه بناء هرمى [له قواعده ونظمه] لا يتربع على قمته أحد[إلا من استحق ذلك بعلمه وعمله] .

ختاما غنى عن القول إن أهل السنة يبجلون الرسول ، ويحبونه ، ويحبون عليا ، ولكن دون تأليه (*) ، وطبقا لماجاء فى القرآن والسنة الصحيحة ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾(**)

جاء فى الحديث الصحيح عند مسلم « من قال لا إله إلا الله ، وصلى إلى قبلتنا ، وذبح ذبيحتنا ، فهو المسلم الذى له ذمة الله ورسوله » ، يجب هذا الحديث أى خلافات بعد ذلك فى الفروع ، ولكن لا أرى فرصة فى المستقبل لتوحيد السنة والشيعة بعد فرقة دامت ١٣٧٠ سنة شمسية ، قد يمكن الاتفاق على المسائل العملية ، ويمكن تمهيد الطريق لقبول المدرسة الشيعية فى الأحكام كمذهب خامس (***). ولكن هناك ما لا يقبل التفاوض بين الطرفين ، فيبقى أن يتعايشا معا بسلام (****) .

(*) أكثر فرق الشيعة تبجيلا لعلى وبعدا عن أهل السنة ، هم العلويون ويعيشون فى سوريا وتركيا ، والبكتاشية فى تركيا .

(**)وفى الحديث « هون عليك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد »

(***) يتم فى الأزهر ــ منذ أمد بعيد ـ تدريس المذهب الاثنى عشرى ، بل إن القانون المصرى فى المواريث أخذ ببعض أحكام المذهب الشيعى .

(****) خاصة فى وقت يتعايش فيه المسلمون والمسيحيون واليهود فى سلام .

هوامش الفصل التاسع

(١١٥) اقرأ « الشيعة فى الميزان» ـ محمد جواد مغنية . لبنـانى وأحد علماء الشيعة المعاصرين ، « على إروين بوير» ـ « الشيعة» فى Clbedo فرانكفـورت ١٩٩٠ رقم ٤ صفحة ١٠٦ ـ ١١٣ ، ووصـف جيد لروح الشيعة فى كتاب «شـول ـ لادور» « إن الله مع الصابريـن» شتوتجارت ١٩٩٣ صفحة ١٣٣ ـ ٢٠٧ .

(١١٦) هل هناك أولوية ـــ بين المسلمين ـ لذوى القربى ؟ اقرأ الآية ٧٥ سورة الأنفـال ، والسادسة سورة الأحزاب ، واقـرأ « رسالة القرآن» لمحمـد أسد ، الهامش السفلى ٨٦ على الآية ٧٥ سـورة الأنفال ، والهامش ٩ على آية الأحزاب .

(١١٧) رأى عمر ذلك ، انظر « الفاروق عمر بن الخطاب» ـ «هاليد أونال» كولون ١٩٨٦ صفحة ٦٢ .

(١١٨) الإمام السادس عند الشيعـة الإمامية الاثنى عشرية جعفر الصادق ، ينظـر إليه مؤسسا المذهبين الحنفـى والمالكى على أنـه إمـام فى المذهب السنـى ، انظـر « م . م . إحسـان» نشرة كتاب العـالم الإسلامى ـ ليستر ١٩٩٠ رقم ١٠ صفحة ١٢ .

(١١٩) عرفهم « أنتون ريرل» بالشيعة بدون شريعة ، وهم فى سوريا ولبنان وتركيا .

(١٢٠) « غيبة الإمام الثانى عشر» ـ « جاسم م . حسين» لندن ١٩٨٢ .

(١٢١) برغم ذلك ، يوجد عشرات الآلاف من المسلمين اليوم يعتقدون أنهم من نسل الرسول ، ويسمون الأشراف والأسياد ، فى جميع أنحاء الأمة الإسلامية ، ومنهم من يعتقد أن ذلك النسب أهله لدخول الجنة ، ويعمل مايشاء فى الـدنيا ، وكثيرا ما قابلت منهم فى المغرب من قـدم نفسه على أنه من نسل الرسول ، وفى يده كأس الويسكى .

الفصل العاشر

الدّولة الإسلاميّة

يبدو من علاقة الغرب بالإسلام ، اختلافهما غير القابل للتوفيق فى نظرية الدولة .

ففى الغرب ، نجد العلمانية كنموذج ، حيث يُفصل الدين عن الدولة(*) وسارت فرنسا أكثر من أى دولة أخرى فى ذلك ، بينما لم يُفك ارتباط الدين بالدولة فى معظم أوروبا الغربية وأمريكا (التعليم الدينى، الصلاة بالمدارس، ضرائب الكنيسة ، الإجازات، صلوات الأحد) ، ومع هذا ، يُعد ـ نظريا ـ عدم تدخل الدين فى أمور الدولة ، أحد الشروط الأساسية لنظام ديمقراطى متعدد الأحزاب ، قائم على فصل السلطات . ويستند الغرب فى ذلك على قول المسيح : اعط مالقيصر لقيصر واعط مالله لله(**) (١٢٢) .

على العكس من ذلك ، نجد الإسلام ينادى بأنه دين ودولة ، تقوم على الشورى .

(*) لايمكن تعميم هذا القول ، والتاريخ والحاضرلايؤيدان هذا التعميم، وخذ مثلاً أكثر دول الغرب أخذاً بالعلمانية وفصل الدين عن الدولة ، فرنسا ، وانظر تاريخ وحاضر بعثاتها التبشيرية وصلتها بالحكومة وما فعلته بالدول التى استعمرتها. وخذ من أمريكا مثلاً واضحا ، اقرأ فى كتاب « غطرسة القوة» ومؤلفه وليام فولبرايت أحد السياسيين البارزين فى الستينات والسبعينات ، وعضو فى الكونجرس لثلاثة عقود، جاء فى صفحتى ٤٦ , ٤٧ من الكتاب الذى نشره مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام :

لقد دخلت الولايات المتحدة الحرب فى ١٨٩٨ لسبب معلن ، هو تحرير كوبا من الطغيان الإسبانى ، ولكن ما إن انتهت الحرب ، حتى قامت الولايات المتحدة بوضع كوبا المحررة تحت الحماية الأمريكية . وبعد ذلك ضمت الفلبين لأن الله ــ كما يقول الرئيس ماكنيلى ـ قد أفضى إليه بأنه من واجب أمريكا أن تعلم الفلبينيين وترفع من شأنهم وتنقلهم إلى طور الحضارة وتعلمهم المسيحية .

لقد عبر ألفريد بفريدج ـ الذى سرعان ما انتخب لعضوية مجلس الشيوخ ـ عن روح العصر حين قال لى إن الأمريكيين هم الجنس الغازى ، علينا أن نمتثل لما تمليه علينا دماؤنا ، فنحتل أسواقا جديدة وأراضى جديدة أيضا إذا لزم الأمر ، لأن غاية الله النهائية تتمثل فى حتمية اختفاء الحضارات المنهارة والأجناس الضعيفة أمام الحضارات العظمى التى تنشئها الأجناس الأكثر نبلا وحيوية .

هذا بعض مما فى الكتاب !

ثم إنه لا يخفى على أحد أن انحياز العالم الغربى الواضح لإسرائيل ، دعمته الآذان الصاغية فى الغرب لزعم اليهود أن فلسطين هى أرضهم الموعودة كما جاء فى الكتاب المقدس ، واستمر ذلك فى سياسات الغرب نصف قرن .

كذلك ، لايخفى على أحد الدور الرئيسى الذى لعبه البابا بولس فى انهيار الشيوعية بتعاونه مع أمريكا ، وبدأ ذلك الانهيار من كنائس بولندا وألمانيا الشرقية ورومانيا .

(**) وهذه مرجعية دينية بحتة !

وحتى إذا لم نجد هذا النـص حرفيا فى القرآن، فإن آيات القـرآن تتكلم من إنسان يجب عليه أن يفكر ويتكلم ويعمل، ومحوره فى كل حياته إقامة الدين، فالإسلام يشمل ويصنع كل حياة المسلم(*) .

يعتقد المسلمـون أن مبدأ الغـرب فى نظريـة الدولـة وهـم، أو ربما خـداع نفس، ومـن البدهيات عندهم :

● لايمكن أن تخلو دولة من مذهب، فحتى زعمنا بدولة لا مذهبية علمانية، فهذا نفسه مذهب.

● محاولة فصل الدين عن الدولة لـن يؤدى إلا إلى حالة انفصام فى شخصية الناس، فلا أحد يستطيع أن يعيش فترة ممارسـاً لإيمانه وفترة كافراً به(**) فالمؤمن الحقيقى لايستطيع أن يخلـع إيمانه ويُعَلِّقـه على المشجـب فـور دخولـه مكـان عمله. وكـانـت هـذه وجهة نظـر المسيحيين والغرب، من قبـل مكيافيلى ومن بعده، وحتـى مرور فترة ـ ليست قصيرة ـــ من القرن التاسع عشر. وفى الحقيقة حدث ذلك التحول فى أوروبـا بعد انتصار الرجل صاحب شعار « القوة هى الحق » على رجل السمو والحق والزهد .

تم تقديـس الدولة وبناء النظـريات السياسية لـذلك، والتى يمكن بسهـولة دحضها كبديل رث للجـانب الروحى [ممثـلاً فى الدين] المُستبعد مـن حياة الإنسان (١٢٣) . لذلك اتسم رد فعل العـالم الإسلامى بالحساسية الشـديدة عندما شكك على عبـد الرازق فى مبدأ الإسلام الذى لا يفصل بين الدين والدولة، وأوصى بـدولة علمانية . والمبدأ ليس الدين هو الدولـة ، وإنما الإسلام ديـن ودولة ، وهذا يعنـى أن الاثنين ليسا واحـدا ، ولكن يجب أن ينسجما ويتوافقا تحت أحكام الشريعة .

هل هناك نظرية إسلامية للدولة ؟ (١٢٤) .

هذا ما بحثه المستشرقون الألمان أمثال جوستاف فون جرونبا وم(١٢٥) وتيلمان ناجل . (١٢٦) وليس هذا البحـث بالهين . رغم أن هناك بعـض المنظرين السياسيين المسلمين ـــ ولكنهم قليلون ـ الذين ارتقوا مستوى عاليا، مثل الفارابى(١٢٧)(ـ ٩٥٠) ، نظام الملك الطوسى(١٢٨) (١٠١٨ ـ ١٠٩٢) والأهم شأنا من الجميع الماوردى (١٢٩)(٩٧١ ـ ١٠٥٨) .

المشكل فى المسـألة ، أنهم جميعـا استعانـوا بنصوص جـد قليلة مـن القرآن ، فكـانـت

(*) تجد فى القرآن تلاحما وتداخلا يستعصيان على الفصل بين آيات العقيدة وآيات الشريعة و العمل .

(**) للأسف أصابت حالة الشيزوفرانيا هذه كثيراً من المسلمين فى البلاد الإسلامية لمثل هذا السبب، وتطورت هذه الشيزوفرانيا ونمت حتى أصبحت تجد من يصلى ويصوم ويحج ثم يكذب وينقض الوعد ويؤذى الناس ويفسد فى الأرض ويهلك الحرث والنسل. فكأنما تحول الإسـلام إلى دين طقوس تؤدى ، ثم يفعل المسلـم بعد ذلك أى شىء وكل شىء.

النتيجة « أعمالا بشرية غير معصومة من الخطأ » كما يقول الأصوليون العقلانيون . وفى الحقيقة ، فإن القرآن الذى نزل بعد أفلاطون ، وقبل دانتى وكارليل وهيجل ، لم يتكلم عن الدولة بمفهومنا المعاصر ، ولكن عن الأمة التى تُمكّن لإقامة الإسلام .

وفى الواقع يمكن استخراج ثلاثة مبادئ رئيسية من القرآن خاصة بالدولة ، وذلك من أكثر من ستة آلاف آية ، منها مائتان أشبه بالقوانين .

* المبدأ الرئاسى : يتولى الرياسة فرد ، ليس نخبة أو جماعة ، يعمل كخليفة للرسول وليس ممثلا لله كما فى المفهوم البابوى .

* مبدأ الشورى : تخضع ممارسة التشريع والتنفيذ لمبدأ الشورى(١٣٠) .

* مبدأ إسلامية الدولة(١٣١) : يجب أن يكون رئيس الدولة مسلما ، تتفق كل التشريعات مع الشرع فهوبمثابة الدستور الأعلى للدولة .

ويمكننا ـ بطريق غير مباشر ـ استنتاج مبدأ ديموقراطى من المبادئ السابقة ، ومن حقوق الأمة وتأكيد وتكرير القرآن لإقامة الحق والعدل ، أن الشورى ملزمة(١٣٢) .

وهذا ما نادى به من قبل محمد عبده ، ورشيد رضا ومولانا أبو الأعلى المودودى ، ومحمد أسد ، واليوم فتحى عثمان وسعيد رمضان (*) (١٣٣) .

و لكن لا يفهمن أحد أن ديمقراطية الإسلام تعنى سيادة بلا حدود لإرادة الشعب .

فكأى برلمان آخر ، يتبع البرلمان الإسلامى الدستور ، وهذا الدستور لا يخالف الشريعة . وداخل هذا الإطار الواسع ـ عدم مخالفة الشريعة ـ يتحرك البرلمان ويشرع فى كل مجال ، اقتصادى ، جنائى ، . . وغير ذلك ، فالقرآن يفسح بمرونة كبيرة مجالاً واسعا للعقل البشرى للعمل فى صالح الأمة .

ولقد قدم محمد أسد عمله الرائد «مبادئ الدولة والحكومة فى الإسلام » (**) .

وذلك حصيلة عمره من الدراسة والبحث والتأصيل ، وبين فيه الدولة الإسلامية المثالية :

* دولة جمهورية يحكمها القانون ويرأسها مسلم .

* ذات دستور لايخالف الشريعة .

* تعمل على أساس الشورى .

(*) قال على بن أبى طالب فى تفسير الآية ١٥٩ من سورة آل عمران ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ إنها تعنى مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم ـ تفسير ابن كثير . بل إن الرسول قال لأبى بكر وعمر إذا اتفقتما على شىء ما خالفتكما .

(**) ستقوم دار الشروق بترجمته ونشره قريبا بمشيئة الله .

* لامانـع أن تشابـه الأنظمة الغـربية فى فصل السلطـات ـ التعـددية الحزبيةـ حقوق الإنسان ـ حماية الأقليات (*) .

أرسى التاريخ الإسلامـى منذ فجره اختيار رئيس الدولة ، بايعـت الغالبية العظمى من المسلمين أبا بكر خليفة للرسول، ثم رشح أبو بكر عمر لخلافته ، وتم قبول ذلك بالإجماع ، ثم اختار مجلس الشورى المكون من ستة مـن أعلام المسلمين ـ اختارهم عمر ـ عثمان ، ثـم بايع أكثر الصحابة والمسلمين عليا .

طالب المسلمون الأوائل بمؤهلات للترشيح والتصـويت أيضا [أعطيت الأولوية لأهل بدر] ، ثم بدأت الأجيال اللاحقة تضع شروطها فى أهل الحل والعقد وبينما غالى الفاطميون فى اعتبارهم الصفات فوق البشرية للخلفـاء ، اتجه المسيحيون [بعد عدة قرون] فى أوروبا للديمقراطية ، حتـى أصبح كل المطلوب عدد الأصوات الذى يكفل اختيـار وكيل عريف سابـق (هتلر مثلا) أو ممثـل سابق (ريجان مثـلا) أو رئيس مخابـرات سابق [بـوش مثلا] رئيسا للدولة ، مثلهم فى ذلك مثل أستـاذ جامعى محترم متخصص فى العلوم السياسية . لم يصب ذلك العالم الإسلامى بعد .

بعد هـذه الخلفية التاريخيـة للمسلمين الأوائل ، واضح أن التأويـل والتنظير التقليدى للإسلام يسمحان بـأشكال مختلفة من الحكومة ، بما فى ذلك النظـام الملكى ، طالما استند هذا إلى إجماع ــ رسمى أو غير رسمـى ـ وبـالتالى أصبـح شرعيا ، ومـازال شخص الحاكـم الطيب والعادل يراود المسلمين ، خاصة السلفيين الجدد .

تقابـل الدولة الإسلاميـة نفس المشكلة التى تقـابلها كل الدول ، الخوف مـن استغلال الحكومة للسلطـة ، فهى تحتاج من يـراقبها ، ولكن من سـوف يراقب الحكومـة؟ لابد من مؤسسات تقوم بذلك ، ولابد من أن يعمل العقل البشرى ليجد نظاما يوفر ذلك .

(*) (١) فصل السلطات : هذه مسألة تحتاج كثيرا من النقاش والتفصيل ، وهى تحت المراجعة الآن فى الغرب (٢) التعددية الحزبية : إذا كان المقصود بالأحزاب تعدد وجهات النظر واختلاف البرامج ، فهذا مبدأ مقرر فى الفكر الإسلامى، أما إذا كان المقصود تبادل الاتهامات والتجريـح ، وإعاقة الحكومة والعمل على إسقاطها فهذا غير مقبول بالمرة فى الإسلام . وسنضرب أمثلة واضحة من أمريكا أم الديمقراطية فى العالم الحديث: ● قالت أم نيوت جرينجيتش الجمهورى ـ ورئيس مجلس النواب ـ فى التليفزيون عن زوجة كلينتون بالحرف الواحد: إنها عاهرة ! ● قال الجمهوريون بعد أن أصبحوا أغلبية فى البرلمان : سنجعل كلينتون كالبطة العرجاء ، وسنعطله عن زيارة اليابان . وعن الديمقراطيين فى البرلمان : سنجعل حياتهم عذابـا● قال كلينتون قبل ذلك على حكومة بوش : إنها خانـت الشعب الأمريكى وإنها تعمـل لصالح أصحاب المال والنفـوذ فى واشنطون . ● رد دول على اتهام كلينتون بالمثل : الشعب لا يثق فى الحكومة ، ولا يثق فى أخلاقياتها ولا كفاءتها

(٣) أما حقوق الإنسان وحقوق الأقليات ، فقد كفلها الإسلام منذ ١٤٠٠ سنة .

(وإذا كان الميثـاق الذى عقـده الرسول مـع أهل المدينـة عند هجرتـه ، عملا سيـاسيا قانونيا فـريدا بعيد النظر [١٣٤]، فهـو لم يهدف من ورائه لتنظيـم شئـون الـدولة ، ولكـن بالأحرى تأمينها ، فهو أشبه بمعاهدة تحالف) .

ولذلـك لا نعجب عندما نجـد المسلمين ـ مثل المسيحيين ـ أقاموا فى تاريخهـم مختلف أنواع الـدول ، قبائل حـاكمة ، أنظمـة تقوم على الحزب الواحـد ، دكتاتـوريات عسكـرية شخصيات كاريزمية ، ملكيات ، دولة دينية (*)[١٣٥] وحتى اليوم ، لم يعش المسلمون فى ديمقراطية الغرب الا فى الشتات[١٣٦] .

ويجب أن يكـون واضحا ـ بناء على مـا سبق ـ أن الإسلام لم يطلـب إقامـة دولة دينيـة بمعناها الغربى القرن أوسطى يقبض فيها علماء الـدين على السلطة السياسية ، فلم تذكر آيـة واحدة فى القـرآن ذلـك ، ولـذلك فـأنـا أكـرر أن مبدأ «ديـن ودولـة» يفترض عملين مختلفين ، يتم التنسيـق والتوفيق بينهما طبقـا وتحت روح الإسلام ، ولكنهما عمـلان مختلفان يقوم بكل منهما أصحاب الاختصاص فيه .

أما إذا نسى المسلمون أن عـالم الساسة هو مجال النشاط البشرى ـ الفـانى غير المعصوم ـ وأن الله يغفـر للحكومات ولا يقيمهـا ، وأن ليس فى الإسلام بنـاء هرمى وظيفـى للعبادة كالمسيحيـة ، إذا نسى المسلمون كـل ذلك ، فقد تكـون النتيجة نظامـا أحاديا استبـداديا شموليا[١٣٧]، تتربع على قمتـه سلطة دينيـة جاهلـة ، فالـدولة الـدينية بمعنـاها الضيـق المتعارف عليه ، دولة غير إسلامية[١٣٨] .

ختاما ، نتساءل : أى مبادئ يريد المتعصبون السلفيون إقامة الدولة عليها ؟

أكثر الحركات الإسلامية ـ والتى بدأهـا جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) ـ ذات حسـاسيـة ضـد الغـرب الاستعمارى ، وتـريد استعـادة الكـرامـة والاستقـلال السيـاسـى والاقتصادى والثقافى للأمة الإسلامية .

وفى رفضها للغرب ، رفضت أيضا ديمقراطيته التى أدت إلى استعمار البلاد الإسلامية ، وما صاحب ذلك من محاربته للإسـلام ، وبث ودعم بعثات التبشير المسيحى ، بل وأيضا موجات الإلحاد .

يلعب الإسـلام دورا عظيما داخل تلـك الدوافع ، ليـس فقط لأنـه يحدد الفواصـل مع

(*) ومازالت كل هذه الأنواع موجودة حتى اليوم .

الغـرب ، ويقود لاستعـادة الهويـة واحترام الذات ، لكـن الأهم أنـه السبيـل الوسـط بين الرأسمالية والاشتراكيـة ، سبيل يؤدى إلى الاستقلال الـروحى والثقافى ، ليس سبيـلا روحيا فقط ، وليس سبيلا سياسيا فقط .

ومنذ تأسيس حسن البنا (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩) لجماعة الإخوان المسلمين [١٣٩] ، لم يغب العنصر الدينى عن الساحة فى كل شئون العـالم الإسلامى ، وسيكون خطأ فادحا فى عملية تجديده وبنائه إغفال العامل الدينى .

فى عصر الثورات العـالمية ، كان مـن الطبيعى أن تـرى الحركات الإسلاميـة فى الإسلام ثورة، مع تبريـر العنف إذا لزم الأمر (راجـع فصل التسامح أم العنـف؟) ولا يعبئون كثيرا بأن مبدأ الثورة لايظهر مطلقا فى القرآن ـ على عكس العهـد القديم والعهد الجديد ـ فالقرآن يتكلم دائما عن التغيير المستمر للأحسن ، روحيا وماديا [١٤٠] .

تختلف أفكار الحركات الإسلامية فى كيفية إقامة الـدولة الإسلامية ، فمنها من يريد بناء القاعدة ثم الصعـود لأعلى ، ومنها من يريد السيطرة على القمـة ، حتى يسهل عليه تغيير القاعـدة ، الطريق الأول يحتاج صبرا ووقتـا ، والثانى ثـورى متعجل ، يتبعه من يـزعم أن الحكـومة كـافـرة . وبين الطـريقين من ينشـئ الأحـزاب الإسـلامية كما فى إنجلترا وألمانيـا [ومصر]، وهناك أيضا من يكون كادرات قريبة مـن السلطة حتى يؤثر عليها كما فى المنظمة الكاثوليكية الإسبانية [وكما فى السودان] .

ورغم معرفتى لكثير من قيادات الحركات الإسلامية ، فلا يمكننى التنبؤ بنوعية الحكومة التى قد يقيمونها إذا تمكنوا من إحراز نصر سياسى ، سواء كان ذلك فى الجزائر أو تونس أو الأردن أو مصر.

لاتكفى شعارات مثـل « القرآن دستورنا » كما نادى حسن البنـا ، أو الحاكمية لله [كما نادى المودودى وسيد قطـب] أو أن هناك حزبين حزب اللـه وحزب الشيطان لإقامـة دولة إسلاميـة ، فلابد مـن برامج واقعيـة محددة ، تقوم على فهـم واضح للشريعة . ولـلأسف فهناك من يتكلم فى هذا الخصوص عل أساس آراء واجتهادات القرون الوسطى [١٤١] وهنا قد يتفـق النقيضان ، المسلمـون التقليديون المحـافظون مـع المسلمين الثوريين ، فهـل هذا بالأمر الجديد ؟

هوامش الفصل العاشر

(١٢٢) ربما قصد المسيح دفع ضرائب الدولة بعملة الدولة.

(١٢٣) اقرأ لـ د « س. بـارفيز منصور» فى نشرة كتاب العـالم الإسلامى: «الإسلام كسيـاسة» العدد الثالث ١٩٨٩، صفحة ٣، « سياسات بلا حقيقة » العدد ٤ سنة ١٩٩٠ صفحة ٣ .

(١٢٤) مختارات من : «تاريخ الأفكار المسيطرة فى الإسـلام » كريمر ، « فرديناند ومظفرى ـ «الإسلام الدولة والمجتمع» لندن ١٩٨٨، « دانيال بايبس» ـ « فى سبيل الله: الإسلام والقوى السياسية» نيويورك ١٩٨٤، «برنارد لـويس» ـ اللغة السياسية للإسلام » شيكـاغو ١٩٨٨، « بى . جه. فاتيكيوس» ـ «الإسلام والدولة» لندن ١٩٨٧، « أكيـل كوهلر» ـ « الإسلام نماذج من الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية» كولون ١٩٨١.

(١٢٥) اقرأ له مثلا « الإسلام فى العصور الوسطى» ميونيخ ١٩٦٣.

(١٢٦) « الدولة» جزءان ـ ميونيخ ١٩٨١.

(١٢٧) انظر بصورة عـامة «تاريخ الفلسفـة الإسلامية» ـ م . م. شريـف. الجزء الأول صفحة ٧٠٤ ، فيسبادن١٩٦٣.

(١٢٨) « سياسة نامة» باريس ١٩٨٤.

(١٢٩) انظر م. م. شريف صفحة ٧١٧ المرجع السابق.

(١٣٠) الآية ١٥٩ سورة آل عمران، والآية ٣٨ سورة الشورى.

(١٣١) الآية ٥٩ سورة النساء.

(١٣٢) اقرأ « رسالة القرآن » لمحمد أسد ، الهامش السفلى ١٢٢ للآية ١٥٩ سورة آل عمران.

(١٣٣) اقرأ لفتحـى عثمان « الإسلاميون العصريـون والديمقراطيـة» ـ عـربية ، لندن مـايو ١٩٨٦ صفحة ٩ ، لسعيد رمضان « الشريعه الإسلامية » . فيسباد ١٩٨٠ صفحة ١٣١.

(١٣٤) اقرأ لمحمد حميد الله « أول ميثاق مكتوب فى العالم» ـ الطبعة الثالثة ـ لاهور ١٩٧٥ ، وليوسف عباس هاشمى « كتاب الرسول ـ ميثاق محمد » باريس ١٩٩٢.

(١٣٥) عبد الرحمن عبد القـادر الكردى ـ الدولة الإسلامية ، لندن ١٩٨٤ ، جيمـس شـال» ـ «المنطق، الوحى وتأسيس الفلسفة السياسية »لندن ١٩٨٧.

(١٣٦) تركيا المعاصرة [١٩٩٣] ليسـت إسلامية ديمقراطية، وليست حتى جمهـورية علمانية، فهى كما وصفها أحمد فوزى سحيمى : دولة ذات سكان مسلمين ، ولكنها ليست دولة إسلامية .

(١٣٧) بارفيز منصور ، صفحة ١٢ العدد الرابع ١٩٩٠ من نشرة كتاب العالم الإسلامى .

(١٣٨) سعيد رمضان المرجع السابق.

(١٣٩) رسائل حسن البنا .

(١٤٠) « حمام بخارى» ـ « القرآن والثورة» المجاهد الجزائرية ٢٧/ ٤/ ١٩٨٩ صفحة ٤ .

(١٤١) « الحكم بالشريعة الإسلامية » روزفيثـا بدرى ومصطفى وصفى فى « لله المشرق والمغرب» فى تكريم الفلاتورى.

الفصل الحادى عشر

اقتصاد السّوق فى الإسلام

كما يوجه الإسلام البشر لحياة أفضل فى مختلف المجالات ، فإنه يقوم بنفس الشىء فى المجال الاقتصادى ، وبنفس الأسلوب من تقرير قواعد رئيسية كلية ـ كما فى مجال الدولة ـ ويهتم الإسلام كثيرا بأخلاقيات النظام الاقتصادى ، بكل أدوار البشر فيه : المنتج ، الموزع ، المستهلك ، ولكنه لا يضع التفاصيل لنظام محدد .

وقد أرسى القرآن القواعد الرئيسية الآتية :

١ ـ يحترم القرآن الملكية الشخصية ، و حتى فى وسائل الإنتاج ، ولكن نظريا ، تختلف هذه الملكية عن تلك فى القانون الرومانى ، فالملكية المطلقة لله وحده ، وإنما للبشر حق الانتفاع ، مع واجبات اجتماعية[١٤٢] . تعلو هذه الملكية فوق ملكية الدولة أو المؤسسات التابعة لها [١٤٣]، أما المصادر الطبيعية ، كالهواء والماء والغابات والمعادن ، لا يمكن أن تخضع لملكية أفراد ، ولكن يمكن للدولة أن تعطيهم حق الانتفاع بها [١٤٤]

٢ ـ واجب على المسلم أن يعمل ليكتسب معاشه من عمل مفيد . يشمل هذا كافة أنواع التجارة فى الحلال ، مع منع الاحتكار (اكتسب الرسول معاشه من التجارة فى أموال خديجة) .

يمنع الإسلام الفائدة على رأس المال ، وعمليات البيع والشراء الوهمية [وما تجلبه من مكسب فى جانب يساويه خسارة فى جانب آخر لأن المجموع صفر] والتى لا تمثل إضافة حقيقية للاقتصاد ولا تقوم على عمل منتج ، وسوف نعود لهذه النقطة .

٣ ـ يجب أن تشرف الحكومة على السوق ، تمنع الاحتكار ، وتضع القوانين لمنع الغش والاحتيال ، تعمل ما فى وسعها لانتعاش الأسواق ومنع تعسرها . تعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية بفرض الضرائب المختلفة ، وتحمى الاقتصاد كله بفرض الجمارك المناسبة . وقدم القرآن المثل فى ذلك بنظامه فى المواريث ، وفى دفع الزكاة . ولم يطلب الإسلام مساواة الناس فى الدخول ، ولكن فى تحقيق حد أدنى من المعيشة الكريمة لكل أفراده [حد الكفاية] ويفرض العمل كقيمة رئيسية فى حياة المسلم .

٤ ـ ينهى الإسلام عن الإسراف والتبذير كما ينهى عن البخل والشح ، يشبع المسلم

رغباته الطبيعية ، بدون أن يتحول لمستهلك نهم أو يقصر فى احتياجاته .

يتحلى القرآن بحكمة إلهية فى مرونته الفائقة فى المجال الاقتصادى ، واكتفائه بتقرير المبادئ الرئيسية فى قيمة العمل ، والتكافل ، مع أمر الأغنياء بالإنفاق ، والفقراء بالصبر والتعفف ، ثم تشجيع المشاركة والتعاون والعمل الجماعى ، مع تحريم الاحتكار والغش والخداع ، والنهى عن تكديس المال وكنزه .

فنظرا لطبيعة الحياة الاقتصادية المتغيرة ، إذا قرأنا نظريات آدم سميث، ودافيد ريكاردو وتوماس مالتوس، وكارل ماركس وجون مainارد كينز(*) وبول ا ـ سامِلسون، سنكتشف أننا نقرأ تاريخ الأخطاء الاقتصادية وليس تاريخ الاقتصاد ، مع أن كلا منهم ادعى ـ ومعه الكثيرون ـ أن نظريته صحيحة .

وإذا كان علماء الاقتصاد المسلمون قد بذلوا جهدا كبيراً فى العصر الحالى لتحديد معالم النظام الاقتصادى الإسلامى ، فإنهم لم يحققوا نجاحاً محسوساً حتى الآن(١٤٥) .

يشق الإسلام طريقه بين الرأسمالية التى تقدس الفردية [ولو على حساب المجتمع] والاشتراكية اليسارية التى تقدس الدولة [ولو على حساب الفرد ، وكل منهما نظام مادى] .

وطبقا لماكس فيبر ومولر أرماك(١٤٦) ، فيمكن اعتبار كل منهما نظاما ماديا ليس غير دينى ، ولكنه قائم على أسس دينية فاسدة .

ويستطيع الإسلام أن يعيد التوازن فى العلاقة بين الأفراد والدولة ، فقد أسس فى المدينة منذ ١٤٠٠ سنة مجتمعا قائما على العدل الاجتماعى والاقتصادى ، ما كان ماركس يستطيع أن يحلم به(١٤٧).

ولكن من المهم أن نعى دائماً أن ليس كل من أتقن علوم القرآن لزم أن يصبح خبيرا فى الاقتصاد [أو السياسة أو الإدارة أو . . .] وإذا رأينا أنه لا يجب فصل الاقتصاد عن الأخلاق ، فلا يعنى هذا أنهما يتلازمان بالضرورة ، ولا يمكننا أن نغفل الدافع الإنسانى الطبيعى فى السعى وراء الربح . وكما بين انهيار النظام الاقتصادى الشيوعى ، فإنه لا يمكنك فى عالم الاقتصاد إلا أن تكون جاداً ودقيقاً وواقعياً . كذلك يجب أن يعى المسلمون، أن قيام نظام اقتصادى إسلامى نموذجى ، يستلزم مسبقاً وجود الأمة الإسلامية النموذجية .

(*) كانت أفكار كينز فى تدخل الحكومة فى الاقتصاد وراء خروج أمريكا من الكساد الكبير فى ثلاثينات هذا القرن ثم قال الاقتصاديون الأمريكيون فى ثمانينات هذا القرن إن مشاكل أمريكا الاقتصادية سببها ماقال به كينز منذ نصف قرن . ولا يفوتنا التذكير أن أفكار كينز التى أخذ بها الرئيس الأمريكى روزفلت ، كانت على النقيض تماما مما كان روزفلت نادى به كبرنامج انتخابى وفاز على أساسه بالرئاسة ، وهى فعلا كانت وراء القضاء على الكساد الكبير .

يتمسك بعض المؤلفين بالأفكار الجماعية ويرون فى الإسلام دولة الرفاهية المسئولة عن رفاهية مواطنيها (١٤٨) .

وللأسف ، يفهم بعض المؤلفين الإسلام بصفة شمولية جماعية متأثرين بخلفيتهم الماركسية (١٤٩) ، رغم أنه أقرب للصحة أن نرى اقتصاديات السوق الاجتماعى أقرب للمبادئ الإسلامية (*) .

وغنى عن القول إن الإسلام يحرم ما قد يتساهل عنه السوق فى الغرب ، مثل بيع الكحوليات [وبعض أنواع المخدرات] والسجائر ، [والقمار والبغاء]، والاستغلال والربا ، ولا يجعل الربح وخفض التكاليف هما الهدف الوحيد للنشاط الإنسانى . كذلك عارض بعض فقهاء القرون الوسطى إنشاء الشركات محدودة المسئولية ، والشخصيات الاعتبارية التى تنشأ بعقد أو قانون ، فلا توجد مسئولية قانونية إلا ويقابلها أشخاص حقيقيون . وذلك اجتهاد منهم وليس بنصوص صريحة فى القرآن أو السنة . مع أن الدولة فى الإسلام لها شخصية اعتبارية ، تخضع للقوانين المحلية والعالمية . بل إنهم يدعمون شرعية مؤسسات الأوقاف التى تقوم ـ كشخصيات اعتبارية ـ بتنفيذ وصايا الوقف . ويمكن لهذا أن يساعد فى تطوير السوق الإسلامى .

أما الربا فهو اختلاف آخر . لم يكتف القرآن بتحريمه والنهى عنه ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ (الروم ـ ٣٩) . ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (آل عمران ـ ١٣٠) بل حرمه [أشد من أى تحريم آخر ، فلم يتوعد الله أحدا ـ بعد الكافرين ـ كما توعد آكل الربا] ، ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (البقرة ـ ٢٧٥) بل جاء بعد ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ (البقرة ـ ٢٧٨ ـ ٢٧٩) .

(*) نص الدستور الألمانى الصادر فى أوائل التسعينات على خمسة مبادىء تحدد شكل النظام الذى تقوم عليه الدولة : ألمانيا جمهورية ديمقراطية اتحادية تقوم على سيادة القانون والتكافل الاجتماعى ـ صفحة ١١٩ من « حقائق عن ألمانيا » .
تطور النظام الاقتصادى بعد الحرب العالمية الثانية إلى نظام اقتصادى يقوم على حرية السوق والتكافل الاجتماعى مع التحكم العام بالخطوط العريضه للحركة الاقتصادية . صفحة ١٨٥ من نفس الكتاب الصادر عن دار نشر سوسيتيس فيرلاج ـ فرانكفورت ١٩٩٣ .

يعرف أي طالب فى السنة الأولى فى مدرسة لندن للاقتصاد ، أو مدرسة هارفارد للأعمال ، أهمية سعر الفائدة فى تراكم رأس المال ، وفى التحكم فى الربح ، وخلق الثروات [أو التعسرات والإفلاسات والانهيارات] وتوجيه الاستثمار ، وفى السياسة الاقتصاديه بالتأثير على الدورات الاقتصادية ، وتنشيط النمو مع التحكم فى التضخم . لكل ما سبق ، لم يخل النشاط الاقتصادى فى العالم من الفائدة على رأس المال ، رغم تحريم اليهودية (١٥٠) والمسيحية والإسلام لها . بل إن دول البترول العربية تفضل إيداع ثرواتها فى بنوك الغرب بسبب معدلات الفائدة (*) ، وتفرض الحكومة المغربية - مثلها فى ذلك مثل بقية الحكومات الإسلامية - معدل فائدة مرتفعا .

وفى هذا العالم الأقرب للجشع منه للقناعة وإنكار الذات ، لم تنقطع محاولات بعض المسلمين للتوفيق - بشتى الطرق - بين ما جاء فى القرآن بخصوص الربا والعالم الواقعى .

حاول البعض الزعم بأن الربا المحرم هو ذلك المنحصر فى القرض الاستهلاكى الذى كان يضطر إليه فقراء مكة ، فيدفعون عليه فائدة ٥٠ ٪ ، وتتضاعف إلى ١٠٠ ٪ إن تأخروا فى السداد . وحاول البعض الآخر الزعم بأن المقصود هو ذلك الذى يتضاعف أضعافا مضاعفة وعلى القروض الاستهلاكية فقط (١٥١) .

ولكن كلا من التأويلين فى غير محله ، فقد عرفت مكة قروض التجار بالربا (**) ومفهوم الصفة لا يعنى اشتراطها للتحريم .

ويحاول البعض الآخر أن يجد حلا باعتبار الزيادة فى رأس المال إنما هى تعويض للمقرض عن عدم استثماره المال بنفسه وضياع فرصته فى الربح منه . [وما أعجب هذا فهل كان بوسع المقرض استثمار ماله ليربح منه ، ثم عدل عن هذا ليقرض ماله لغيره ؟] .

ولكن الغلبة هى للمنادين بتحريم العائد على رأس المال واعتباره ربا ما لم يشارك رأس المال فى الربح والخسارة معاً . وقد يشارك أصحاب المال فى الإدارة ، وقد يكتفون بتوفير رأس المال (المضاربة) .

(*) فى الحقيقة معدلات الفائدة فى الغرب (أمريكا وإنجلترا وألمانيا وسويسرا واليابان) أقل من معدلات الفائدة فى كثير من دول العالم ! ومنها مصر . بل إن البنك المركزى المصرى له إيداعات كبيرة - نسبيا - فى أمريكا وبفائدة منخفضة للغاية .

(**) بل إن بنى مخزوم - وهم من أغنياء قريش - وتجار الطائف كانوا يستثمرون أموالهم فى الصفقات التجارية بينهم بالربا ، وعندما أصروا على أخذ الربا بعد تحريمه ، نزلت الآيتان ٢٧٨ ، ٢٧٩ سورة البقرة فيهم .
أما مسألة حصر الربا الممنوع فى القرض الاستهلاكى ، فهو أولاً لا يوجد عليه دليل من قرآن أو سنة ، فهو تخصيص بلا مخصص ، وثانياً ، قد يكون القول بالعكس أبعد عن الخطأ ، فالمضطر يشرب الخمر ويأكل الميتة والخنزير ، بل وقد يسرق إذا ضاقت به السبل الشريفة وأصبح على وشك الهلاك وغيره عنده فائض =

تعمل باكستان بهذا النظام اللاربوى منذ ١٩٨٥ ، فقد أوقفت إصدار السندات ذات الفائدة الثابتة ، وفوائد حسابات الادخار [١٥٢] . وما زالت التجربة تحت الاختبار (ويدرسها فولكر نينهاوس وتراوت فولر شرف) [١٥٣] .

ومهما قلت مصادر التمويل ، فيجب على النظام الاقتصادى - حتى اللاربوى - أن يبرهن على قدرته على توفير رأس المال اللازم ، وتوجيهه إلى المشاريع المربحة .

ويقابل هؤلاء الذين يتخلون عن نظام الفائدة ، المشكلة التى تعثر فيها النظام الاشتراكى القائم على التخطيط الشامل .

وللمسلمين الحق فى التطلع لنظام اقتصادى كفء فعال ، بمضمون أخلاقى ، يظهر فى إسلام أباد أو الرياض أو الخرطوم أو طهران .

=وقد يكفر بالله لفظا كما فى حالة عمار بن ياسر ، ووافقه الرسول على ذلك قائلا : فإذا عادوا فعد . فقد رخص الإسلام للمضطر فى أشياء كثيرة . وجاء فى الحديث « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده » فيُستثنى من هذا المضطر ويبقى صاحب القرض الإنتاجى .

وفى الحقيقة ، فإن مسألة إباحة الفائدة على القرض الإنتاجى هى فكرة ظهرت فى القرون الوسطى لتحليل مسألة الإقراض بفائدة ، ذلك الأمر الذى يعمل على تجميع وتكديس أموال العالم - بمرور الزمن - فى أيدى قله قليلة ، الحال المتحقق والمعروف اليوم .

هوامش الفصل الحادى عشر

(١٤٢) لايصح مبدأ الملكية الثنائية (بين الله و الإنسـان) وانظر كذلك أ . أ . عوان ـ « الجودة، الكفاءة والملكية فى النظام الاقتصادى الإسلامى » بوسطون ١٩٨٣ .

(١٤٣) من الأهميـة تأكيـد ذلك على ضـوء تعدى الدولـة الصارخ ، والمؤسسـات التابعـة لها على الملكية الخاصة فى التاريخ الإسلامى . ففى القرن الثامن عشر، امتلكت العائلة الإمبراطورية العثمانية $\frac{٢}{٣}$ إلى $\frac{٣}{٤}$ أراضى الإمبراطورية مما سـاهم فى الانهيار المالى للإمبراطورية . انظر « جيه . آر . بـارس» ـ مقدمة للمؤسسات الدينية فى الإمبراطورية العثمانية . لندن ١٩٨٦ .

(١٤٤) كما يمكن للمرء أن يتخيل ، هذا المبدأ على المحك فى ضوء دور شركات البترول الغربية فى البلاد الإسلامية .

(١٤٥) كما تبين الفهرسة ربع السنـوية للمؤلفات الإسلامية ـ الصادرة عـن المؤسسة الإسلامية فى ليستر ـ حجم مايخص الاقتصاد الإسلامى كبير لدرجة يتعثر الإحاطة به .

(١٤٦) انظر «مولر ـ أرماك» ـ « الدين والاقتصاد» الطبعة الثانية برن ١٩٦٨ .

(١٤٧) « ضياء الدين أحمد» « تقييم مفهوم ونماذج البنوك فى الإسلام » فى عالم الإسلام ٢٨/ ٤/ ١٩٨٥ .

(١٤٨) المرجع السابق ١٤/ ٩/ ١٩٨٥ صفحة ٢ .

(١٤٩) « روجيه جارودى» ـ « الإسلام الحى » .

(١٥٠) سفر التثنيـة الإصحاحان ١٩ ، ٢٠ : لاتقرض أخـاك بربا . للأجنبـى تقرض بربا ولكـن لأخيك لاتقرض بربا لكى يباركك الرب .

(١٥١) يقول البعض بالسماح بما يعوض التضخم [ولكن الفـائدة أحد أسباب التضخم] ، منهـم يوسف على فى ترجمتـه للقرآن ، اقرأ الهامـش ٣٢٤ على الآية ٢٧٥ سورة البقرة، ومحمـد أسد فى رسالـة القرآن الهامش ٣٥ للآية ٣٩ سورة الروم.

(١٥٢) هذه تجربة أمينة جادة لاتباع النهى عن الفائدة الربوية ، بدلاً من أسلوب التحايل . انظر «يوسف شاخت» « مقدمة للقانون الإسلامى » أكسفورد ١٩٦٤ صفحة ٧٩ .

(١٥٣) « البنوك الإسلامية والعربية » كولون ١٩٨٤ .

الفصل الثانى عشر

الإسلام والبيئة

لن يجرؤ مسلم على الزعم بأن أحدا فى العالم الإسلامى نبه العالم لمشاكل البيئة المعاصرة ، وإنما يعود الفضل فى ذلك - بلا شك - لنادى روما ، والذى وقع تقريره عام ١٩٧٢ عن « حدود النمو » على أوروبا وقع القنبلة . وأتذكر جيدا كيف عهدت الحكومة لمكتب تخطيط السياسة فى وزارة الخارجية بتحليلات التقرير للإفادة فى السياسة الخارجية .

بل لا يمكن حتى الزعم أن للبلاد الإسلامية اهتمامًا خاصا بالبيئة ، بل على العكس وينطبق عليهم - كغيرهم - ما قاله جينشر وزير خارجية ألمانيا فى اجتماع الجمعية العمومية ٢٥ سبتمبر ١٩٩١ : ما زال الإنسان يشن الحرب على كل الخلق . وبما إن الدول الإسلامية تنتمى للعالم النامى ، فليس بمقدورها اتباع قوانين الدول الصناعية الغنية فى ذلك المجال .

(لايخلو هذا القول من الصحة ، وليس من المقبول أن يتصرف الأوروبيون كدعاة حماية البيئة ، وما قد يتبع ذلك من استعمار جديد من الأبواب الخلفية) .

على أية حال ، عكف الألمان المسلمون - خاصة أحمد فون دنفر [١٥٤] وهارون بهر [١٥٥] وأكسيل كوهلر [١٥٦] ، منذ قنبلة نادى روما على تأسيس ميثاق إسلامى لحماية البيئة ، وكان الموضوع الرئيسى فى الاحتفال بمرور ربع قرن على المركز الإسلامى بآخن - فى ١٧ مايو ١٩٨٩ - هو البيئة والإسلام ، وكانت النقط الرئيسية التى تناولها الميثاق :

١ - السبب الحقيقى لكوارث تدمير البيئة هو تمرد الإنسان الذى تخيل نفسه سيدا للكون وصاحبا للطبيعة بدلا من الله ، فانطلق وراء لذاته ونهمه الاستهلاكى ، غير مبال بما يسببه ذلك من أضرار .

ومن الناحية الأخرى ، فإن المسلم الحقيقى يعرف أنه لا يملك شيئا فى هذا الكون ، وإنما هو مستخلف عليه [١٥٧] ، له حق الانتفاع ، بشروط ونظام إلهيين ، فهو لم يرث الأرض ليمارس سيادته عليها بالمعنى الموجود فى العهد القديم .

٢ - أمر الله المسلمين بالاعتدال والوسطية فى كل شئ ، ونهى عن الفساد

والإســــراف : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ...﴾ (الأعــــراف - ٥٦) ، ﴿...ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين ﴾ (الأنعــــام - ١٤١) ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين...﴾(الإسراء -٢٧) ﴿وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين ﴾ (الأعراف - ٣١) ﴿ ...وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم... ﴾ (٤٤ - الإسراء) .

فالمسلم ينظر للكون كله مخلوقا لله مثله ، وإنما ميزه الله بمسئوليته وتكاليف الخلافة على كل ذلك ، حتى قبل أن تلوح فى الأفق كوارث البيئة (*) .

٣ - تفيض آيات القرآن بوصف الطبيعة والكون لتغرس فى النفس التفكر والتدبر فى آيات الله ، ويتخيل قدرته وحكمته وصنعته ، ومن ثم الإيمان به والتسليم له . فالكون عند المسلم منظومة من المخلوقات متحدة فى تمجيد الله وعبادته .

وعلى المستوى الظاهرى ، فى القرآن سور عديدة لها أسماء حيوانات أوظواهر طبيعية (١٥٨)، وفى هذا يقول القرآن ﴿ وما من دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ....﴾ (الأنعام - ٣٨) .

فالحيوانات والطيور والأسماك أمم من المخلوقات مثل أمة البشر ، وجاء فى الحديث النبوى أن رجلا دخل الجنة لأنه سقى كلبا عطشانا ، بينما دخلت امرأة النار بسبب قطة عذبتها منعت عنها الأكل والشر ب . وكثيرا ما تدخل الرسول لحماية الحيوانات والطيور .

وهذا لايناقض الاستفادة المشروعة للإنسان من الحيوان .

٤ - ليس هم القرآن كشف الغيب ، ولا تقديم موسوعة علمية ، ولكنه ينبه ويُبشر ويُنذر من خلالها . وفى ذلك أشار أحمد فون دنفر لظاهرة الماء العذب ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لونشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون﴾ (الواقعة - ٦٨ - ٧٠) .

٥ - وعلى نفس مستوى الأهمية ، يجئ قول الرسول : الوضوء شطر الإيمان ، والنظافة - أحد مقاصد الوضوء - بينما تبدأ كوارث البيئة بالتلوث .

(*) اقرأ فى «رسائل إخوان الصفا »المناظرة الفلسفية بين الإنسان والحيوان ، وتدور حول لماذا يخضع العالم للإنسان ، يُبطل بها الحيوان كل حجج الإنسان ، وتبقى فى النهاية للإنسان حجة واحدة ، وهى أنه مؤهل للقيام بدور الخليفة أكثر من الحيوان .

من يستوعب ما سبق ، لن يجد حل مشاكل البيئة فى نداءات مثل فول هوبجر شلايل « العودة للطبيعة » وكأنه دين جديد ، ولا فى روما نسيات حزب الخضر . فتبعات إنكار الله لايمكن علاجها بعبادة الطبيعة [إحدى مخلوقاته] .

وأصاب فرد يناند فيلمان الحقيقة ، عندما حذر من الخيالات والأوهام العاطفية لفلسفة طبيعية جديدة ، وعندما قال إن ما نتج من كوارث البيئة ليس فلسفة طبيعية جديدة ، وإنما فلسفة تكنولوجية جديدة . وما نحتاجه ليس نظرية جديدة لوحدة الوجود ، وإنما إعادة تأسيس عقلانية التكنولوجيا وأهدافها ، وكبح استقلاليتها [١٥٩] وباختصار ، نحن بحاجة إلى أسلوب جديد لإشباع ضرورياتنا الاقتصادية .

تحقق كثير من شباب الخضر أن تحديد الاستهلاك لن يكفى لإنقاذ الطبيعة من نظرة الإنسان سيد الكون وصاحبه ، والتي بمقتضاها يحق له الاستهلاك والتدمير . فقط عندما يعرف الإنسان أنه عبد لله (مُكلّف بالخلافة) كما يرى المسلم ، يمكن تحقيق تلك الثورة للمحافظة على البيئة .

وهكذا وجد كثيرمن الخضر طريقهم إلى الإسلام بعدما اتبعوا بديلا زائفا ، فإذا كانت مخاوفهم هى أعراض لأزمة القيم فى الغرب ، فتلك المخاوف نفسها تصبح القوة الدافعة فى الغرب للبحث عن سلام النفس فى التسليم لله ، حرفيا : «الإسلام» .

هوامش الفصل الثانى عشر

(١٥٤) « أحمد فون دنفر » مقالة القرآن والبيئة والإسلام، العددين الخامس والسادس ١٩٨٣ ، ومقالة البيئة والإسلام ، العدد الثانى ١٩٨٩ ، مجلة الإسلام .

(١٥٥) « هارون بهر » مقالة « العودة إلى دين الطبيعة » مجلة الإسلام، ١٩٨٥ .

(١٥٦) « أكسيل كوهلر » - « البيئة الإسلامية » فى الكتاب التذكارى « لله المشرق والمغرب » تكريما للفلاتورى ،كولون ١٩٩١ صفحة ٥٤ .

(١٥٧) الآية السابعة سورة الحديد .

(١٥٨) البقرة - الأنعام - الرعد - النحل - النور - النمل - العنكبوت - الطور - النجم - القمر - البروج - الطارق - الفجر - الشمس - الليل - التين - الفيل .

(١٥٩) جريدة فرانكفورت الجماينه ١٨/ ٢/ ١٩٨٧ .

الفصل الثالث عشر

الفنّ ومَنع التمَاثِيل

لم يمر الإسلام بظاهرة إقامة التماثيل للأولياء وتقديسها ، ثم رفض البعض لها كدعوة إصلاحية ، كما مرت المسيحية فى عوالم البيزنطيين والكاثوليك واللوثريين والكلفانيين . فقد حرم الإسلام تحريما تاما إشراك أحد مع الله فى العبادة أو الصلاة أو الدعاء (*) ، وحرمت أحاديث كثيرة (١٦٠) صناعة التماثيل ، قالها الرسول وفى ذهنه ما أكدته وكررته سورة النساء ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ الآية ٤٨ ، الآية ١١٦ ، ولكن لم يحرمها القرآن .

نهت السنة عن صناعة التماثيل والصور للمخلوقات الحية ، خشية عبادتها (١٦١) فكما قال الرسول لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وقد انتهى الأمر بالعرب قبل الرسالة لعبادة التماثيل [والتى كانت فى الأصل لأولياء صالحين ،أو أحجارا أخذوها فى أسفارهم من الكعبة] . وكم بلغ الغضب بالرسول عندما وجد داخل الكعبة تماثيل لإبراهيم وإسماعيل ومريم .

فإذا كان القصد من وراء النهى ، الخوف من عبادة التماثيل أو من السحر (**)، فيستثنى منه عرائس الأطفال - فقد كانت عائشة تلعب بالعرائس أول زواجها ، ولم ينهها الرسول - كذلك الصور الفوتوغرافية للبطاقات الشخصية وجوازات السفر (***)، وصور الأشعة التعليمية (****) وكل الصور التى لاتُقدس

(*) فى واقع اليوم ، مازال أكثر من نصف العالم يصنع تماثيل لعبادتها والتوسل بها أو إليها ، فالغالبية العظمى من آسيا ، باستثناء الدول الإسلامية فقط تعبد التماثيل سواء كانوا بوذيين أم هندوسا ، بل وتقدم الطعام والشراب لتلك الآلهة ، وتضيء الظلام حولها بالشموع ، بل وتغسلها باللبن فى العيد ! أما إذا كنا نتكلم عن عقيدة التوحيد الصافية ، فسوف نجد أنفسنا مضطرين لاستبعاد أكثر المسيحيين بتماثيلهم الكثيرة التى يصلون لها ويتوسلون بها ، وفى الحقيقة ، لن يبقى إلا المسلمون واليهود وقلة قليلة من المسيحيين .

(**) يسمى الفقهاء مثل هذا النهى سدا للذرائع أي منع الوسائل التى تؤدى للحرام .

(***) وهى فى الواقع ليست تصويرا بمعنى الكلمة الأصلى وإنما هى إسقاط لانعكاس الأشعة على الفيلم .

(****) يقول علماء الأصول من الحنفية إنه إذا دخل التخصيص ، أى الاستثناء ، على العام ، أصبح بعده ظنى الدلالة . أما علماء الأصول من المالكية والشافعية والحنابلة ، فقالوا إن دلالة العام ظنية لا قطعية .

وإنما تمتهن بالسير أو الجلوس عليها ، ولكن بلا خلاف ، يحرم أى تصوير لله ، وتحرم اليوم أى صور داخل المساجد . وتحريم الصور داخل المساجد أمر لافت ، فبعض المساجد القديمة فى دمشق والمدينة لا تخلو من رسومات للنباتات والمناظر الطبيعية أو النقوش المذهبة .

لم يكن المنع قديما بصرامة اليوم ، ويكفينا فى ذلك أن نشاهد المنمنمات الفارسية التى انتشرت منذ القرن الثالث عشر ، وبعد ذلك رسم السلاطين العثمانيين . وقد بُررت المنمنمات بأنها أعمال تجريدية لا تطابق الواقع بسبب صغرها المتناهى ، أما تبرير لوحات السلاطين بأنها إذا أغفلت ولو شعرة واحدة ما أصبحت صورة - كما زعم سلطان المغول أكبر ١٥٥٦ - ١٦٠٦ - فهو سفسطة تامة .

ويندر اليوم أن تجد حاكما إسلاميا يستحى من تعليق صوره فى الأماكن العامة وعلى طوابع البريد تشريفا له ، وذلك هو تماما ما جاء النهى الإسلامى بخصوصه (*) .

لم يضر ذلك المنع الفن الإسلامى ، بل على العكس أدى إلى تطور وتميز فنى الخط والزخرفة ، وفن المعمار .

يؤدى بنا ما سبق إلى موضوع أكثر أهمية : ما هو موقف الإسلام من الفن ؟

ككل الأديان التى تهتم بالآخرة ، لا يشجع الإسلام مبدأ الفن للفن ، فالحياة أثمن من أن يضيعها الإنسان [خليفة الله على الأرض] فى صغائر الأشياء ، خاصة إذا كانت ل متع الدنيا متناهية الصغر كما وكيفا بالنسبة للآخرة ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ولَلدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ (الأنعام - ٣٢) ، ﴿ ... **أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الدنيا فى الآخرة إلا قليل** ﴾ (التوبة - ٣٨) أضف لما سبق تحفظ القرآن على الشعر ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ...** ﴾ (الشعراء . ٢٢٤-٢٢٧) .

كذلك لم ترتفع الموسيقى والرقص فوق مستوى الشبهات ، لما يصاحبهما كثيرا من خلاعة وفسق ، وليس فى هذا افتراء كبير على الواقع .

(*) بل إن معظم بلاد العالم ، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ، تخلت عن تأليه الحاكم ، إلا البلاد الإسلامية ، خاصة العربية منها ، فهل هذا من الأسباب الرئيسية لتخلفها؟

ولكن لم ينس العالم الإسلامى ـ الذى اعتنى كثيرا بالسعادة ـ أن القرآن دعا للتمتع بالمباهج واللذات الدنيوية الطيبة المشروعة **﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾(الأعراف ـ٣٢) ومن هنا يدعوا المسلم قائلا ﴿.. ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ (البقرة ـ ٢٠١) .**

ويحب المسلم الكمال والحسن والجمال ، فلله المثل الأعلى كما جاء فى القرآن ، وإن الله جميل يحب الجمال (١٦٢) ، كما جاء فى الحديث . ويا للجمال الذى أنتجه الفن الإسلامى ! خاصة فى مجال الأدب وصناعة الكتاب (*) ، والخط ، و المنمنمات ، والعمارة الإسلامية ، وترتيل القرآن !

عكف مؤرخو الفن الأوروبيون منذ أقيم أول معرض للفن الإسلامى فى فيينا عام ١٩١٢ على دراسته بطريقتهم العلمية التفصيلية الدقيقة ، وأرادوا تحديد الصفات المميزة والمشتركة فيه (١٦٣) .

اقترح أوليج جرابار ـ بعد دراساته الرائدة ـ أن الفن الإسلامى هو ما يحمل نصوصا باللغة العربية ، ولكن ذلك التعريف لا يرضى الكثيرين . وقال جون هوج إن الفن الإسلامى هو ما ابتدعه المسلمون (١٦٤) ، وكأنه فسر الماء بعد الجهد بالماء . أما ريتشارد اتنجهاوس فقد ركز على التناسق العام ، وتوازن الأجزاء المختلفة ، والتكوين النموذجى ، فقال إنها دائما متوفرة فى الفن الإسلامى ، فهى الصفات المتميزة له(١٦٥) . وبالطبع يمكن قول مثل ذلك على أساليب فنية أخرى .

المشكلة [أو السبب فى الغنى والخصوبة] أن الفن الإسلامى لم يبدأ من فراغ ، ولكنه صهر وصبغ فنون الأجناس المختلفة التى دخلت الإسلام ، فهو ليس نتاج جنس أو منطقة ، ولكنه نتاج دين احتوى الأجناس والمناطق .

وبوسع أى ناشئ أن يرى كيف أثر الفن الإسلامى بقانونه الخاص على العالم الغربى وخاصة بين القرنين العاشر والرابع عشر (١٦٦) .

يعبر الفن الإسلامى عن شعور دينى وأسلوب حياة بقدر ما يعبر عن عقيدة دينية ، وهذا مؤكد .

فمثلا فى العمارة الإسلامية ، نجد مبدأ المضمون لا الشكل ، أو الباطن لا الظاهر ، ليس فقط فى المنازل ، بل حتى القصور . فكلاهما يحفظ الجواهر فى الداخل ، كما تخفى المرأة المسلمة جواهرها تحت العباءة .

(*) حوت مكتبة دار الحكمة فى القاهرة ـ منذ حوالى ألف عام أيام الملك العزيز الفاطمى ـ مليونا وستمائة ألف كتاب ، كذلك أسس من بعده الحاكم بأمر الله قصرا للمعرفة حوى ستمائة ألف كتاب .

وتتبع طريقة بناء المساجد ـ مساحاتها المربعة أو المستطيلة وخلوها من التدرج الهرمى ـ نقاء الإسلام من الطبقية والهرمية الدينية ، كذلك تتبع ألوانها وإضاءتها نقاء الإسلام من الأسرار والكهنوت والسحر .

إما المنمنمات ، فصغرها المتناهى يمنع الخيالات الفاسدة ، وتستحضر الحدائق الغناء بترتيبها وتنسيقها ورذاذ نافوراتها ، فى الذهن جنات عدن (*) .

أيستعصى علينا فهم هذه الظاهرة وتعريفها ؟ إن لمسألة التعريف أهميتها العظيمة ، فهى تكشف عما إذا كان للمؤرخ حاسة استقبال لخلفية الفن الإسلامى الرمزية المركبة .

وإنه لمما يُحسب للذين ذكرناهم من قبل ، أنهم تيقنوا أنهم أمام عالم مترابط متماسك فى الفن الإسلامى : فللدين تأثيره النافذ . وقد ساهم فى تحليل ذلك المستشرق رودى بارت فى كتابه (الرمزية فى الإسلام » (١٩٨٥) .

منذ ذلك ، تزايد تركيز الدارسين لتاريخ الفن الإسلامى (١٦٧) على مسائل المعنى والمضمون والجوهر . ويبلغ ذلك ذروته الآن فى دراسة ما وراء المادة والتصوف فى الفن الإسلامى ، واقرأ لذلك عمل الكسندر بابا دوبلو ـ البروفيسور بالسوربون ـ « الإسلام والفن الإسلامى » ، وعمل المسلم السويسرى نيتوش بوركاردت « الفن فى الإسلام »

نعرف الآن أن الزخارف الإسلامية تقوم على سبع عشرة مجموعة أصلية ، تُكَوِّن أشكالا لا حصر لها (١٦٨) . ومن خلال البحث عن عناصر تكوين الفن الإسلامى ، تبدو لى علاقة مؤكدة بين مبدأ التكرار الجمالى (فى القرآن ، والأدب العربى ، الموسيقى العربية ، الذكر) الذى يبعث فى النفس حالة من النشوة والوجد ، وبين محاولة الإحاطة باللانهائيات الإلهية . ويرمز لذلك الأرابيسك والزخارف الإسلامية اللانهائية (١٦٩) الأخرى . واقترح البعض علاقة مماثلة بين زخرفة الفسيفساء والجص أوالنحت أو التلوين الزخرفى ، مع محاولة الإحاطة بالذات الإلهية [كما بينتها أسماؤه، وقد جاء فى الحديث لله تسعة وتسعون اسما من أحصاها دخل الجنة] ليست تلك محاولات لتصوير الله رمزيا ولكن لتصوير وجوده .

أوجز ذلك جيه . سى . بورجيل فى نظريته القائلة : يتحد فى الزخارف الإسلامية اللانهائية ، النظام الإلهى من ناحية ، والتكرار اللانهائى الذى يرمز للانجذاب إليه من ناحية أخرى (١٧٠) .

وعلى هذا تنطبق مقولة : ليس كل ماتراه العين تدركه !

(*) أعتقد أن المؤلف يتحدث هنا عن حدائق غرناطة التى شيدها المسلمون فى الأندلس ، وسموها جنة العارف، والتى ترى السائحين فيها مشدوهين مذهولين من الإبداع والجمال.

هوامش الفصل الثالث عشر

(١٦٠) رواها البخارى ومسلم ومالك .

(١٦١) انظر « المعجم الصغير للإسلام » لأحمد فون دنفر ، لوتزلباخ ١٩٨٦ صفحة ٣١ ، ولمحمد حميد الله « مقدمة فى الإسلام » الطبعة الخامسة لوتون ١٩٨٠ صفحة ٤٨٢ .

(١٦٢) صحيح مسلم والترمذى .

(١٦٣) إذا أردت انتقاء عدد قليل من الكتب لمطالعتها ، فإنى أنصح : « الفن فى الإسلام» - « ارنست كوهنل » شتوتجارت ١٩٦٢ ، « فن الإسلام » - « كاترينا أوتو - دورن » الطبعة الثانية بادن بادن ١٩٦٦ ، « تاريخ ومدن الإسلام » - « ألفريد رينز » ميونيخ ١٩٧٧ ، « عالم الإسلام » - «إرنست جروب » جوترسلو ١٩٧٤ ، « مساجد استانبول » هـ . جيه . سورموست / فى . كريستيان فون ديرموليه ، ميونيخ ١٩٨١ .

(١٦٤) « جون د. هوج » - « العمارة الإسلامية» لندن ١٩٨٧ .

(١٦٥) « ريتشارد اتنجهاوس » - « الفنون التطبيقية والفن» .

(١٦٦) انظر كتالوج « متحف الفن الإسلامى » « كلاوس بريش » برلين الطبعة الثانية ١٩٨٠ صفحة٩ ، كتالوج معرض « أوروبا والشرق ٨٠٠ - ١٩٠٠ » فى برلين (٢٥/ ٥ - ٢٧/ ٨/ ١٩٨٩) .

(١٦٧) انظر روجيه جارودى « المساجد : مرايا الإسلام » باريس ١٩٨٥ - « نادر أردلان » - « شعور الوحدة : التقاليد الصوفية فى العمارة الفارسية » شيكاجو ١٩٧٣ .

(١٦٨) تم اكتشاف مبدأ التكوين الذى يسمح بأكثر ما يمكن من الزخارف فى مدرسة فى فاس - المغرب انظر جريدة زود دويتش ١٥/ ٦/ ١٩٨٧ صفحة ١٢ .

(١٦٩) انظر « لويز لمياء الفاروقى » - « الفن الإسلامى فى الإسلام العالمى» ميونيخ ١٩٨٨ .

(١٧٠) جريدة زيوريخ الجديدة ٥/ ٤/ ١٩٩١ صفحة ٣٩.

الفصل الرابع عشر

الفقه الإسلامى

اتفق خبراء الطعام على أنه توجد ثلاث مدارس رئيسية : الصينية والفرنسية والتركية . ولن يكون الأمر أكثر صعوبة على خبراء القانون فى أن يتفقوا على أهم الأنظمة القانونية : الرومانى ، والأنجلو ساسكونى، والإسلامى ، ومراكزها بولونيا ، أكسفورد ، القاهرة .

وفى القاهرة عاش محمد بن إدريس الشافعي - أكثر الفقهاء موهبة وعبقرية - آخر سنواته ، ومات ودفن (٧٦٧ - ٨٢٠) ، وكتابه المشهور الرسالة وضع أسس علم أصول الفقه [قال أحمد بن حنبل عنه إنه فتح ما استغلق] ، وهو مع تفسير الطبرى (٨٣٩-٩٢٣) بمثابة مجموعة قوانين جوستنيان (٥٣٤) .

تتشابه الأنظمة الثلاث فى أنها تأثرت فى تطورها بفكر القانونيين أكثر من القانون الأصلى نفسه . وكان كل من النظام القانونى الرومانى والنظام القانونى الإسلامى مجالا خصبا لإعمال عمالقة الفكر ، بينما القانون العام مجال للقضاة ! [١٧١] .

ولكن يختلف القانون الإسلامى عن الغربى منذ البداية - باستثناء القانون الكنسى - حيث إن القانون الإسلامى مصدره الوحى ، فهو لذلك الطريق أو الشريعة التى يجب على المسلم سلوكها ليفوز بالفلاح . وأصبحت كلمات القانون الإسلامى [الأحكام] الشرع أو الشريعة الإسلامية ، الفقه الإسلامى (المعنى الحرفى للفقه : الفهم) مترادفات لنفس المعنى ، وحتى اليوم . ولكن منذ مطلع القرن ، بدأت محاولات تخصيص تعريف للشريعة مختلف عن تعريف الفقه ، فالشريعة هى ما أتى به الوحى والفقه هو ما فهمه الفقهاء من الشريعة وقالوا به وما أضافوه من اجتهادهم وأفكارهم[١٧٢] .

لا ينحصر اختلاف القانون الإسلامى (الشرع أو الأحكام) عن قانون الغرب فى أن الأول مصدره إلهى والثانى مصدره فكر بشرى ، بل أيضا - وبصفة أساسية - فى أن الشرع الإسلامى يشمل كل مجالات الحياة الإنسانية ، ولا يشبهه فى ذلك إلا الشرع الموسوى ، فحتى آداب الطعام والزيارة تجد لهما نصيبا فى الشرع الإسلامى[١٧٣] .

ولذلك لايمكنك التمييز بين رجال القانون الإسلامى (الفقهاء) وبين المفكرين الإسلاميين ، فلن يتيسر لأحد أن يصبح صاحب فكر إسلامى قبل أن يحيط بالقانون أو الشرع الإسلامى .

هناك كثير من أعمال الفقهاء (مختصرات ومطولات وحواش) (*) تشمل وتشرح القانون أو الشرع أو الأحكام ، وأكثرها يبدأ بالصلاة .

لايشبه القانون الإسلامى قوانين الغرب فى تفريقها بين :

* القانون ، العدالة والعادات والعرف .

* القانون العام والقانون الخاص .

* قانون الإجراءات والقانون الأساسى .

* القانون الجنائى والقانون المدنى .

* قانون الصراعات والحروب ، قانون الأجانب والقانون المدنى .

ولذلك وصف البعض - بسطحية - القانون الإسلامى بالقصور .

بالطبع القرآن هو المصدر الأول والرئيسى للقانون الإسلامى . ولكن القرآن لا يفصح إلا عن عدد محدود من الأوامر الصريحة كمنع أكل الخنزير وشرب الخمر ولعب القمار . وبعض الأوامر مجملة تحتاج شرحا وتفصيلا كتحريم الربا ، فما هو الربا ؟

(*) مثال لذلك كتاب «الأم» للشافعى ، فقد صدر فى عدة طبعات من سبعة إلى تسعة أجزاء من القطع الكبير . واختصر المزنى - أحد أنبه تلاميذ الشافعى - الأم فى مجلد واحد سماه مختصر الأم . ثم شرح الماوردى مختصر المزنى فيما سماه الحاوى الكبير ويقع فى تسعة عشر جزءا .

وقد يكون أصغر مرجع فقهى يجمع مذاهب السنة ، العمل الفذ لابن رشد «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» مكون من جزأين ، وعلى الناحية الأخرى هناك المبسوط للسرخسى الحنفى فى ثلاثين جزءا والمغنى الكبير لابن قدامه المقدسى الحنبلى ، وهو يجمع أيضا آراء مذاهب السنة ، ويقع فى عشرة أجزاء ، ثم هناك الفتاوى الكبرى لابن تيمية فى سبعة وثلاثين جزءا .

وقد يكون أيسر وأشهر كتب الفقة فى النصف الثانى من قرننا الحالى فقه السنة ، ثلاثة أجزاء - سيد سابق .

وأوسط كل ما سبق ، ما كتبه العلامة الشوكانى - المفسر والمحدث والفقيه والأصولى - نيل الأوطار ، فى ثمانية أجزاء . وأكثر الأعمال جرأة وتفرداً - مع كثير من الذكاء وحدة اللسان - «المحلى بالآثار» لابن حزم الأندلسى ، ويقع فى اثنى عشر جزءا .

وكثير من الأوامر مُغلّفة فى شكل توصيات بالفعل أو الامتناع عن الفعل ، دون تهديد بعقاب دنيوى (الشذوذ الجنسى مثل لذلك) (*) (١٧٤).

وإذا كان من الطبيعى أن يختلف فهم الناس وتأويلهم لبعض آيات القرآن (بل وللكلام العادى) فالمرجع هنا لما قاله وبينه الرسول .

وهنا يأتى دور السنة ، المصدر الثانى للشرع بعد القرآن ، فهى تفسر وتفصل القرآن(١٧٥) ، وقد أمر القرآن فى عدة مواضع بإطاعة الرسول(١٧٦)(**) وقال للمسلمين كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة [وقال له : إنك لعلى خلق عظيم ، وإنك بأعيننا].

واجهت الأجيال التالية لعصر الرسالة ، مسائل ومشاكل جديدة لم يجدوا فى القرآن ولا السنة نصوصا صريحة لها ، فاجتهدوا ليصلوا لحكم الشرع فيها . بدأ الاجتهاد منذ عصر الصحابة ، ومن ثم أخذ الفقهاء بإجماع الصحابة ، ثم بالقياس على نصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة ، ثم بإجماع الفقهاء . (أضافت المذاهب السنية بعد ذلك المصالح والاستصحاب والعرف ، فأصبحت مصادر الأحكام كالتالى : القرآن ، السنه ، الاجتهاد ، ويشمل : إجماع الصحابة ، القياس ، المصالح ، الاستصحاب ، العرف

(*) يرى بعض المفسرين - قدامى ومعاصرين - أن آيتى سورة النساء ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهم أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فأذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما ﴾ (١٥ ، ١٦) يختصان بفعل الشواذ ، كذلك أمرت السنه بعقاب الشواذ .

(**) من أوضح الأمثلة لما جاء مجملا فى القرآن وبينته السنه وفصلته ، الصلاة والزكاة والحج . فما أكثر ما أمر القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولكن لم يبين كيفية الصلاة ولاعدد الصلوات المفروضة فى اليوم ولا أوقاتها ، كذلك لم يبين أنصبة الزكاة وكيفية أدائها ، ولا مناسك الحج . بل إن كلمةصلاة تعنى دعاء ، وكلمة زكاة تعنى نماء وكلمة حج تعنى قصد . كذلك خصصت السنه عموم القرآن كما جاء فى حديث لا وصية لوارث ، وحديث لا ميراث لقاتل ، وحديث لاتنكح المرأة على خالتها ، وقيدت السنة مطلق القرآن كما فى حديث لانكاح إلا بولى ، وكما فى قيد الدخول قبل الطلاق لترجع المرأة لمن طلقها ثلاثا .
وكلمة سنة تعنى طريقة أو منهجا ، وإذا كنا نتكلم فى أصول الفقه ، فالسنة هى المرجع الثانى للمسلم بعد القرآن ، وهى أفعال وأقوال الرسول ، وموافقته على أفعال وأقوال المسلمين . أما إذا كنا نتكلم فى الفقه ، فالسنة عند المعاصرين هى ما ليس بفرض من فعلها أثيب عليها ، ومن تركها فلا يأثم .
ولاحظ - مع كثير من الغرابة والدهشة - المفارقة الهائلة فى التعريف السابق للسنة ، مع ما قاله صاحب السنة عليه الصلاة و السلام « من رغب عن سنتى فليس منى » والاختلاف هنا فيماقصده عليه الصلاة والسلام بكلمة سنة ، وما درج عليه علماء الفقه اليوم ، ومع أنه كما يقال لامشاحة فى الاصطلاح ، فقد كان الأجدر بهم أن يحتفظوا بمصطلحات التطوع والمندوب والمستحب وما إلى ذلك .

إجماع الفقهاء . والعرف هنا هم ما لم يخالف أيا مما سبق) وطمأن الفقهاء فى اجتهادهم الحديث القائل لاتجتمع أمتى على ضلالة .

واضح أن القانون الإسلامى مرن بما يكفى لاستيعاب المصالح الشرعية فى كل مكان وزمان [لذلك انتشرت مقولة : إن كان هناك مصلحة حقيقية فثم شرع الله] .

ويرفض الشرع الإسلامى مبدأ القانون الطبيعى والعدالة اللذين يأخذ بهما الغرب .

لما كان الشرع الإسلامى يشمل كل مجالات الحياة البشرية ، وكان الفقهاء هم المنوط بهم استخراج أحكام الشرع فى كل مسألة ومشكلة مستجدة ، فلا غرابة أن أصبحت عليهم مسئولية كبرى ، وبالتالى تأثير ونفوذ هائلان يفوقان بكثير ما للقضاة ورجال القانون الغربيين ، ولايمكن أن يقارن ذلك إلا بقاضى المحكمة العليا فى أمريكا .

ومازال للعلماء الكبار ، تأثيرهم الهائل على المسلمين ، ويظهر ذلك ـ على سبيل المثال ـ فى آراء شيخ الأزهر فى القضايا المعاصرة ، أو فتاوى المفتى .

وأدت خطورة دورهم ، لتعرضهم بدورهم للخطر ، ولذلك حفل تاريخهم بالسجن والاضطهاد ، مثلما كان مع أحمد بن حنبل (*) .

وتقليدا للعالم الغربى ، بدأت الإمبراطورية العثمانية إدخال نظامه القانونى عام ١٨٧٧ ، وتلتها أكثر البلاد الإسلامية ، عدا السعودية ، مع تأكيد الحكومات الإسلامية على إلغاء ما يعارض الشريعة .

لم يجرؤ أحد من المسلمين على جعل كل أحكام الشرع قانونا مفصلا مدونا(**) إلا فى مجال الأحوال الشخصية الخاصة بالزواج والطلاق والمواريث ، ويتجنب علماء القانون المسلمون ـ بوعى ـ ما فعله علماء القانون فى أمريكا من تجميع للأحكام القضائية وتقنينها ، ثم إعادة تقنينها ، ما دامت أكثر أحكام الشريعة هى قواعد كلية عامة لا تتطرق للتفاصيل ، حتى يكون لها صفة الدوام زمانا ومكانا ، وسن قانون ليقابل حالة زمانية ومكانيه واحدة لايمكن أن يحيط بكل القاعدة الشرعية فى ذلك الخصوص ، إلا إذا تم اقتناص بعض من القاعدة بأخذ جزء من آياتها وفصلها عن الباقى (١٧٧) .

(*) سُجن أحمد بن حنبل وضرب بالسياط لرفضه رأى المعتزلة بخلق القرآن ، وسجن معه كثيرون ، ومن قبل عُذب أبو حنيفة وضُرب بالسياط ، وقيل إنه مات فى السجن لمعارضته العباسيين وتأييده أهل البيت ، وسُجن ابن تيمية ، واضطهد الأفغانى ونُفى ، وحفل القرن العشرون بالعلماء المضطهدين والمعتقلين والمهاجرين .

(**) جرت محاولات نادرة مثل « مجلة الأحكام العدلية » ، « الفتاوى الهندية »

وإذا كانت موسوعات ومؤلفات العلماء الشرعية تحظى بالشهرة والاحترام عند الشعوب ، فإنها تمثل الانقسام الذى يعيشه العالم الإسلامى بين علماء القانون وعالم القانون . فقد بدأت الفجوة تظهر وتتسع بين ما يقوله العلماء وما يفعله السلاطين والأمراء والوزراء من بعد الخلفاء الراشدين ، حتى وصلنا للانقسام الراسخ اليوم ، حيث أصبح القانون الإسلامى هو الواجهة التى تحب أن تظهرها الحكومات ، وليست القواعد التى تحب أن تسير عليها . وللأسف شارك بعض العلماء فى ذلك ، ودعوا إلى الطاعة الكاملة العميا ، حتى لحكام السوء ، وعلى هذا نجحت كثيرمن الحكومات الإسلامية فى صبغ القانون الإسلامى وفق ما تريد ، بدلا من تتبع صبغة الله ، ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ ، ولاعجب إذن فى أن تطالب الشعوب الإسلامية بحكم الشرع ، من إندونيسيا شرقا حتى المغرب .

ولكن ماذا عن المذاهب الفقهية في الإسلام ؟ عاش كثير من الصحابة حتى أواخر القرن الأول الهجرى ، فكان الناس يلجئون إليهم ويتناقلون أقوالهم واجتهاداتهم ، ثم حمل علمهم التابعون وبدأت تظهر على أيديهم أواخر القرن الهجرى الأول معالم مدارس الفقة الإسلامى ، حتى أسس أبو حنيفة فى العراق (-١٥٠ هـ ، ٧٦٧ م) ومالك فى المدينة (٩٣ -١٧٩ هـ ٧٩٥م) ، والشافعى الذى بدأ فى الحجاز ، ثم انتقل إلى اليمن ثم العراق ، ثم أخير ا مصر (١٥٠ -٢٠٤ هـ)وأحمد فى العراق (١٦٤ - ٢٤١هـ) المذاهب الفقهية السنية .

وعاصر أبو حنيفة زيد بن على زين العابدين ، وأيده ضد الأمويين ، كذلك أخذ أبو حنيفة من جعفر الصادق حفيد على زين العابدين . وزيد هو عمدة المذهب الشيعى الزيدى ، وجعفر الصادق هو عمدة الشيعة الاثنى عشرية . والزيدية والاثنى عشرية هما أقرب فرق الشيعة للسنة . وقبل كل هؤلاء عاش عبد الله بن إباض عمدة المذهب الإباضى ، وهو من أقرب الخوارج لأهل السنة .

لم يخطر ببال أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد نشأة مذاهب فقهية طبقا لأعمالهم (*) ، وأكثر اختلافاتهم هى فى الفروع وليس الأصول ، وتلك المذاهب مع

(*) بل إن الأربعة نهوا عن تقليدهم ، واقرأ للشوكانى كتابه الصغير حجماً والكبير فائدة « القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد » .

وقد اتفقت المذاهب السنية الأربعة على مصادر الشرع الأساسية : القرآن ، السنة ، إجماع الصحابة ، القياس . توقف المذهب الشافعى على ما سبق ، بينما أضافت المذاهب الأخرى المصالح والعرف ، مع تقييد المذهب الحنبلى للقياس لينحصر فى أضيق الحدود ، وأضاف المذهب المالكى عمل أهل المدينة .

ووضع الحنفية شروطاً فى الأخذ بأحاديث الآحاد ، بينما تساهل فيها الحنابلة وضيقوا وشددوا =

مذاهب الشيعة والإباضية دليل على ثراء وتنوع الفكر الإسلامى وتعدديته منذ فجر الإسلام.

وقد أجمعت كل المذاهب السابقة أن القرآن ـ المصدر الأول للشرع ـ كله قطعى الثبوت ، يليه السنة ـ المصدر الثانى ـ ، ومنها ما هو قطعى الثبوت : الأحاديث المتواترة، ومنها ما هو ظنى الثبوت : أحاديث الآحاد . ثم قسمت النصوص بعد ذلك ـ القرآن والسنة ـ إلى ما هو قطعى الدلالة (واضح وقاطع المعنى) ، ومنها ما هو ظنى الدلالة (يحتمل الظن) ثم رتبت المذاهب السنية ـ عدا الحنفى ـ أحكام الشرع كالتالى :

* فرض : جاء به أمر بالفعل ، ووعيد بالعقاب لعدم الفعل ، من لا يؤديه يأثم .

* مندوب : ما طلب الشارع فعله طلباً غير لازم ، يُثاب فاعله ولا يُعاقب تاركه ، ويُسمى أيضاً النافلة والتطوع والمستحب والسنة .

* مباح : لم يأت بخصوصه أمر بالفعل أو النهى .

* مكروه : جاء به نهى ، ووعد بالثواب للترك ، ولا وعيد بالعقاب للفعل ، فمن يتركه يُثاب ، ومن يفعله لا يأثم .

* حرام : طلب الشارع الكف عنه على وجه الحتم واللزوم ، فمن يفعله يأثم .

أما الحنفية ، فشرطوا للفرض أن يكون نصه قطعى الثبوت قطعى الدلالة ، وإلا أصبح واجباً ، ثم شرطوا للحرام أيضاً أن يكون نصه قطعى الثبوت قطعى الدلالة ، وإلا أصبح تحريم كراهية .

كذلك أجمع العلماء على :

* الأصل فى الأشياء الجواز أو الإباحة (١٧٨) .

= فى القياس ، ولذلك شاع القول ـ الذى إن لم يصح تماماً ، ففيه جزء من الصحة ـ إن الحنفية فى العراق مثلوا مدرسة أهل الرأى ، والحنابلة بالحجاز مثلوا مدرسة أهل النقل ، ويقع فى الوسط منهما كل من المذهبين المالكى والشافعى . ولا يفوتنا أن نبين أنه بسبب تضييق الحنابلة فى القياس وتوسعهم فى المصالح ، تميز المذهب الحنبلى ـ على عكس المشهور ـ بمرونته وسعته فى المعاملات المستحدثة ، أخذاً بأن الأصل هو الجواز أو الإباحة ، ولأحمد بن حنبل قول مشهور : لا عبادة إلا بنص ، ولا تحريم إلا بنص .

* النية شرط فى كل العبادات بناء على الحديث المشهور : إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

* لا يمكن الأمر بالمستحيل (١٧٩) .

* فى حالة الشك والالتباس : اترك ما يريبك لما لا يريبك .

وأدى تفاعل المذاهب مع بعضها إلى أن دعا الملك الحسن الثانى علماء السنة والشيعة لتحقيق التقارب . [يأخذ قانون الأحوال الشخصية فى مصر ببعض آراء مذهب الشيعة الإمامية ، ويُدَرَّس المذهب فى جامعة الأزهر] .

ظهر قديما وحديثا اتجاه عند البعض من إباضية وحنابلة ووهابيين إلى تحويل المندوب لما يشبه الفرض ، والمكروه إلى ما يشبه الحرام ، واعتبار ذلك من قبيل البدعة الحسنة ، والقصد والمبرر هما محاولةالتأسى التام بما فعله الرسول ، ولكن هذا الاتجاه الصارم نحو القداسة يزحزح الإسلام عن وسطيته ويجعله للصفوة والزهاد ، وليس لعامة البشر وأواسطهم ، الذين ليسوا بفاسقين ، ولكن ليسوا أيضا بمتصوفين .

نشأت حركات من هذا القبيل على مدى التاريخ الإسلامى ، الحنابلة فى العراق ، والمرابطون والموحدون فى الجزائر ، واليوم جبهة الإنقاذ فى الجزائر . واصطدمت تلك الحركات بواقع الحياة ، وعادته بتشددها . فالقرآن يلهم المسلم الدعاء للدنيا وليس الآخرة فقط ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنةوفى الآخرة حسنة** ﴾ (البقرة ـ ٢٠١) وكذلك فيجب علينا التمسك بشدة بالقاعدة الأصيلة التى تقول بنص القرآن ﴿ **هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ..** ﴾ (البقرة ٢٩) ، ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ..** ﴾ (لقمان ـ ٢٠) . فالأصل فى كل الأشياء أنها جائزة ومباحة إلا أن يأتى أمر من الشرع بخصوصها . ويجب ألا يجرؤأحد على التحريم من نفسه ، وفى ذلك يقول القرآن ﴿ **يأيها الذين أمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم...** ﴾ (المائدة ـ ٨٧) ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ...** ﴾ (الأعراف ـ ٣٢) ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ...** ﴾ (النحل ـ١١٦)

وماذا ـ بعد الخلفية السابقة ـ تعنى الدعوة لتطبيق الشرع فى البلاد الإسلامية ـ إذا كانت أكثر من شعار؟

يعنى هذا بمعناه المباشر [وهو فى الحقيقة معناه الواسع المرن الشامل] أن يكون القرآن

الدستور الأعلى للدولة (*) ، لا يمكن أن تصدر قوانين تعارضه ، بل حتى الدساتير الموجودة تراجع عليه ، وقد تكشف تلك المراجعة أن بعض القوانين الدستورية (القديمة) هى غير دستورية (بعد مراجعاتها مع القرآن) . هذا ما يطالب به حتى المسلمين المعتدلين .

ويعنى البعض الآخر بتطبيق الشريعة ، الاقتصار على ما فيها من أحكام ، مع اجتهادات وآراء الفقهاء ، دون تحديد فى أى فترة من فترات التاريخ الإسلامى (**) ، وقد يمكننا الافتراض بأنهم يريدون القرن الخامس عشر ، والتقليد وقفل باب الاجتهاد ، فإذا كان الأمر كذلك فستكون أصولية جامدة قاصرة عن أن تضع أساسا لأمة المستقبل .

(*) معنى أن يكون القرآن والشرع هما الدستور الأساسى ، هو ألا تعارض قوانين الدولة القواعد الكلية ، أو الأحكام التفصيلية فى الشرع ، وقد ترك الشرع بحكمة إلهية مجالا كبيرا واسعا للعقل البشرى لتفصيل القوانين اللازمة لمصالح الأمة فى كل مكان وزمان ، على ضوء تلك القواعد الكلية . ونكرر هنا ما أكده المؤلف أن الأصل فى الأشياء الإباحة وأن المقاصد الرئيسية للشرع هى حماية : الدين ، النفس ، العقل ، المال ، النسل .

(**) وهم بهذا يرتكبون الأخطاء الآتية :

١ ـ يقلدون بعضا من أتباع ـ أو حتى مجتهدى ـ المذاهب التى نهى مؤسسوها عن تقليدهم هم أنفسهم ، فما بالك بأتباعهم .

٢ ـ الأخطر من هذا ، أنهم ينصبون ـ دون أن يدروا ـ أولئك الأتباع أو المجتهدين بمنزلة القرآن والسنة .

٣ ـ أنهم يعيشون عالة فكرية على غيرهم .

هوامش الفصل الرابع عشر

(١٧١) أصبح تصنيف القوانين من الأهمية بمكان ، ليس فقط فى الفقه الإسلامى، ولكن أيضا فى القانون الأنجلوساكسونى.

(١٧٢) « قانوننا » محمد أسد ، جبل طارق ١٩٨٧ .

(١٧٣) اقرأ ليوسف القرضاوى « الحلال والحرام »، وانظر لـ« إرنست كلنجمولر ».«القانون والدين» فى كتاب تكريم الفلاتورى . كولون ١٩٩٠ صفحة ٤٧ .

(١٧٤) قدم عبد الجواد الفلاتورى دراسة متقنة للقيم القرآنية الدقيقة فى مقاله « الشريعة ـ النظام ـ القانونى الإسلامى » فى « الإسلام قوة عالمية » ميونيخ ١٩٨٨ .

(١٧٥) أصح كتب الحديث هى صحيح البخارى ، صحيح مسلم ، موطأ مالك.

(١٧٦) ٣٢ آل عمران ، ٥٩ ـ ٦٥ ـ النساء وغيرهما .

(١٧٧) مراد هوفمان « الإسلام » العدد السادس صفحة ٩ ، ميونيخ.

(١٧٨) ٢٩ سورة البقرة ، ٢٠ سورة لقمان الآية ٨٧ سورة المائدة ، الآية ١١٦ سورة النحل.

(١٧٩) ٢٨٦ سورة البقرة ، ١٥٢ سورة الأنعام ، ٤٢ سورة الأعراف ، ٦٢ سورة المؤمنون.

الفصل الخامس عشر

حُقوقُ الإنسَان

يحق للعالم الغربى أن يفخر بتاريخه فى حقوق الإنسان ، فمنذ الفلاسفة الرواقيين [فى اليونان القديمة ، قبل الميلاد بثلاثة قرون] (*) وصاعدا ، بدا كما لو انحصرت تلك الحقوق فى الثقافة المسيحية . ومرت تلك الحقوق بالأحداث التاريخية الآتية :

* الماجنا كارتا عام ١٢١٥ (**) .

* قانون الأمر بالمثول أمام القضاء قبل إصدار الأحكام عام ١٦٧٩ .

* إعلان الاستقلال الأمريكى عام ١٧٧٦ .

* إعلان حقوق الإنسان والحقوق المدنية الفرنسى عام ١٧٨٩ (***) .

وهذا ما يعلمه حتى أنصاف المتعلمين .

لهذه المعرفة السائدة آثارها النفسية البعيدة [فى الغرب والشرق على السواء !] . فمن ناحية ، يعتبر الغرب إنجازه فى هذا المجال نموذجا يجدر بالعالم احتذاؤه ، ومن

(*) كذلك يفخر الغرب ، وتتحدث أكثر كتب السياسة الأكاديمية عن ديمقراطية أثينا القديمة ، مع أن تلك الديمقراطية استبعدت سبعة أضعاف عدد السكان الأحرار بأثينا ، لأنهم عبيد وأجراء .

(**) وقع جون ملك انجلترا وثيقة الماجنا كارتا عندما تكالب عليه أعداؤه داخل وخارج إنجلترا ، وخاصة البابا انوسنت وأشراف إنجلترا وكنيستها ، وأهم بنودها كما ذكرها ول ديورانت ص ١٩٩ الجزء الخامس عشر من قصة الحضارة :

١ ـ كنيسة إنجلترا حرة لا يعتدى على شيء من حقوقها وحرياتها .

٢ ـ إننا نمنح جميع الأحرار فى مملكتنا عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر جميع الحريات المدونة فيما بعد .

٣ ـ ألا يفرض بدل خدمة أو معونة إلا المجلس العام .

٤ ـ لكى يجتمع المجلس العام . . سنأمر باستدعاء كبار الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وحملة ألقاب إيرل وكبار البارونات .

(***) رفعت الثورة الفرنسية شعار حرية ، إخاء ، مساواة ، وبعد ذلك بسنوات قليلة ، خرجت جيوش نابليون لخدمة المصالح الفرنسية ، واستعمرت فرنسا كثيرا من بلدان آسيا وإفريقيا ، وفى الجزائر وحدها مسحت قرى بأكملها من فوق الأرض ، وقتلت مليون جزائرى بعد فترة احتلال قاربت قرنا ونصفا .

الناحية الأخرى ، من المألوف أن نقابل في الغرب خبراء هذا المجال الذين يرون لبقية العالم - خاصة المسلمين - تاريخا بربريا في ذلك ، برغم حقيقة أن هؤلاء الخبراء لا يعرفون شيئا عما يتكلمون عنه .

ما سبق يبرر تظاهرات الأمم المتحدة بالظفر بإعلان حقوق الإنسان في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ ، ثم في ١٩ ديسمبر ١٩٦٦ : أ - ميثاق الحقوق المدنية والسياسية ، ب - ميثاق الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وهي في الحقيقة غير ملزمة ، وقد صدقت عليها كثير من الدول الإسلامية .

ولكن . .

هل لهذا البناء أساس متين ؟

كثيرا ما يتم التغافل عن هذا ، برغم حقيقة أن هذا البناء معرض للانهيار الكامل .

رأى آباء الثورة الأمريكية أن حقوق الإنسان مصدرها الله ، ثم جاء بعدهم يعاقبة الثورة الفرنسية فقالوا إن مصدرها الطبيعة ! وكان هذا أول معاول الهدم في أساس البناء .

لا يصلح مزاج الإنسان - وإن سماه الحق الطبيعي [أو ما شاء من الأسماء الرنانة الفارغة] - من أن يقيم أساساً لحقوق الإنسان في كل مكان وزمان .

بل لا يصلح لذلك على الإطلاق إلا أساس إلهي شامل كامل كما جاء في الإسلام ، يتعلمه أو يتعرف عليه أو يكتشفه الإنسان . والخلاصة في حقوق الإنسان أنها تتوقف على الإيمان الصحيح بالله ، فمن ينكر وجود الله يُعَلِّق حقوق الإنسان على هواه ، مهما خدع نفسه بالرجوع للحق الطبيعي أو القانون الطبيعي ، فلم يستطع أحد في أي وقت أن يستخرج نظاماً قانونياً عاماً شاملاً من إمعان النظر أو التأمل في الطبيعة !(*) .

وتتحدث النتائج عن نفسها ، فالدول الملحدة لا تقيم وزنا لحقوق الإنسان ، وهذا واضح في العالم الشيوعي (**) .

(*) في الحقيقة يستطيع الإنسان بالتأمل في الطبيعة ، وفي عالم الحيوان في الغابة ، أن يخرج بقانون البقاء للأصلح ، وهو إن كان لا أخلاقيا ، فهو عملي ، وهو أحد القوانين التي رسخت في عالم الغرب بعد النهضة .

(**) وفي العالم الغربي الذي يحلو له أن يتكلم عن حقوق الأقليات ، نجد في أمريكا وحتى القرن العشرين ، =

وجاء معول الهدم الثانى من تطور حقوق الإنسان إلى جعلها مسئوليات على الدولة. فكما هو معروف ، عنت حقوق الإنسان فى القرون الماضية بتحديد وتقليص دور الدولة فى حرية المواطن ، وذلك بقمع يدها فى: الضرائب ، احتجاز الأشخاص، نقل الملكيات ، ، تنفيذ الأحكام على هواها . فكانت النغمة فى ذلك الوقت ما لا يجب على الحكومة عمله وليس ما يجب عليها عمله .

أما الآن ، فمن حقوق المواطن أن يجد فرصته للعمل ، والسكن ، والعلاج ، بل حتى الاستمتاع بالطبيعة وحق السعادة الشخصية (*) .

أدى هذا لتضخم حقوق الإنسان ، ولاتساع نطاق الدولة ، والاثنان خطر على حقوق الإنسان ، مثل الإلحاد .

ويشوه التشدق بالحقوق الأساسية ـ مثل حق الخوف ، أوحق التمتع بنشوة الغياب عن الوعى تحت تأثير المخدر [وياله من مصطلح !] ـ مفهوم حقوق الإنسان ، ومن يدرى ماذا يستجد من تلك الحقوق الأساسية !

لايسير الإسلام وراء تلك الأفكار الحمقاء ، فهو يكفل أقدم وأشمل نظام لحقوق الإنسان فى العالم . عند المسلم ، تلك الحقوق هى التى بينها القرآن والسنة ، ويجزم الفقهاء أن تلك الحقوق لايجوز أن يضعها الإنسان ، هو فقط يستطيع أن يتعرف عليها أو يكتشفها من مصادرها ، وبهذا تجد حقوق الإنسان أصلب وأمتن قاعدة فى النظام القانونى الإسلامى .

ولما كانت لكل أحكام القرآن نفس المرجعية ، وبصفة مبدئية نفس الإلزام القانونى ، جاءت الأحكام والوصايا الخاصة بحقوق الإنسان موزعة فى القرآن ، فى مجالاتها المختلفة : الأحوال الشخصية ، الأحكام الجنائية ، الأحكام الاقتصادية . . وهكذا ،

= مدارس خاصة للزنوج ، ووسائل نقل عامة خاصة بهم ، بل وحتى اليوم أحياء خاصة وأيضا كنائس خاصة للزنوج ، والاتجاه العنصرى للرجل الأبيض لا يخفى على العين البصيرة ، سواء كان ذلك فى أمريكا ، أو أوروبا الغربية ، أو فى آخر العالم جنوبا وشرقا ، فى أستراليا الآسيوية ، التى تحدد هجرة الآسيويين لها وتتمتع بمساحة قارة ، مع عدد سكان أقل من القارة ، وتتكلم عن الخوف من أن تصبح استراليا ـ خوفا من المهاجرين الآسيويين ـ آسيوية ! .

(*) يتحدث المؤلف عن ألمانيا حيث تكفل الدولة التعليم والعلاج والسكن لكل مواطن ، وتدفع إعانة بطالة تكفى للمعيشة الكريمة ، وأكثر من ذلك كما قال ، فمن حق المواطن أن يطلب اجازه نفسية لأنه غير سعيد ، أو يحتاج لرعاية صحية خاصة لإزالة بعض السمنة ! وهذا ـ فى جزئه الأول على الأقل ـ حد الكفاية الذى قال الفقهاء بوجوب توفيره فى الدولة الإسلامية .

فهى ليست مجموعة فى موضع واحد ، وعلى هذا تم وضعها فى كتب الفقه ، ولم تظهر كموضوع واحد ، حتى الأعمال المعاصرة لم تبرزها وتميزها كثيرا [١٨٠] ، ومن هنا يخطئ البعض فى الظن أن القرآن لم يكترث لهذا المجال كثيرا . وقد يكون أقرب ما فى ذلك لتفكير الغرب النمطى ، ما جاء بخصوص حقوق الأجانب .

يكفل الإسلام حقوق الإنسان من خلال نظام قانونى شامل يحقق العدالة الاجتماعية ، ومن وجهة النظر الغربية لحقوق الإنسان ، نجد الإسلام يضمن أهم ما فيها ، ومنذ ألف وأربعمائة سنة[١٨١] :

* حماية النفس والجسد .
* حرية الاعتقاد والعمل .
* المساواة بين الناس وعدم التفرقة العنصرية .
* حماية المال الخاص .
* حرية الزواج .
* حق الدفاع القانونى عن النفس .
* البراءة هى الأصل حتى تثبت الإدانة .
* لاتطبق عقوبة قبل الإعلان عنها .
* الحماية من التعذيب .
* حق اللجوء السياسى .

أما أهم الاختلافات ، فيمكن حصرها فى التالى :

١ ـ تتضمن المواثيق الأوروبية لحقوق الإنسان بما فى ذلك الصادرة فى ٤ نوفمبر ١٩٥٠ المماثلة التامة بين الرجل والمرأة ، وبالتالى المماثلة التامة بين حقوقها أمام القانون وفى الزواج .

بينما يرى الإسلام أن هناك فروقا بين الرجل والمرأة ، وبالتالى لكل منهما دوره ومسئولياته المختلفة والمتكاملة مع الآخر ، ويرفض اتباع ذلك الفكر الخيالى القائل بتماثلهما (*) . (انظر الفصل التالى) .

٢ ـ طبقا للقانون الإسلامى إذا غير المسلم دينه فإنه لايرث أقاربه المسلمين ، ويفسخ زواجه من المسلمة وليس هناك نص قرآنى بقتل المرتد (**) (١٨٢) .

(*) عندما يقبل الفكر الإنسانى المماثلة التامة بين الرجل والمرأة ، قبل بالتالى ـ بنفس المنطق ـ الفكر الشذوذى فى زواج الرجال وزواج النساء ، واعترفت به كثير من الدول وأصبح يتم فى الكنائس .

(**) عندما يخرج المسلم من دينه ، فهو بالتالى يخرج من الأمة الإسلامية ، فتنقطع الروابط التى تجمعه مع الأمة بكل من صلاحياتها ومسئولياتها ، أى حقوقه وواجباته . وهذا مثل ما يغير أحد جنسيته ، فإنه يفقد حقوق وواجبات الجنسية . ومسألة قتل المرتد مسألة خلافية ، وهناك فرق بين من ارتد وعادى الإسلام ، وذلك الذى لم يعاده .

٣ ـ ليس لغير المسلم فرصة متساوية مع المسلم فى المجال السياسى ، ولكن ذلك فى حالة واحدة فقط : أن يكون هدفه رئاسة الدولة (*) .

وهو هنا ليس فى وضع أسوأ من الأمريكى الذى ولد خارج أمريكا .

٤ ـ بعض أخطاء العدالة لايمكن تصحيحها ، مثل عقوبة الإعدام مثلا ، ولذلك ترغب بعض الدول فى إلغائها تماما ، خاصة بعد أن أسىء استخدام تلك العقوبة مئات الآلاف من المرات خلال فترة حكم النازى والحكم الشيوعى . ولكن لاينضم إليهم العالم الإسلامى فى ذلك ، فالقصاص بالقتل ثابت فى القرآن لثلاث جرائم : الخيانة العظمى ، القتل ، ومحاربة الله ورسوله والفساد فى الأرض ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ...** ﴾ (المائدة ـ ٣٣) .

ولكن لكل هذه الجرائم حالات استثنائية يمكن العفو فيها عن عقوبة الإعدام ، طبقا للظروف (**) .

٥ ـ مشكلة أخرى ـ فات وقتها والحمد لله ـ وهى الرق . فالذين حاربوا الجيوش الإسلامية ووقعوا تحت الأسر ثم الرق ، كفل لهم الإسلام حقوقا وليسوا متاعا كما نص القانون الرومانى . وقد دعت نصوص كثيرة فى القرآن والسنة إلى حسن معاملتهم ، إن لم يكن إعتاقهم .

وتطفو على السطح بقايا للرق فى موريتانيا وأجزاء أخرى من العالم ، ولكن لايوجد مسلم جاد يريد عودة الرق ، ولا يوجد ما يمنع الدول الإسلامية من شجب الرق نهائيا كما جاء فى المادة الثامنة من إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان ، والمادة الرابعة من الميثاق الدولى للحقوق المدنية والسياسية .

نخلص من كل ما سبق بأنه لا توجد متناقضات أساسية فى حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب ، بل يمكن القول بأن الإسلام مُكمل للنظام الغربى فى ذلك الخصوص .

(*) وهل هناك فرصة لمسلم أن يصبح رئيسا لأمريكا أو فرنسا ، أو دولة الفاتيكان أو دولة إسرائيل ؟ أو أن يحكم البلاد الرأسمالية شيوعى ، أو البلاد الشيوعية رأسمالى ؟

(**) وضع الإسلام ضوابط كثيرة للحكم بالقتل ، ليس هنا مجالها ، ولكن نذكر هنا ثلاثا منها : حق أهل القتيل فى العفو ـ ادرءوا الحدود بالشبهات ـ لئن يخطئ الإمام فى العفو خير من أن يخطىء فى العقاب .

هوامش الفصل الخامس عشر

(١٨٠) لم يحظ الإعلان عن حقوق الإنسان فى الإسلام بنجاح قاطع فى الوقت الحاضر ، انظر على سبيل المثال « نموذج الميثاق الإسلامى » إسلام أباد ١٠/ ١٢/ ١٩٨٣ ، « الإعلان العام لحقوق الإنسان» الصادر عن « المجلس الإسلامى فى أوروبا » ١٩٨١ ، « إعلان حقوق الإنسان فى الإسلام» الصادر عن « منظمة الدول الإسلامية » القاهرة ٥/ ٨/ ١٩٩٠ ، وانظر أيضا ليوسف شاخت « مقدمة للقانون الإسلامى » أكسفورد ١٩٦٤ ، سعيد رمضان « القانون الإسلامى » فيسبادن ١٩٧٩ ، عبد الرحمن أ. ضوى - « الشريعة - القانون الإسلامى » لندن ١٩٨٤ ، عصام ك . سالم - « الإسلام والقانون العالمى » برلين ، هانز كروس « القانون العالمى الإسلامى » الطبعة الثانية بوخوم ١٩٧٩ .

(١٨١) من أكثر ما يذهل المستشرق فى القرآن ، تفصيله الدقيق لحماية الأقليات من أهل الكتاب فى المجتمع الإسلامى ، وفى ذلك الدليل الساطع على سعة هذا الدين وتسامحه .

(١٨٢) كان المرتدون فى العصور الوسطى يُعاملون معاملة الخونة ، ويتم إعدامهم طبقا للآية ٣٣ سورة المائدة .

الفصل السادس عشر

المرأة فى المجتمع

فى تأريخه الشاعرى الرقيق لـ « حياة محمد » ، وصف « فيرجيل جيورجيو » مكانة المرأة عند عرب الصحراء :

للمرأة عند العربى مكانة لا يحظى بها أى شيء آخر فى الوجود . . فهى النعومة الوحيدة فى خشونة الصحراء . . . هى البساتين والأزهار ، والفواكه والأنهار . . هى ينابيع الربيع وعطر الأعطار .

المرأة عند العربى فى الصحراء هى كل جمال وروائع الكون !

هل يمكن لمثل هؤلاء الناس ـ قبل أن يصبحوا مسلمين ـ أن يحتقروا المرأة؟

يتألف القرآن من مائة وأربع عشرة سورة ، الرابعة منه هى سورة النساء ، وليس هناك سورة للرجال . تبين تلك السورة حقوق النساء . تبين أول آيات السورة أن البشر كلهم مخلوقون من نفس واحدة ، فلا مجال لتميز الرجال على النساء ولا النساء على الرجال . ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وبث منها رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾ .

نزلت الشريعة الإسلامية للعالم كله ، بأجناسه المختلفة ، رجالا ونساء . فطبقاً للقرآن خُلق الرجال والنساء لنفس الغرض ، اشتركوا فى التكاليف ، التى تأهلوا لها ، يتعرضونَ لنفس السنن الكونية ، وسيحاسبون فى الآخرة بنفس المقاييس .

هل يمكن القول بأن مثل هذه الشريعة تعادى المرأة ؟

بلا شك ، لعبت المرأة دوراً هاماً فى حياة رسول الإسلام ، ورفعها لأعلى مواضع التقدير ، ولايعارض فى ذلك حتى أشد أنصار المرأة تحمساً ، كفاطمة المرنيسى [١٨٣] ويعرف الجميع كيف كان يعشق زوجته الصغيرة الذكية عائشة . ولكن ما لا يعرفه الكثيرون أنه أحب زوجته الأولى خديجة حباً كبيراً ظل يملأ قلبه بعد وفاتها ، حتى إن عائشة ـ التى تزوجها بعد وفاة خديجة بسنوات ، والتى لم تر خديجة فى حياتها ـ كانت

تغار منها . وإنه لم يتزوج امرأة أخرى مع خديجة ، التى عاشت معه ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً . ومن السهل على المرء أن يستنتج بعد ذلك أن زواج محمد فى آخر حياته كان له الكثير من الدوافع الدينية والإنسانية والسياسية (١٨٤) ، خاصة أن تلك الزيجات تمت وهو بين الثالثة والخمسين والثالثة والستين .

هل يمكن تخيل أن مثل هذا الرجل صبغ رسالته بكراهية النساء ؟

ومع هذا فالكليشيه المرفوع فى الغرب أن المرأة فى الإسلام مستبعدة مستذلة ، لا يُسمح لها بممارسة طاقاتها ومواهبها ، فهى مُسلسلة لحوض المطبخ . وذلك الفهم الخاطىء هو العقبة الكبرى لانتشار الإسلام فى العالم الغربى .

ولكن لا دخان بلا نار . . فلا ينكر أحد تسلل كثير من العادات والأعراف والأفكار والمفاهيم الدخيلة - فيما يخص المرأة - إلى الإسلام . ولا عجب فى تنبه العلماء لذلك ونشرهم فيضا من المؤلفات لتوضيح المسألة . (١٨٥) وعلينا التنبه للفروق بين :

* الإسلام والعادات والأعراف .
* الإسلام كدين إلهى والإسلام كحضارة تفاعل فيها البشر مع الإسلام .
* الإسلام كنظرية ، والإسلام كتطبيق بشرى .

وكنقطة بداية ، يجب أن نعترف بواقع تمييز الرجل عن المرأة فى العالم كله .

أكدت سيلفيا آن هيوليت فى كتابها «الحياة الأدنى - خرافة تحرير المرأة فى أمريكا» (١٩٨٦) . إن النساء فى أمريكا مازلن يكسبن ٦٤٪ مما يكسبه الرجال ، وحتى السويد فالنسبة ٨١٪ .

وما زال تفضيل المواليد الذكور عن الإناث فى كثير من أنحاء العالم - مثل الصين وأمريكا اللاتينية - وليس العالم العربى فقط . الأمر الذى أنكره القرآن الآية ٥٨ سورة النحل وأتى به بين آيات تصف أعمال الكافرين .

ويمكن بسهولة رؤية اختلاف مظهر ودور المرأة داخل العالم الإسلامى نفسه . انظر فقط للحجاب وزى المرأة لترى الاختلاف من بلد إلى بلد ، بل من القرية إلى المدينة فى نفس البلد . فبعد فجر الإسلام ، سرعان ما توالت القيود - اللا إسلامية (١٨٦) - على المرأة ، وماتزال حتى اليوم ترى كثيراً منها ، ولذلك يجب فصل ما هو إسلامى عما هو غير إسلامى فى حالة المرأة المسلمة ، وسنتناول مسائل : الزواج - الحياة العائلية - الطلاق - الملبس - قانون المواريث - الشهادة فى المحكمة .

قد توافق الشابة المسلمة على الزواج بالصمت عند سؤالها ، وذلك دفعاً للحرج عند بعض الفتيات الصغيرات ، رغم أن القانون الإسلامى ـ مثله مثل القانون الرومانى ـ لا يعتبر السكوت موافقة . وبالطبع لا يعنى هذا الحفظ للحياء أن الإسلام يقر زواج الفتاة ضد رغبتها (*) .

يجوز للرجل المسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، ولكن لا يجوز للمرأة المسلمة أن تتزوج إلا مسلما ، الحكمة بسيطة وواضحة ، ففى الإسلام ، الزوج هو رب العائلة ، ويمكنه تربية أولاده تربية إسلامية ، ويحيا وأسرته كلها حياة إسلامية ، الأمر غير المضمون إذا لم يكن الأب مسلماً .

تتزوج المسلمة زوجاً واحداً ، والمنطق فى ذلك متعدد الجوانب ، منها حفظ الأبوة بمنع اختلاط الأنساب [وعدم موافقة تعدد الأزواج لدور المرأة وطبيعتيها النفسية والعضوية] ، ويجوز للمسلم أن يتزوج حتى أربع زوجات بشروط معينة .

وربما لصعوبة هذه الشروط ، اختفى تقريباً تعدد الزوجات من عالم اليوم .

والمنطق فى ذلك أيضاً متعدد الجوانب ، منها أن تكون الزوجة مريضة نفسياً أو عضوياً ومنها انخفاض نسبة الرجال للنساء بسبب الحروب أو غيرها .

ويمكن القول بالميل الباطنى فى القرآن للزوجة الواحدة [١٨٧] ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة...** ﴾ (٣ ـ النساء) .

إذن يجوز التعدد تحت شرطين :

* إن استطاع المرء أن يعدل بين اليتامى مادياً ونفسياً ، على سبيل المثال بأن يتزوج أرملة ذات أطفال .

* إن استطاع أن يعدل بين زوجاته ، ليس فقط مادياً [وينشئ الأسرة الإسلامية الراضية السعيدة] .

وبالطبع لن يتحقق ذلك إذا رفضت زواجه ثانياً الزوجة الأولى ، سواء بشرطها ذلك عند الزواج أو عند إقدام الزوج على الزواج الثانى .

(*) بل إنه يجوز للمرأة المتزوجة برضاها أن تطلب الطلاق من زوجها حتى لو لم يكن به ما يعيب ، ولم يكن يسئ معاملتها ، لمجرد أنها لا تسعد بعشرته ، وقد طلق الرسول إحدى الصحابيات لذلك ، وكذلك فعل عمر .

ويقول القرآن بوضوح فى الآية ١٢٩ من نفس السورة ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم .. ﴾ .

ويحذر مراراً وتكراراً من خداع النفس ، مع تأكيد ﴿ .. واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ (١٨٨) .

من يعى ما سبق ، يستنتج أن تعدد الزوجات كما مارسه كثير من السلاطين والأمراء ، العظماء منهم والصغراء ، لم يكن من المسائل التى أقرها القرآن ، بل كثيرا ما كان هوائيا اعتباطيا ، لا إنسانيا ولا إسلاميا . بل إنه لا يمكننا إلا التأكيد على أن تعدد الزوجات يمكن تبريره فقط عند الحاجة الحقيقية إليه ، وعندما تقبله الزوجة نفسياً . وفى تلك الحالات الضرورية ، تجد فى الواقع نساء عصريات مثقفات - نشأن وتربين فى الغرب - يقبلن هذا التعدد برضا نفسى ، منهن الأمريكية مريم جميلة التى اعتنقت الإسلام بعد اليهودية .

وعلى أى حال ، كما تغيرت النظرة للتعدد بين المسلمين ، تغيرت عند الغرب ، فلم يعد ذلك الأمر اللا أخلاقى ، حتى أمام القانون الألمانى ، فقد قالت المحكمة الفيدرالية العليا فى القضية رقم (Azic, 33.81) : ليس اتخاذ زوجة ثانيا عملا لا أخلاقيا . ونشرت ذلك جريدة فرانكفورت الجماينه فى عدد ٣ مايو ١٩٨٥ صفحة ٧ . وباختصار ، لن يكون التخلى الكامل عن تعدد الزوجات أمراً غير مقبول فقط ، بل هو أيضا قصير النظر (*) .

تقابل الحياة الزوجية فى كل العالم مشكلة : ما العمل إذا اختلف الزوجان فى مسألة معينة ؟ لن يمكن أخذ القرار بأغلبية الأصوات ، هناك حلان ممكنان : إما أن يكون

(*) فى استطلاع حقائق ميدانى نشرته مجلة نيوزويك الأمريكية فى عددها الصادر فى ٢٦/ ٤/ ١٩٩٣ ، أنه لكل رجل شمله الاستطلاع علاقة غير شرعية بـ ٣,٧ امرأة فى المتوسط ، وكثير من البلاد الأوروبية تنشر بيانات مشابهة .

ومنذ سنوات قليلة ، أذاع التليفزيون الأسترالى حلقة - مسلية حقاً - عن استرالى (مسيحى أبيض) له أكثر من عشر عشيقات يعيش معهن فى منزل واحد ، وأضعاف هذا العدد من الأبناء ، طالب فيها الرجل الحكومة الاسترالية بزيادة إعانته !

وعلى غير الشائع ، الإسلام هو الدين الوحيد الذى حدد عدد الزوجات ، فلا حد لهن فى اليهودية وفى المسيحية ، ولا يوجد نص واحد صريح بتحديد عدد الزوجات لا فى العهد القديم ، ولا فى الأناجيل الأربعة التى بين أيدى المسيحيين .

لأحد الطرفين صلاحية القرار ، عموماً ، أوفى مجالات خاصة ، أو ما يشبه حق الفيتو - وهذا هو الحل الإسلامى - والحل الثانى أن تنقل مشكلة الزوجين العائلية برمتها إلى مجلس العائلة الكبيرة ، أو موظفى السجل المدنى ، أو حتى المحكمة .

واستخدم الغرب الحل الثانى ، مع ما فيه من مهانة وسخافة ، حتى وصل الأمر لأن يلقى موظف السجل المدنى الزهر لكى يقرر اسم العائلة الذى تحمله العروسة بعد الزواج .

اختار الإسلام بوضوح أن يُبقى حل المشكلة داخل العائلة ، ويجعل للزوج صلاحية القرار **﴿... ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ..﴾** ٢٢٨ - البقرة ، **﴿..الرجال قوامون على النساء.. ﴾** ، ٣٤ - النساء .

لا ينطبق هذا على تربية الزوجة لأطفالها الصغار ، أو رعاية أموالها وممتلكاتها الخاصة . وقد تمتعت المرأة المسلمة بملكيتها الخاصة منذ ١٤٠٠ سنة ، بينما لم تحصل المرأة الأوروبية على ذلك - إن كانت قد حصلت عليه - إلا فى منتصف القرن العشرين .

يعتبر الإسلام الأمومة وتربية الطفل أنبل وأكرم أدوار المرأة ، وترفعها قدرتها على حمل الحياة فى بطنها لمقام سام ، فقال الرسول عن الأم «الزمها فإن الجنة تحت قدميها» .

أليس من الأهمية بمكان أن تأمر الشريعة بجلد من يقذف المحصنات الغافلات ثمانين جلدة ؟ - الآية الرابعة - سورة النور .

يقرر المسلمون بأن حياة الجنين ليست ملكاً لأمه - حتى لو كان بطنها ملكا لها - كما تقول نساء الغرب . لا يرفض الإسلام تنظيم المواليد لأسباب عائلية أو ضرورات اجتماعية قومية ، ولكنه يرفض الإجهاض **﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق..﴾** (٣٣ - الإسراء) .

لا يفرق الإسلام بين الدين والدنيا ، فالزواج مسألة دنيوية أمر بها الدين لكل قادر عليه ، ولذلك يرفض الإسلام العزوبية والرهبانية ، ويراهما المسلمون تأويلا خاطئا للشريعة السابقة .

عقد الزواج غير محدد بمدة عند المسلمين [باستثناء الشيعة فى زواج المتعة] ، ويحرص الشرع على حمايته واستمرار نجاحه واستقراره . ومن الناحية الأخرى ، يحرم الإسلام تحريماً تاماً أى علاقات جنسية خارج الزواج **﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾** ٣٢ - الإسراء ، وكذلك الشذوذ الجنسى **﴿ ولوطاً إذ قال لقومه**

تأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾ ٨٠ ـ ٨١ الأعراف ، ﴿ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾ ٥٥ ـ النمل كذلك كره الشرع الطلاق إلا فى حالات الضرورة . وسيتحدث الفصل التالى عن ملابس الرجال والنساء .

ويُساء فهم الاحتياط الأخير الذى أوجده القرآن لحماية الزواج ، فيقول ـ بإطلاق ـ إن القرآن يأمر بضرب الزوجات ﴿ ... واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا .. ﴾ ٣٤ ـ النساء .

يوافق الشرع على ذلك إذا كان فيه إنقاذ للزواج إذا هدده نشوز فى غير محله للزوجة ، وإطفاء لغضب الزوج بدلاً من أن يطلق زوجته ، فالطلاق ـ كما هو مشهور ـ أبغض الحلال عند الله . وقيد الرسول الضرب بأن يكون غير مبرح ، أى غير مؤلم ، فهو أشبه بالضرب الرمزى ، وغضب غضباً بالغاً لما اشتكت له بعض نساء المدينة ضرب أزواجهن لهن (١٨٩) . واتفق المفسرون أن ذلك يشبه ضربة خفيفة بمنشفة أو مروحة يد أو مثل ذلك [ولا ننسى حديث الرسول المشهور : خياركم خياركم لأهله] (*) .

ولكن يبقى الطلاق آخر الحلول إذا استحالت العشرة ، وهو متاح لكل من الزوج والزوجة ، مع فارق فى الإجراءات القانونية . فإذا عزم الرجل الطلاق ، فما عليه إلا

(*) ما أشبه التأويل الفاسد لما نص عليه القرآن بشأن ضرب الزوجات بالقول إن دولة ما ـ وهذا ينطبق على كل الدول تقريباً ـ تبنى الجيوش وتسلحها لقتل الناس ، أو إنها تُسَلِّح رجال الشرطة لقتل المواطنين ، أو إنها تبنى السجون لتحبس المواطنين . فالإطلاق والتعميم فى كل تلك الحالات يؤديان لفهم خاطىء .
والزوجة التى أمر القرآن بضربها هى تلك التى تتمرد على زوجها بدون وجه حق والتى من صالحها استمرارها مع زوجها ، والتى يؤدى ضربها ـ بالشكل الهين اللين الذى أمرت به السنة ـ لرجوعها لرشدها ، فلم يضرب زيد بن حارثة زوجته زينب بنت جحش ، ولا أمره الرسول بضربها ، وقربهما من بيت الرسالة معروف .
ومن ناحية أخرى ، ألا يقبل كل فرد فى كل دولة أن تحاسبه الدولة وتحاكمه وتعاقبه على سوء أفعاله ، أفيقبل الفرد ذلك من الدولة والمجتمع ، ثم يأبى ذلك الحق والسلطان على كبير العائلة فى عائلته ؟
وفى دراسة أمريكية طريفة نشرتها أخبار اليوم فى شهر ٦/ ١٩٩٤ عن مراسلتها فى أمريكا مها عبد الفتاح : الإحصائيات الرسمية تقول إنه كل ٣٦ ثانية تُقتل امرأة على يد رجل تربطها به علاقة ما ، وكل ١٥ ثانية هناك امرأة فى مكان ما فى أمريكا تنال علقة على يد رجل ، ويصل أمرها إلى البوليس أو إلى المستشفى ، غير ما يصل ٢. مليون حالة ضرب مبرح من رجال لنسائهم فى العام تصل فيها ٢٥٠٠٠٠ حالة للمستشفى ، منها ٣٠٠٠٠ رأسا للعناية المركزة .

أن يقول ذلك لزوجته (*)، ولا يسترد شيئاً من المهر . أما إذا أرادت المرأة الطلاق ، فهى تطلب ذلك من زوجها ، فإذا رفض فمن حقها أن تذهب للقضاء (**) ، وعليها التنازل عن مهرها .

ينظم القرآن المواريث ، فيرث الابن ضعف ما ترثه الابنة [ليس فى كتب اليهود ولا المسيحيين ما يكفل للابنة ميراثاً] والمنطق فى ذلك واضح ، فالشقيق مسئول عن شقيقته بعد وفاة والدهما . فاختلاف المسئوليات يستوجب اختلاف الصلاحيات والسلطات .

وأخيراً ، فى قضايا الديون أمام المحاكم ، تصح الشهادة إما برجلين ، أو رجل وامرأتين ، وقد علل ذلك بعض الفقهاء بأن المرأة معرضة فى أيام معينة من الشهر للاضطراب (***) .

هذه هى الأحوال الخاصة لتطور المرأة فى الإسلام ، لم تُعق تلك الأحوال ـ بأى شكل ـ دور المرأة فى الإسلام ، هذا الدور ـ الذى لم يُكتب كَما ينبغى ، برغم محاولات فاطمة المرنيسى ـ يُمكن له أن يبدأ بعائشة حافظة القرآن وراوية الحديث الحصيفة [ومن أفقه وأذكى الصحابة] والتى كان لها دور فعال فى الأزمة بعد عثمان . ويُفصِّل مثل هذا التاريخ حياة رابعة العدوية زاهدة البصرة الشهيرة (٧١٣ ـ ٨٠١) ، وبعض زوجات الخلفاء مثل الخزيران وشجرة الدر اللتين قامتا بأعباء الحكم(١٩٠) .

أخشى ألا يلقى هذا الفصل تفهماً كاملاً من القراء الغربيين ، فهو لا يوافق العصرية . فأى دور يمكن أن يلعبه نظام أخلاقى لممارسة الجنس فى عالم أنكر كل مقدس ، تتزايد فيه يوماً بعد يوم الماسونية السادية والاعتداء الجنسى على الأطفال .

(*) عند الشيعة الإمامية ، يجب أن يتم الطلاق فى حضور اثنين من الشهود العدول ﴿ .. وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ (٢ ـ الطلاق) ، وبهذا يمتنع طلاق الغضبان ويقل طلاق الطائش المتهور ، فإحضار الشاهدين العدلين يستغرق وقتاً ، بالإضافة لما يمكنهما فعله من وساطة وشفاعة .

(**) فى هذا أيضا إعطاء مهلة من الوقت للمرأة حتى تتروى ، وتزول عنها فورة الغضب والانفعال والعاطفية ، فإذا أصرت ، كان فى ذلك دافع للزوج أن يطلقها فهى تلجأ لولى الأمر فى صورة القضاء لتفارق زوجها ، وجاء فى الشرع نصوص كثيرة بمعنى ﴿ .. فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ (٢٣١ ـ البقرة) وقال الرسول لا ضرر ولا ضرار .

(***) وفى النهاية ـ بل فى البداية ـ من ذا الذى يريد أن يزج بزوجته أو ابنته أو أخته فى المشاكل المالية وخلافاتها وتبعاتها ، ومن الذى يريد لها الذهاب للمحكمة ؟ وفى غير تلك المسائل ، يأخذ الإسلام بشهادة النساء فقط فيما هو أهم من المال ، ففى النسب يكتفى بشهادة النساء .

ما جدوى تكريم الزواج فى وقت يتزايد فيه عدد النساء اللاتى يقررن الانفصال عن أزواجهن والانفراد بتربية أولادهن ؟ ما تأثير منع الإسلام للإجهاض فى وقت أصبح فيه الإجهاض مباحا حتى فى أى شهر من شهور الحمل ؟ وما فائدة الكلام عن الزى الإسلامى فى الوقت الذى تعرض فيه شاشات التليفزيون مسلسلات العرى والإثارة الرخيصة البلهاء ؟

بالطبع تبدو الحياة الإسلامية اليوم كما لو كانت من كوكب آخر . . حياة تصطدم بما يسمى العالم الحديث ، لا أدريته . . قيمه . . كل شئ يجوز . . . وما إلى ذلك . . ولكنها الحياة البديلة . . بديلة بمشروع أبدى لا يبلى ولا تنقضى صلاحيته ، وإذا رآه البعض قديماً ، فهو أيضا حديث ومستقبلى فلا يحده زمان ولا مكان .

وفيما يخص هذا الفصل ، فحقائق هذا المشروع الخالد :

* المرأة مختلفة عن الرجل بيولوجياً وجسدياً ومن ثم نفسياً .

* تكمن سعادة الرجل والمرأة فى اختلافهما .

* يجد الحب الحقيقى بين الرجل والمرأة ، ثم بينهما وأطفالهما ، المجال الصادق فى الزواج .

* فكرة الجنس بلا قيود ، التى سادت وتسلطت ، تدمر الفرد وتدمر المجتمع .

وعلى أى حال ، فإننا الآن نشاهد بوادر الشك فى الثورة الجنسية والنسائية ، وأجبر الإيذر الناس على إعادة التفكير فى الجنس بلا قيود . وتعبر كثيرات من الجيل الأول للمديرات فى أمريكا عن أسفهن لتفضيلهن العمل على العائلة وإنجاب الأطفال ، واستبدالهن الأخوة النسائية بالأمومة . وبدأت المناقشات والجدل فيما إذا كان تقليد الرجل يؤدى لتحرير المرأة !

وعادت بين الطلبة فى أوروبا العلاقات الهادئة بين الطلاب والطالبات (١٩١) .

وفى كتابه « الانحراف الجنسى » أطلق فانسى باكارد الأمريكى عام ١٩٦٨ مصطلح غابة الجنس على الثورة الجنسية فى أمريكا . وعندى أن البندول عائد لا محالة للوسط ، والتساؤل الوحيد هو متى ؟

وباختصار ، الإسلام يتمسك بالزواج ، يؤسسه ويحافظ عليه ، ويبنى ذلك على

الفرق الذى لا يُنكر بين الرجل والمرأة . كل منهما له تكوينه وإمكانياته وله دوره المتمم للآخر . هما متساويان أمام الله ولكن ليسا متماثلين .

هل هذا يوافق العصرية أو الحداثة ؟

ليس هذا بالسؤال المناسب . . فالإسلام ليس موجة فكرية ولا موضة ، ويمكنه الانتظار .

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .. ﴾ (٥٣ ـ فصلت) .

هوامش الفصل السادس عشر

(١٨٣) فاطمة المرنيسى ـ « النساء فى الإسلام » أكسفورد ١٩٩١ .

(١٨٤) طبقاً للقرآن ، كان للرسول أكثر من أربع زوجات [والزواج فى الإسلام ليس قصة حب فقط ولكنه نواة المجتمع ، وهو نسب وصهر بالمعانى الكاملة للكلمتين كما جاء فى القرآن الآية ٥٤ سورة الفرقان] .

(١٨٥) انظر أولا فهرست الأعمال الإسلامية للمؤسسة الإسلامية فى ليستر ـ بريطانيا ، والذى ينشر ٤ مرات فى السنة مع نشرة كتاب العالم الإسلامى ، ومن الأعمال الألمانية ، نذكر هنا فقط ما جاء فى مجلة الإسلام ـ ميونيخ : عائشة ليمو : « النساء فى الإسلام » ٣ ، ٤ ، ٥ / ١٩٨٨ ١/ ١٩٨٩ .

فاطمة جريم : « حياة النساء فى الإسلام » ٣/ ١٩٨٩ ، « آسية ظليل أوجلو ـ كوهلر » : « فرصة للنساء » ٤/ ١٩٨٦ .

وباللغة الإنجليزية :

عبد الرحمن ضوى ـ « النساء فى الشريعة » نيجيريا ١٩٨٣ ، فتحى عثمان ـ « المسلمون وقانون الأحوال الشخصية فى الهند » ـ مجلة عربية ، لندن مارس ١٩٨٦ أنون ـ « الحقوق القديمة للمرأة المسلمة » ـ مجلة عربية ، لندن يولية ١٩٨٥ .

وباللغة الفرنسية :

رباح إسلامبولى ـ « المرأة فى الإسلام » ، مجلة المجاهد الجزائرية ٢ ، ٣ / ١٩٩٠ ، « المرأة فى القرآن » ، هوريزون ٩/ ١٠ مارس ١٩٩٠ .

(١٨٦) انظر مرجع فاطمة المرنيسى السابق ذكره .

(١٨٧) محمد أيوب مولباور ـ « الرجل والمرأة فى الإسلام» ، مجلة الإسلام العدد ٢/ ١٩٨٩ صفحة ١ ـ ٩ .

(١٨٨) ٢٣٣ ، ٢٣٧ سورة البقرة ، ٢٩ ، ١٨٠ آل عمران ، ١ ، ٥٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٥ النساء ، ٧ المائدة ، ٥ هود ، ٧ الزمر ، ٦ الحديد ١٣ الملك .

(١٨٩) انظر ما كتبه محمد أسد فى « رسالة القرآن » بتفصيل دقيق فى الهامش ٤٥ للآية ٣٤ سورة النساء .

(١٩٠) فاطمة المرنيسى ـ الدار البيضاء ١٩٩٠ .

(١٩١) انظر « هيلتون كرامر » ـ « الخوف من الجنس » فرانكفورت الجماينه ٣/ ٩/ ١٩٨٦ ، « جون ليو» ـ « الأمومة ضد الأخوة النسائية » تايم الأمريكية ، نيويورك ٣١/ ٣/ ١٩٨٦ صفحة ٤٣ ، تسيلفيا آن هيوليت ـ « الحياة الأدنى : خرافة تحرير المرأة فى أمريكا » نيويورك ١٩٨٦ .

الفصل السابع عشر

الشّرق المحتجب

برغم الحروب التى خاضها الغرب ـ خلال قرون عديدة ـ ضد العالم الإسلامى ، فى الشرق الأوسط ، البلقان ، الأندلس ، شمال إفريقيا ، الهند ، واستعماره لكثير من البلاد الإسلامية ، فإنه لم يحاول معرفة الإسلام إلا على فترات متقطعة ، وبطريقة انتقائية منحازة . ويشهد على ذلك التاريخ المؤسف للترجمات الأوروبية للقرآن .

جرت محاولات فردية جادة لفهم أو تبنى العالم الآخر للفكر ، قام بها فرانسيس الأسيسى ، ريموند لولو ، ولكن لم تثمر مع التجسيد الشائه المسخوط الذى نحته الغرب للإسلام حتى القرن التاسع عشر .

وظل الشرق محتجباً غامضاً !

ثم جاء العصر العظيم للمستشرقين ، الذين عكفوا منذ القرن الماضى على بحث الإسلام بطريقة علمية أقرب للتعاطف منها للعداء ، وساهم فيها بالنصيب الأعلى العلماء الألمان أمثال كارل بروكلمان ، هايز هالم ، ألفريد فون كريمر ، ف . أوجست مولر ، يتلمان ناجل ، رودى باريت ، جوستاف فايل ، وفهرس ثيودور نولدكه القرآن ، وفريدريش روكيت الذى ترجم القرآن إلى قصيدة شعرية ، ويوليوس فيلهاوس .

كذلك قدم المستشرقون الفرنسيون أبحاثا ممتازة ، يكفى أن نذكر منهم جاك بيرك ، ريجى بلاشير ، كلود كاهن ، هنرى كوربين ، لويس جارديت وهنرى لاوست .

وساهم من البلاد الأخرى تور آندرا ، ريتشارد بل ، فرانتس بول ، ايجناس جولدزيهر ، جوستاف فون جرونباوم ، فيليب حتى ، مارشال جى . إس هودجيسون ، سى . سنوك هرجونجى ، بى . جه فانيكيوتيس ، وليام مونتجومرى وات .

وَضَّحت ـ بصورة ملموسة ـ تلك البحوث صورة الإسلام عند الغرب ، بل وأمدت العالم الإسلامى بمعلومات هامة . ولكن مازال هناك ـ مثل سيرهاميلتون جيب ـ من يرى الإسلام بمنظار بعثات التبشير المسيحى ، ومثل ماكسيم رودينسون يرى الإسلام

بمنظار ماركسى ، بينما يجرى البعض الآخر أبحاثه فى ازدراء الإسلام ، وفى عجلة قبل أن ينقرض الإسلام وأتباعه! .

مارس أكثر العلماء أبحاثهم لخدمة المصالح الاستعمارية وإخضاع العالم الإسلامى للغرب، سواء كان ذلك بوعى أو بدون وعى ، وعمل قليل منهم عملاء سريين بكل معانى الكلمة ، مثلما كان ت . إى . لورانس .

جذب إدوارد سعيد ـ البروفيسور الأمريكى الفلسطينى الأصل ـ الانتباه عام ١٩٧٨ فى كتابه الأعلى مبيعاً «الاستشراق» (١٩٢) لهذه الظاهرة . حتى إنه قارن عداوة الاستشراق للعرب بعداوة الغرب [الظاهرة القديمة ، أو الظاهرة قديماً] للسامية . وعنه أن الاستشراق اختراع أوروبى لخدمة وحماية مصالح أوروبا وتطلعاتها لإحكام سيطرتها على الشرق ، بإسقاط وجهات نظرها على الشرق . حتى الباحث الدقيق لويس ماسنيون أشاد بالحلاج لما تخيله فيه من مسحة مسيحية .

بكل تأكيد ، كشف إدوارد سعيد عن جزء ليس صغيرا من الحقيقة ، ولكنه ركز بحدة على شخصيات سلبية مثل ريتشارد بيرتون ، فهناك فى القرن العشرين دراسات استشراقية لا تنظر للشرق باستعلاء ، ولا تستبعد أن يُعاود الشرق قيادة العالم حضارياً، فمازالت مقولة « يأتى النور من الشرق » صالحة .

وراء تلك الدراسات ـ التى صححت صورة الإسلام فى الغرب ـ علماء مسلمون أمثال : ليوبولد فايس (محمد أسد) ، فيتوس بوركاردت ، أحمد فون دنفر ، مارتن لنجز ، روجيه دوباسكويه ، محمد بكتال ، وأيضا علماء متعاطفون مثل : مارسيل بويسارد ، هنرى هسين ، دانيل ـ جيمازت ، جيل كيبيل وآنا ماريا شمل . بل إنهم أفادوا فى ذلك أكثر من بعض المسلمين الرحالة بين عالم الإسلام وعالم الغرب ، والذين اختارو لهم مكاناً لامع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، ولكن فى المنتصف ، مثل محمد أركون وبسام طيبى .

ومازالت الحاجة ماسة لأن تؤلف زيجريد هونكه كتباً مثل « الله ليس كذلك » (*) لتزيل لكثير من الأوروبيين عقدهم الاستعلائية تجاه العالمين العربى والإسلامى برغم معارض ممتازة مثل « أوروبا والشرق » فى برلين عام ١٩٨٩ (١٩٣)، وتخلصهم من

(*) نشرته دار الشروق مرتين ، أخراهما ١٩٩٦ .

أفكار أفلام ألف ليلة وليلة ، وإن الناس هناك قساة متعصبون ، غامضون لا يمكن فهمهم ولا توقع ماذا يفعلون ، وفوق كل ذلك فساق شهوانيون .

ولكن لا يتفق الحجاب الذى ترتديه معظم النساء فى الشرق مع تلك الصورة الشهوانية التى يريدها الغرب للشرق ، بل هو رمز للعفة والاستقامة وأخلاقيات الشرق، تلك التى لم يفهمها الغرب ، ولا يريد أبداً أن يقر بها للشرق. والحقيقة باختصار أن الشرق يُذكر الغرب بحشمة العصر الفيكتورى أكثر من ألف ليلة وليلة :

* لا يمارس الجنس فى طرقات الشوارع .

* لا يسمح بالفن الإباحى .

* نادراً ما تكون هناك علاقات جنسية قبل الزواج أو خارجه .

* نسبة الأولاد غير الشرعيين منخفضة تماماً بالنسبة للغرب .

* الغالبية العظمى من العروسات أبكار .

* لا تجد إعلانات تبادل الزوجات ، ولا نوادى العراة ، ولا زواج الشواذ ، ولا السكن المشترك بين الطلبة .

هذا هو الإسلام غير العصرى . .

وهذا ما يفخر به ، وعن حق .

يرتدى الرجال والنساء فى الإسلام زيا لا يثير ما لا يجب إثارته .

يرفض الشرق والغرب أن يمشى الناس عراة فى حياتهم اليومية . ويختلفان فى المدى الذى يجب تغطيته من الجسد .

وتختلف أزياء النساء فى العالم الإسلامى ، من جاكارتا شرقاً ، حتى المغرب .

ففى المغرب ، لا تغطى نصف النساء شعورهن ، ونصف ذلك فى المدن . وفى الجزائر ، منذ ١٩٩٠ تغطى أكثر النساء شعورهن ، وتغطى بعضهن أجزاء من وجوههن ، وبعضهن لا يتركن ظاهراً إلا عينا واحدة . تضع الفلاحة التركية - مثلها مثل أختها الفلاحة المسيحية فى حوض البحر المتوسط - غطاء رأس ، ولكنها لا تفكر فى تغطية وجهها كما تفعل المرأة فى السعودية - على الأقل قبل حرب الخليج - تغطية

مضاعفة أو أكثر . أما فى إندونيسيا فقد يصعب عليك معرفة المرأة المسلمة وسط نساء بالى (*) .

لعله من المفيد ـ خاصة بعد حرب غطاء الرأس فى فرنسا (١٩٤) ـ أن نبحث عما ينص عليه القرآن فى هذا الخصوص : ﴿ .. وإذا سألتموهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب...﴾ (٥٣ ـ الأحزاب) .

﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيماً ﴾ (٥٩ ـ الأحزاب) **﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن .. ﴾** (٣١ ـ النور) .

تختص الآية ٥٣ من سورة الأحزاب ـ آية الحجاب ـ بنساء النبى . ، والمناسبة التاريخية واضحة ، فبعدما أصبح الرسول رئيس الدولة [يأتيه أفراد الأمة لشئونهم المختلفة] ، فنشأت الحاجة للحجاب للفصل (**) بين شئون الدولة وبين خصوصية وحرمة عائلته ، الأمر الذى هو الآن روتين فى حياة كل سفير ، فمقر إقامته هو حرم خاص ، [وكل رئيس دولة] .

وقد تطور هذا الأمر فى بعض فترات التاريخ الإسلامى لمأساة ، حين فاضت قصور السلاطين بالحريم .

أما النصان الآخران ، اللذان يتعلقان بلباس النساء ، فمن الأهمية بمكان التنبه لأن النصين لا يأمران بأن تلبس المرأة أولاً غطاء للرأس أو حجابا ، ثم ثانياً تجذبه لأسفل ليغطى صدرها ، فالقرآن يفترض أن تلبس النساء من الأصل ما يغطى صدورهن .

(*) تجد فى إندونيسيا وماليزيا كثيرات من النساء والفتيات يلبسن غطاء الرأس أو الحجاب ، ويكشفن عن أجزاء من أذرعهن وأجزاء من سيقانهن .

(**) المقصود بالحجاب هنا الساتر أو الفاصل وليس الحجاب الذى يُرتدى ، وكما قال المؤلف فهذه خاصة بزوجات النبى ﷺ ، كما أنهن لا يتزوجن أحدا بعده .

فى الأزمنة القديمة ، كان يتم ارتداء ذلك من أعلى ، على الأقل فى البلاد الحارة المتربة ، ولم ينشأ ذلك تنفيذاً لأمر قرآنى . وتبين الآية ٣١ من سورة النور - والآية ٣٠ قبلها - الأمر بغض البصر ، فلا ينظر أى من الجنسين للآخر بطريقة إيحائية أو خارجة ، ويغطى كل جنس أعضاءه الخاصة .

كذلك بينت الآية أن على النساء ألا يكشفن إلا ما ظهر من زينتهن . ويبدو لى أن هذا التشريع معقول جداً ، فهو يأخذ فى الحسبان الاختلافات الكبيرة من عصر لعصر ومن ثقافة إلى ثقافة ، فيما هو مثير فى المرأة - باستثناء العورة والصدر - قد يكون هذا شعرها ، ولكن ليس حتماً شعرها ، فليس بين الرجال والنساء فرق جوهرى فى ذلك .

وبكلمات أخرى ، بخصوص حجاب المرأة ، يتتبع القرآن فى كل حضارة ما يثير الرجل فى المرأة ، ويأمر بستره ، ولذلك جاءت - عمدا - عبارة ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ غامضة ، ذات دلالة متغيرة ، لتلائم التغيرات الأخلاقية والاجتماعية (١٩٥) .

صاغ هذا إمام جامع باريس ، الشيخ تيجانى هدام فى حديث مع لموند بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٨٩ : يوصى الإسلام أن ترتدى المرأة زيا محتشما أولا لائقا [الكلمة فى الأصل الإنجليزى Decent] والأهم أن تغطى ما قد يكون أكثر جاذبية فيها ، شعرها . . ويعتمد ذلك على المحيط الاجتماعى .

طبقا للأقلية من العلماء ، يمكن تطبيق معنى التشريع فى الآية ٣١ من سورة النساء بدون تغطية الشعر ، كما فى شمال أوروبا وأمريكا ، حيث لا يمثل شعر المرأة إثارة خاصة للرجال . ولكن بالطبع لا يوافق الإسلام التقليدى على التجاوزات أو التساهلات لمقابلة الأحوال الخاصة فى حضارات إسلامية إقليمية (١٩٦) .

وعلى أى حال ، لا يمكن التخلى عن تغطية شعر المرأة فى أى مكان يكون لذلك الشعر تأثيره على الرجل ، وقد يكون سبب ذلك التأثير الممارسة التى لم تنقطع لتغطية شعر المرأة ، كما هو الحال فى مناطق مسيحية وإسلامية حول البحر المتوسط ، بحيث أصبح ذلك تقليداً دينياً منذ قرون .

تتعقد هذه المسألة عندما تصطدم الحضارات ، مثلما حدث فى فرنسا ، فقد عاشت عائشة وفاطمة وسميرة فى مجتمع إسلامى يرى بوجوب تغطية المرأة لشعرها منعا للفتن ، وهذا المجتمع الإسلامى داخل مجتمع لا يرى ذلك .

هذا هو الأساس العقيدى لظاهرة الحجاب ، والتزام بعض المسلمات به ، وتخلى

البعض الآخر (*) . للأسف ، ساعدت مشكلة الحجاب على تدمير الإسلام فى الغرب، فقد بنى [الإعلام] عليها انطباع أن الإسلام ديانة قانونية جامدة لا فكاك لها عن السياسة ، مع تسييس الأمور ، أو أن المسلمين يخلطون الشكل بالمضمون ، الغاية بالوسيلة ، روحياً وطقوسياً .

بل إن مسألة الحجاب أثرت داخل المجتمع الإسلامى نفسه ، حيث يميل الناس للحكم على المرأة كمسلمة بناء على ارتدائها أو تخليها عن الحجاب .

لعله من المناسب أن نختتم هذا الفصل بالتذكير بأن الحجاب ظهر قبل الإسلام فى مصر القديمة وبيزنطة وإيران بين سيدات الطبقة الأرستقراطية ، وحتى قريبا ارتدت الأوروبيات نوعاً من الحجاب (**) (١٩٧) بل إنه قريباً - حتى بداية القرن العشرين - سببت راقصة الباليه مارى تاجليونى فضيحة عندما جرؤت على الظهور على المنصة فى أوبرا باريس وحاشية ردائها الرومانسى قصيرة بوصات قليلة .

ولكنه من الأهمية بمكان أن نستمع لما تقوله الأوروبيات المسلمات اللاتى اخترن التحجب . تُجمع تلك السيدات أن السيدة الغربية أصبحت غرضاً جنسياً من خلال عمليات مستمرة من تقليص ملابسها ، وهى تحت ضغط مستمر لترتدى ما يجذب .

تريد تلك المسلمة الغربية المحجبة السلامة والطمأنينة فى الشارع . تحاول إرضاء ربها ، وتحاول فى نفس الوقت الخروج من حلقة الجنس المفرغة ، وتعيد كرامتها كامرأة تحافظ على نفسها لمن تتزوجه ، بدلاً من أن تظهر كامرأة توجّه الدعوات للرجال . إنها باختصار تقول للمجتمع : انظروا لوجهى وليس لساقىَّ !

بناء على ما سبق ، لا يمثل ارتداء الحجاب رجعة للبدوية القديمة ، بل هو رمز لاحتجاج اجتماعى على أسلوب الحياة المعاصرة فى الغرب .

(*) أضف لما ذكره المؤلف من آيات القرآن المجملة الخاصة بالحجاب - والتى فسرها بطريقة جديدة جريئة ذكية لكنها لا تسلم من النقد الجاد - أنه جاء فى سنن أبي داود حديث . إن المرأة إذا بلغت المحيض ، فلا يجوز أن يُرى منها سوى الوجه والكفين ، والعالم الآن قد أصبح كما يقولون قرية واحدة ، فتجد فى أكثر البلاد كثيراً من الجنسيات المختلفة بحضاراتهم وثقافاتهم .

(**) وترتدى الراهبات المسيحيات الحجاب ، بل إن بعضاً من اليهوديات الملتزمات يرتدينه ، وعلى مدخل أحد أحياء بيت المقدس القديمة لافتة تطلب من السائحات تغطية شعورهن وأذرعهن وسيقانهن ، ولن ترى صورة تخيلها فنان غربى أو شرقى للسيدة مريم إلا وهى محجبة . ويرتدى الهندوس عمامة خاصة . وارتدت كثير من نساء العالم البنطلون القصير الساخن والملابس الميكرو ، وارتدت النساء ملابس الرجال ، ولم ينزعج أحد ، ولكن لم يستطع العالم الغربى الديمقراطى الليبرالى أن يتجاوز فى مسألة الحجاب الإسلامى ، واعتبر الفرنسيون ذلك خطراً يهدد الشخصية الفرنسية .

هوامش الفصل السابع عشر

(١٩٢) « إدوارد سعيد » ـ « الاستشراق » نيويورك ١٩٧٨ ، وانظر أيضا « كارل أولريخ سيندرام » ـ في « أوروبا والشرق ٨٠٠ ـ ١٩٠٠ » ، جوترسلوه ١٩٨٩ ، صفحة ٣٢٤ .

(١٩٣) بينت التسعمائة وثلاث وعشرون صفحة من دليل المعرض الذى أقيم من ٢٨/ ٥ إلى ٢٧/ ٨/ ١٩٨٩ تأثير الإسلام فى تطور الفن الأوروبى ، ذلك التأثير المغفل ذكره .

(١٩٤) فى سنة ١٩٨٩ [على مشارف القرن الواحد والعشرين ، وفى فرنسا التى يُطلق عليها بلد النور والحريات ومثل ذلك . .] منُعت ثلاث فتيات مسلمات من دخول Gabriel - Hafez College فى سريل ، فى بداية العام الدراسى بسبب الحجاب ، وتلا ذلك نقاش قومى فرنسى فى تلك القضية على مستوى الرأى العام : هل تسمح العلمانية بالتجاوز فى أن تلبس تلك الفتيات الحجاب فى المدرسة أم تمنع ؟ تدخلت فى القضية زوجة رئيس الدولة الفرنسى ، وملك المغرب ورئيس المجموعة الأوروبية وكاردينال باريس . وأخيرا سمح وزير التعليم الفرنسى لعائشة وفاطمة وسميرة أن يرتدين الحجاب فى الفصل ، ولكن لا يرتدينه فى صالة الألعاب (الجمنازيوم) .

[ومن ضمن ما قيل فى هذه الحرب ، أن الحجاب يمثل خطرا على الشخصية الفرنسية] .

(١٩٥) اقرأ لمحمد أسد « رسالة القرآن » ، الهامش رقم ٣٧ على الآية ٣١ سورة النور . وللبروفيسور رباح الاسلامبولى ـ جامعة الجزائر ـ نفس الرأى فى هوريزون ٩ ، ١٠/ ٣/ ١٩٩٠ .

(١٩٦) يعتبرون ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ الوجه والقدمين فقط .

(١٩٧) انظر ـ من بين مراجع أخرى ـ رأى جزائرية من جيل المقاومة « نوريا علمى » « محجبات وسافرات » باريس ١٩٨٩ .

الفصل الثامن عشر

القانون الجنائى أو "رجم أميرة"

لم تكن هناك حاجة فى هذا الكتاب لفصل عن مسائل القانون الجنائى ، لو لم تنشر القوى المعادية للإسلام قصص الرعب التى تنسبها للإسلام الذى يتمتع بقطع الأيدى ورجم النساء .

مثل أى دولة أخرى ، للدولة الإسلامية الحق فى سن القوانين وعقوبة المجرمين - سواء كانت جريمتهم ضد الله أو المجتمع أو الفرد - مع الفارق الوحيد وهو أنه على قوانين الدولة الإسلامية أن تتفق مع الشرع الإسلامى .

يمكن تغيير القوانين التى يسنها البشر مع الزمان ، ولكن ليس من الضرورى أن يتفق ذلك مع موجة العصر [١٩٨] .

يضع القرآن الحدود الرئيسية التى تلتزم بها تلك القوانين البشرية ، وغنى عن القول إن ما تناوله القرآن بالتفصيل لا يجوز أن تُسن القوانين البشرية ما يخالفه . يعنى هذا أيضاً أنه إذا نص القرآن على عقوبة ، فلا يجوز أن يزيدها القانون ، وإلا كان تصحيحا بشريا لكلمات الله ! (ولكن واحسرتاه ! فقد حدث هذا فعلاً) .

فرض القرآن عقوبات دنيوية على ست جرائم ، مع أنه أدان كثيراً من الأفعال السيئة من القمار إلى أكل الخنزير - ولكنه توعد بالعقوبة عليها فى الآخرة .

والجرائم الست :

القتل [١٩٩] - قطع الطريق والسلب والنهب بالقوة (*) - الخيانة العظمى [٢٠٠] - قذف المحصنات [٢٠١] - الزنا [٢٠٢] - السرقة [٢٠٣] .

يُعاقب الشرع على الجرائم الثلاث الأولى بالقتل[والدية والعفو مشروعان] .

(*) ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ (٣٣ - ٣٤ المائدة) .

وجاء الحديث بعقوبة الرجم للجريمة الخامسة ، تحت شروط معينة . وتُعاقب السرقة بقطع اليد اليمنى [بشروط معينة ، والتعزير والعفو جائزان] .

النصوص القرآنية قليلة فيما يتعلق بقانون العقوبات ، ونصوص الإجراءات فيه أقل ، سمح هذا للتشريع الإسلامى الذى تقبل بروح إنسانية حقائق الحياة البشرية بالحرية الكافية لأن يمتص من التأثير الصارم للقانون بواسطة نظام متشدد فى الإجراءات مع فترات قصيرة جدا له للعمل . وهذا أحد أسباب الاختلاف بين النظرية والتطبيق فى الحياة القانونية للمسلم ، بين القرآن أن الشهادة هى الأدلة التى يعتمد عليها القانون الجنائى (اثنان فى مسائل المال وأربعة فى مسألة الزنا) .

وفيما يخص الزنا ، فقد طلب القرآن ما هو أقرب للمستحيل ، أربعة شهداء حسنى السمعة ، مع مخاطرتهم بأن يجْلدوا إذا لم يؤخذ بشهادة أحدهم ، بل وعقوبة الموت فى رأى قلة قليلة من الفقهاء (٢٠٤) .

بدهى أن يكون الاتهام بالزنا نادرا ، أضف لذلك أنه حتى لو اعترف الزانى يُمكن أن يسقط اعترافه إذا عدل عنه بناء على نصيحة القاضى ، والذى عليه أن يقنعه بذلك .

وعلى ذلك ، فقبل رجم أميرة ـ كما حدث فى الثمانينات ـ لابد وأنها مع قرينها استثارا إدانتهما بتحديهما الصارخ شكلا ومضمونا للنسيج الاجتماعى فى الإسلام بارتكابهما تلك الجريمة باستهتار وعناد ، على العلن .

ويقول القرآن فى هذا **﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾** (١٩ ـ النور) .

فكما ترى ، رجم الزانى ، هو أبعد مايكون عن أن يُعتبر ظاهرة إسلامية .

ولكن القرآن أمر بجلد الزانى وليس رجمه **﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة...﴾** (٢ ـ النور) .

ومع هذا ، أخذ الفقهاء بالحديث ، واعتبروا أن آيات سورة النور خاصة بغير المحصنين(٢٠٥) .

وقال فقهاء آخرون إن الرجم كان هو الحكم الأصلى ، وهو فى شريعة موسى (سفر التثنية ، الإصحاح الثانى والعشرون : ٢٠ ـ ٢٢) ، ثم جاءت آية سورة النور بنسخه إلى الجلد . الأمر الذى فات على فقهاء الرجم .

وإذا تكلم القرآن فى مسألة ، فلا يجوز مخالفته سواء بفهم خاطىء أو برواية أحاديث غير صحيحة ، فلا صوت يعلو على القرآن ، وعلى جميع المسلمين ، وفى مقدمتهم العلماء أن يصمتوا وينصتوا له .

وفى مسألة قطع الأيدى ، جاء فى الآية ٣٨ من سورة المائدة ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾ .

يبدو من هذا أن المسافر فى البلاد الإسلامية سيتعجب عندما لايجد أحداً مقطوع اليدين ، مع أن السارقين موجودون فى كل أنحاء المعمورة ، فهنا أيضا نجد التباين بين النظام القانونى وحقائق الحياة .

بادىء ذى بدء ، جريمة السرقة لها أركان محددة حيث يكون الشىء المسروق محفوظا محرزا وله قيمة .

وليس للسارق أى شبهة حق فيه ، ولدى السارق مايكفيه ، وهو ماسماه الفقهاء حد الكفاية ، وليست هناك ضائقة اقتصادية ولا حالة حرب و. و . . ، وليست الصدفة هى التى ساقت رجلاً ليأخذ ما ليس له . وقد أسقط عمر الاتهام بالسرقة فى حالة الفاقة . وقد أدى هذا إلى تطور النظرية السائدة الآن ، والتى تنكر تهمة السرقة إذا كان هناك مبرر لاتهام الدولة بالتقصير فى حق المواطنين والتسبب فى سوء الحالتين الاقتصادية والاجتماعية .

وقد خصص محمد أسد صفحة كاملة فى شرحه للآية ٣٨من سورة المائدة : تُطبق (العقوبة) فقط عندما يكتمل النظام الاجتماعى ، وليس تحت أى ظروف أخرى (*) .

حتى يتيسر علينا فهم عقوبة السرقة ، علينا أن نربطها بقانون المواريث والزواج والطلاق ، حيث كثيراً ماتدخر المرأة المسلمة مالها ومهرها تأميناً لها . فى آخر العمر ، فالإسلام لايجبر الزوج على نفقات مطلقته ، والسرقة هنا تعصف بماليه المرأة ، خصوصاً فى الأرياف . وبصفة عامة ، فالسرقة تهديد وإضرار بالملكية الخاصة ، وهى أحد أعمدة النظامين الاقتصادى والاجتماعى الإسلاميين .

عقاب قطع يد السارق له تأثير رادع ، كما يظهر فى السعودية ، ولكن يبقى السؤال : هل هو عقاب إنسانى ؟

من وجهة النظر الإسلامية ، السجن ـ خاصة مدى الحياة ـ هو أيضا لا إنسانى . ويرى المسلمون أن الأحكام الإلهية واجبة التنفيذ حتى لو جاوزت مفاهيمهم ، وهى أوامر وليست مجرد توصيات .

(*) هذا النظام الاجتماعى الذى يكفل التعليم والعلاج والسكن ونفقات المعيشة الكريمة لكل مواطن ، هذا النظام موجود فى ألمانيا غربا ، وموجود فى ماليزيا شرقاً ، ولا ننسى أن الشريعة تدعو المسلمين دائماً إلى العفو ، فحتى القتل ، شرعت عفو أهل القتيل عن القاتل ، أو أخذهم الدية ، ومثل ذلك فى السرقة ، يجوز العفو من صاحب المال أو القاضى ، وقال كثير من الفقهاء ، قدامى ومعاصرين ، بأن التوبة تسقط الحد . .

هوامش الفصل الثامن عشر

(١٩٨) فى القانون الجنائى الإسلامى - بصفة عامة - يمكنك أن تقرأ لـ « كوزار ديلجر » فى « الإسلام قوة عالمية » ميونيخ ١٩٨٨ ، « جوزيف شاخت » - « مقدمة للقانون الإسلامى » أكسفورد ١٩٨٤ ، « منهاج الطالبين » للنووى .

(١٩٩) ١٧٨ البقرة ، ٩٢ النساء ، ٣٢ ، ٤٥ المائدة ، ١٥١ الأنعام ، وفى قتل الطاغية ، انظر الآيات ٣٩ - ٤١ سورة الشورى .

(٢٠٠) انظر الآية ٣٣ سورة المائدة ، وفى حالة الارتداد فقط ، انظر فصل التسامح أم العنف .

(٢٠١) الآية الرابعة سورة النور .

(٢٠٢) ١٥ ، ١٦ سورة النساء ، ٣٢ سورة الإسراء ، ٢ النور .

(٢٠٣) ١٨٨ البقرة ، ٢٩ النساء ، ٣٨ المائدة .

(٢٠٤) الآية الرابعة سورة النور ، وقد نزل هذا التشريع بعد حديث الإفك عن أم المؤمنين عائشة الصديقة [وقد غالت قلة قليلة من الفقهاء وقالوا بقتل شهود الزيف على الزنا ، مستندين على أنهم شرعوا فى جريمة قتل ، ولكن هذا رأى ليس له أى وزن بين العلماء] .

(٢٠٥) فى ترجمتهم للقرآن ، أنكر محمد أسد ويوسف على وحميد الله ، الرجم فى الإسلام ، وقالوا إن الآية الثانية فى سورة النور نسخت الرجم الذى أمرت به شريعة موسى . ووافقهم فى ذلك الشيخ أبو بكر فى ترجمته ، وقال إن المدرسة الإباضية قالت بهذا منذ بدايتها ، ومثل ذلك كتبه البروفيسور رباح الاسلامبولى - جامعة الجزائر - فى المجاهد ٢ ,٣ /٢ /١٩٩٠ ، هوريزون ٩ ، ١٠ /٣ /١٩٩٠ .

الفصل التاسع عشر

الحَربُ المقدّسَة

يمكنني الاقتصار فى هذا الفصل على القول بأن مفهوم الحرب المقدسة ، حتى المصطلح نفسه ، لاوجود له فى الإسلام .

ولكن لايمكنني أن أهون من المسألة بهذا الشكل ، لأن المفهوم الذى يصفه المستشرقون الغربيون ـ بطريق الخطأ ـ حربا مقدسة ، وُجد بشكلٍ ما فى الإسلام : الحرب الدينية ضد معتنقى ديانات أخرى .

كذلك لن أستفيد شيئاً إذا أجبت على السؤال الخطير: هل يدعو الإسلام إلى العدوان والعنف تحت مفهوم الجهاد؟ بأن قلت الجهاد كلمة عامة ، قد يُقصد بها جهاد النفس ، أو المجاهدة لتنقية النفس كما يقول الصوفيون . فالجهاد فى سبيل الله اتخذ أيضا فى التاريخ الإسلامى شكل المعارك الحربية ، وهذا لاينكره أحد ، بل إن بعض فقهاء العصور الوسطى اعتبروا القتال فى سبيل الله الركن السادس فى الإسلام .

ركز النظر ـ بلا رحمة ـ الأب الأبيض هان فوكنج على بعض آيات القرآن ليخلص منها «أولئك الذين يؤولون الجهاد على أنه حرب دفاعية ، أو جهاد النفس أخلاقياً ينكرون الشواهد القرآنية ، وأيضا شواهد التاريخ الإسلامى السنى» (٢٠٦) .

وبصيغة أخرى ، إذا تكلم مسلم ضد الحرب العدوانية لنشر الإسلام ، فقد يكون محبا للسلام ولكن ليس مسلماً ، فلو كان مسلماً فعليه الالتزام بالآيات (٢٠٧) التى يرى فوكنج أنها تُشعل الحروب :

﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد . . ﴾ ٥ ـ التوبة .

﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ ٧٣ التوبة ، ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . . . ﴾ ٤ ـ محمد .

فصل الآيات القرآنية عـن سياقها [وبقية ما أنزل فى نفس المسألـة] وعن أسباب نزولها لإثبات أن الإسلام دين عدوانى هو بمثابة أن نـأخذ من كلمات المسيح قوله : لاتظنوا أنى جئت لألقـى سلاماً على الأرض . ما جئـت لألقى سلاماً بـل سيفاً ، فإنى جئـت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنـة ضد حماتها . إنجيل متى ـ الإصحاح العاشر ٣٤ ـ ٣٥ ، ثم نخلـص بأن المسيحية دين قتـال وعدوان[٢٠٨] (بل إن انجيـل متى أهون ممـا لو استخدمنا كلمات مارتن لوثر) (*) .

فماهو الأساس الحقيقـى للحرب فى الإسلام [٢٠٩] ؟ ستجد آيات كثيرة فى القـرآن تدعو لإرساء السلام ، وتسمح بالحرب الدفاعية : **﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقـدير ﴾ ٣٩ ـ الحج (**)**، ثم الأكثر تـوضيحاً **﴿ وقاتلـوا فى سبيل الله الـذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين ﴾ ١٩٠ ـ البقرة** .

يستمر القرآن بعـد هذا **﴿ واقتلوهم حيث ثقفتمـوهم وأخرجوهم من حيـث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل . . . ﴾ ١٩١ ـ البقرة** .

وتعيد الآية التسعون مـن سورة النساء **﴿ . . فإن اعتزلـوكم فلم يقاتلوكـم وألقوا إليكم السلم فما جعـل الله لكـم عليهم سبيـلا﴾** وكذلك الآيـة الثامنة من سـورة الممتحنة **﴿ لا ينهاكم اللـه عن الذين لم يقـاتلوكم فى الدين ولم يخرجـوكم من دياركـم أن تبروهـم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾** .

فالسـلام فرض أساسـى فى القرآن ، والذى ينهى عـن الحرب العدوانية ، والآيـات التى يبنى عليها الأب فولنج استنتاجه لاتعنى الأمـر بشن الحروب العدوانية ، ولكنها تعنى ـ كما أشـار إلى ذلك محمـد أسد عـام ١٩٨٠ ــ الحق فى خوض الحرب الـدفاعيـة [٢١٠] . وإنه لسخف متهافت الزعم بأن بالقرآن أوامر متناقضة فيما يخص الحرب .

وأسخـف من ذلـك أن القـرآن يشجع المسلمين على تتبـع الكفـار فى أوقات السلـم ، واجتزاز رؤوسهم تعطشاً للدماء .

واسخف مـن ذلك أيضـا أن الإسلام يرفـض إجبار الفـرد على الإسلام، **﴿لا إكراه فى الدين﴾ ٢٥٦ ـ البقرة** ، ولكنه يجبر الأمم !

وفى ضوء هذه التعليمات القـرآنية الواضحة ، لانحتـاج لإلزام أنفسنا بالخوض فيما قـاله فقهاء القرون الوسطى .

(*) أو هو كمن يكتفى بقول لاتقربوا الصلاة .

(**) وهذه أولى الآيات التى تسمح بالقتال .

وعلى أى حال ، الحرب فى عصر السلاح النووى ـ والبيولوجى والكيماوى ، وتكنولوجيا الأسلحة والحروب المعقدة ـــ أصبحت مختلفة تماماً بدرجة تجعلنا نرى نظريات علماء الكاثوليكية والإسلام فى الحرب العادلة أو الحرب الدفاعية، قد عفا عليها الزمان [٢١١] .

لا أحد ينكر أنه حدث فى التاريخ الإسلامى بعض الحروب البربرية لقهر العالم، ولكن هذا أيضا موجود [مضاعفًا] فى التاريخ المسيحى ، أما حروب الرسول فكانت دفاعية أو وقائية لمنع هجوم عليه أو على الإسلام، فلا خلاف أن مكة بدأت بمعادته واضطهاده ومحاولة استئصاله، وتبعتها قبائل الجزيرة العربية، وعاودوا ذلك .

ويمكن فى بقية الفصل تلخيص قانون الإسلام الدفاعى فيما يلى :

* واجب الأمة الإسلامية أن تسلح نفسها فى أوقات السلام لتردع أى هجوم عليها . الآية الستون سورة الأنفال .

* إذا دخلت دولة حليفة فى حرب ، فعلى الدولة الإسلامية الالتزام بمعاهداتها حتى لو كانت مع دولة غير مسلمة ،الآية ٧٢ الأنفال .

وهذا بمثابة تحول ثورى جاء به القرآن فى العلاقات الدولية .

* يجب على المسلمين الذكور الاشتراك فى الحروب الدفاعية (الآيات ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢١٦ سورة البقرة، ٩٥ النساء ، ٣٩ الحج)

وبالتالى فهم مطلوبون للخدمة العسكرية بصفة عامة .

* الحرب مُحَرَّمة تماماً بين المسلمين .

* للحاكم فقط حق إعلان الحرب .

*يجب ألا تتعارض أساليب الحرب مع الغرض منها (الآية ١٩٣ البقرة ، الآية ٦٠ الحج) .

* عدم التعرض للمدنيين فى الحرب، وغير مسموح بالإجهاز على موارد الغذاء الضرورى .

* وإذا جنح العدو للسلم فاجنح له (الآية ٦١ سورة الأنفال) .

* الشهداء جزاؤهم الجنة .

نظرة واحدة لهذا الفصل تسمح للقارئ بأن يحكم على غزو العراق للكويت ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ بأنه ليس له علاقة بالإسلام ولا الجهاد .

هوامش الفصل التاسع عشر

(٢٠٦) « هانز فوكنج» ـ « الجهاد » Cibedo ، فرانكفورت ١٩٩١ العدد الأول صفحة ١٧.

(٢٠٧) أجرت الأكاديمية العلمية الإسلامية فى كولون دراسة عن الإسلام فى الكتب المدرسية فى ألمانيا، تبين منها أن القرآن إنما هـو كتاب حرب، انظر الدراسة التـى قام بها «فوكنج، زيركـر ، تورشكا، الفلاتورى» ـ « الإسلام فى الكتب المدرسية الكاثـوليكية» براونشفيج ١٩٨٨، وانظر أيضا« مايكل كلوكر» ـ «الإسلام فى مرآة وسائل التعليم الكاثوليكية»، فى كتاب « لله المشرق و المغرب» .

(٢٠٨) فـؤاد قنديـل، فرانكــفورتر الجماينـه ١٠/١٠/١٩٩٠ ـ وأيضــا Cibedo العــدد الأول صفحة٢٤.

(٢٠٩) اقرأ « عصام كـامل سالم» ـ « الإسلام والقـانون الدولى» برلين ١٩٨٤ صفحـة ١٠٣ ، «هانز كروس» ـ «القانون الدولى الإسلامى» الطبعة الثانية ، بوخوم ١٩٧٩، صفحة ٤٤.

(٢١٠) اقرأ « رسالـة القرآن » لمحمد أسد الهامـش ١٦٧ ، ١٦٨ للآية ١٩٠ سورة البقـرة، الهامش ٧ للآية الخامسة والهامش ٤٠ للآية ٢٩ سورة التوبة، والهامش ٤ للآية الرابعة ، سورة محمد .

(٢١١) « مراد هوفمان» ، « الإسلام والقنبلة» مجلة الإسلام، العدد الثالث ١٩٨٤ صفحة ١٣ ميونيخ.

الفصل العشرون

القانون الدولى

يجب ألا يغيب عنا عند أى مناقشة للقانون الدولى الغربى أنه حديث العهد، فقد وضع أساسه « هوجو جرونيوس» الهولندى من دلفت عام ١٦٠٩ بكتابه « حرب البحار» ، ثم فى ١٦٢٥ بكتاب «شرعية الحرب والسلام »(٢١٢) .

كان على ساعة ميلاد القانون الدولى فى عـالم الغرب أن تنتظر ميلاد الدولة ذات السيادة (أوجست فرايد فون دير هايدر ١٩٥٢) وسط انبعاث نظريات القانون الطبيعى .

قبل هذا ساد المفهوم الرومانى (والإسلامى) .

خليط من الأعراف والتقاليد كونت القانون الدولى .

ويقدم القرآن فى هذا المجال أساساً طيباً خصوصاً فى :

* القانون الدولى للاتفاقيات والمعاهدات .

* حقوق الأقليات ، ويشمل ذلك حق اللجوء .

* القانون الدولى للحروب (انظر الفصل السابق، ومـرجعى عصام كامل سالم، وهانز كروس المذكوران فيه) .

يؤكـد القرآن ويكـرر احترام المواثيق والمعاهـدات والوفاء بـالوعـود، مع المسلمين وغير المسلمين(٢١٣) ، وتبدأ سـورة المائدة ﴿ **يا أيها الـذين آمنوا أوفوا بـالعقود** . . ﴾ وضع هذا الأساس الصالح لنمو التجارة، والتى لم تنقطع حتى خلال الحروب الصليبية، ولا حملات الأتراك العسكـرية وسـط أوروبا، ولاعصر القـراصنة المسلمين الـذين انطلقـوا من صـالى والجزائر.

يتمتع غير المسلمين داخل الـدولة الإسلامية بحـرية العبادة والعمل والتملـك ، وكان يكفيهم قديماً الأمان مـن أى مسلم (رجل، امرأة، حر، عبد) ، والآن بـالطبع المعاهدات الدولية ،ومن ثم جواز السفر وتأشيرة الدخول .

يُعفى غير المسلمين من الخدمة العسكرية، ويدفعون نظير ذلك ضريبة [ويُمكن إعفاؤهم من الضريبة إذا أرادوا الخدمة العسكرية، ومن الناحية الأخرى، فقد تسمح الدولة بإعفاء المسلمين من الخدمة العسكرية، وفى هذه الحالة يدفعون أيضاً الضريبة] .

لاتُمارس الدولة ضغطًا على غير المسلمين ليدخلوا الإسلام (*) . وقد يُفرض عليهم ارتداء زى معين لتمييزهم عن المسلمين (**)(٢١٤) .

كفلت الشريعة للأقليات غير المسلمة حقوقها بدرجة لاتجد لها مثيلا، لا فى القرن السابع، ولا حتى بعد ذلك بعشرة قرون، ويكفينا أن نتذكر مذابح الكاثوليك والبروتستانت لبعضهم البعض (***) ومذابح روسيا لليهود ، ومذابح كاثوليك الأندلس للمسلمين واليهود، ومذابح الأرثوذكس لمسلمى البوسنة ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين .

وإنه ليس أجمل من أن يُصدق ازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لليهود خلال حماية الخلافة الإسلامية لهم سواء كان ذلك منذ الدولة العباسية فى بغداد شرقا، إلى دولة الأندلس غرباً، ثم فى تركيا عندما فراليهود للخلافة العثمانية ، فى آخر القرن الخامس عشر ، هرباً من مذابح كاثوليك الأندلس .

بل حتى الآن ، يعيش اليهود فى المغرب فى كنف السلاطين، ويدعو الملك الحسن اليهود المهاجرين لإسرائيل كل عام ليعودوا للمغرب .

لم يؤد تطور القانون الدولى عند الغرب إلى تعارض مع الإسلام إلا فى مسألتين :

أولا: الإسلام ككل الديانات العظمى أو المذاهب ـ باستثناء اليهودية ـ عالمى، فيحلم المسلمون باليوم الذى يصبح فيه العالم كله مسلماً ، رغم أنه لا القرآن ولا الحديث النبوى بشرا بهذا، بل جاء فى الحديث بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريباً .

(*) وفى الواقع حدث عكس ذلك فى مصر، حين لم يشجع الوالى أيام عمر بن عبد العزيز دخول الأقباط فى الإسلام، فأرسل له عمر يوبخه على ذلك .

(**) لم تكن هناك وسيلة للتمييز غير ذلك، أما الآن فيمكن بالبطاقة أو جواز السفر، كما تميز الدول مواطنيها .

(***) فى مطلع القرن السابع عشر، كتب الفيلسوف الإنجليزى جون لوك كتابه الشهير، والذى كان علامة على الطريق « رسالة فى التسامح» ويقصد فى المقام الأول التسامح بين الكاثوليك والبروتستانت!

أدى هذا الأمل لأن قسم بعض الفقهاء العالم إلى دار الإسلام، والعالم الآخر الذى يُنتظر أن يصبح مسلماً، دار الحرب (*) ، وصاحب هذا التقسيم اختلال فى العلاقات بين الدول الإسلامية، وغيرها ، بل لم يأخذ هذا التقسيم فى اعتباره ظهور دول إسلامية ذات سيادة مع إمكان اختلاف سياساتها ، ذلك الأمر الذى تُذكرنا به على الدوام القيادة الليبية .

واعتبر الفقهاء بصلح الحديبية الذى عقده الرسول مع مكة، ليجيزوا معاهدات على غراره، فظهرت دار الصلح، وهى كل دولة غير مسلمة، تربطها معاهدات سلمية مع الدولة الإسلامية، ودعم هذا التفكير المعاهدة التى سنها الرسول بعد وصوله المدينة مع أهل المدينة من يهود وغيرهم[٢١٥] .

وبرغم هذا، رفض السلطان العثمانى بوصفه خليفة للمسلمين أن يخضع للقانون الدولى حتى عام ١٨٦٥ ، عندما وقع على اتفاقية باريس التى أنهت حرب القرم، وانضمت بهذا تركيا إلى منظومة القوى المتكافئة، والتى اخترعها الأمير مترنيخ . والمسألة الثانية : إن المسلم عندما يلتزم بمعاهداته ومواثيقه ، يفعل ذلك امتثالاً للأمر القرآنى[٢١٦]، وليس لاقتناعه بالقانون الطبيعى أو ما يشبه ذلك، مما أسس عليه الغرب قانونه الدولى ، ولكن الخلاف هنا نظرى وليس له تأثير عملى . ويشبه هذا اختلاف الأساس فى حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب، فهو فى الإسلام الشرع، وفى الغرب القانون الطبيعى .

بعد كل هذا، يجدر التساؤل : هل يمكن الآن الحديث عن قانون دولى إسلامى بمعناه الضيق ؟ هل يمكن تطوير هذا القانون لينظم العلاقات بين الدول الإسلامية القائمة الآن حتى يجيء اليوم الذى تتحد فيه الأمة الإسلامية ؟

حلم ؟ !

(*)ليس لهذا التقسيم أساس صريح صحيح من القرآن ولا السنة .

هوامش الفصل العشرين

(٢١٢) انظر فـردريك بربر « الكتـاب الأساسى فى القـانون الدولى » ـ ميـونيخ ١٩٦٠ ، الجزء الأول صفحة ١ ـ ١٦ .

(٢١٣) انظر أولى آيات سورة المائدة، والآية الرابعة من سورة التوبة، والآية ٧٢ من سورة الأنفال .

(٢١٤) ارجع لكتابى عصام كامل سالم وهانز كروس. المذكورين فى ٢٠٩ .

(٢١٥) انظر لحميد الله « أول ميثاق مكتوب فى العالم» لاهور ، الطبعة الثالثة ١٩٧٥.

(٢١٦) ارجع للهامش (٢١٣) .

الفصل الواحد والعشرون

عندما يصبح التّحريف تقليدًا

تم فى ٣١ / ٥ / ١٩٦٢ إعدام أدولف أيخمان - القائد السابق فى قوات العاصفة النازية (SS) - فى رام الله بعد أن خطفه العملاء السريون لإسرائيل من الأرجنتين .

عمل أيخمان فى تنظيم إرسال اليهود لمعسكرات الإبادة خلال الحرب العالمية الثانية . زعم فى دفاعه أنه لم يقتل يهوديا واحدا ، بل لم يلمس واحدا ، ومع هذا حُكم عليه بالإعدام ، فهو المسئول من وراء مكتبه عن جرائم المنفذين ، فهو بين المنفذين كأصحاب الياقات البيضاء فى المصانع ، عقل مدبر ! .

إن أكبر ضحايا التحريف فى التاريخ هو رسول الإسلام . وضعه مايكل هارت ١٩٧٨ على رأس قائمة المائة شخصية الأكثر تأثيرًا فى تاريخ البشرية ، ولأنه الشخصية الوحيدة التى حققت نجاحا هائلا دينيا ودنيويا .

ولكن كما قال مونتجومرى وات لا توجد شخصية عظيمة أساء الغرب تقديرها مثل محمد . فمن يوحنا الدمشقى فى القرن الثامن حتى فولتير القرن الثامن عشر ، ومرورا بدانتى الجيرى — الذى تصور محمدا فى المستوى التاسع من الجحيم - وانتهاء بسلمان رشدى ، أصبح تشويه محمد تقليدا غربيًا .

وكما قالت أنا ماريا شمل : يثير محمد - أكثر من أى شخصية فى التاريخ — الذعر ، والكراهية ، والازدراء فى العالم المسيحى .

وطبقا لها ، فمن أسباب ذلك أن العالم المسيحى لا يتخيل ديانة أخرى بعد المسيحية ، ولا يفهم فعالية تلك الديانة وسر نجاحها وتحول كثير من مناطق البحر المتوسط إليها من المسيحية .

كلنا نعلم تشويه صورة محمد ووصفه بالاحتيال والنصب تارة ، والنفاق تارة أخرى ، مجنون سلطة ، ومجنون جنس ، مصاب بالصرع . . باختصار نبى زائف وعدو للمسيح يستحق لقب (Monster) Mahound الذى أعاد سلمان رشدى إطلاقه عليه .

ولكننا نعرف من دراسات قام بها غير مسلمين ـ مثـل نورمان دانيل وإيكارت روتر ـ أن تلك البروباجندا المسيحية المستمرة ضد محمد لا تصمـد أمام الحقيقة ، وقد أثبتت الوثائق منذ القـرن الثالث عشر وحتـى منتصف الرابع عشر تلـك الحقيقة المزرية ، فحتـى أساس الإسلام ، الشهادة ، تم تحريفها إلى أشهد أن لا إله إلا محمد !

من هو النصاب ؟

لا أريد الإيحاء بأن الوضع لم يتحسن منذ تلك العصور المظلمة ، سواء بالنسبة للإسلام أو شخصيـة محمد ، ويـدل على ذلك أشعـار جوتـه ، وكتابـات كارليـل وردى باريـت وكارين أرمسترونج ووليام فيبس وغيرهم .

ولكن بصـورة عامة ، تـرسخ الشعور المعـادى للإسـلام عند الغرب ، ولا يمكـن فهم ولاتحليل رد فعـل الغرب للأحداث السيـاسية فى العالم الإسـلامى إلا من منظور الكـراهية المغروسة من قرون .

ومن هـذه الناحيـة ، فكل مـن يوحنا الـدمشقى وبيتر المبجـل وفولتير ، كلهـم عقول مدبرة .

مثل حى على ذلـك ، مشكلة البوسنة والهرسك . ففى اعتقـادى ، سقوط الغرب فى تلـك المأساة [وفى الشرق الأوسـط] يـرجع ــ لحد كبير ــ للميراث المشوه والخاطـىء تجاه المسلمين . تـؤيد حقـائق التاريـخ هذه النظـرة . مع نهايـة الحرب الباردة عـام ١٩٩٠ ، تحولت بعض البلاد الأوروبية من عصر المذاهب العقائدية إلى عصر القومية الشوفينية .

وانطبق هذا تماما على دول المعسكر السوفيتى ، فبعد انهيار الاتحاد السوفيتى ، انفصلت دول كثيرة ـ جمعتها الشيوعية (أو القوة) ـ على أساس عرقى أولغوى أو قومى ، منها روسيا البيضاء ، أوكرانيا ، دول البلطيق الثلاث ، مولدافيا ، دول القوقاز .

وبينما رحبـت معظم القـوى الأوروبية بـولادة دول مستقلة عـديدة ، فلـم تقبل ذلـك ليوغسلافيا القديمة ، والتى جمعها تيتو (والذى حكم كصربى بينما هو من أصل كرواتى) على مذهب سياسى .

ومن المفارقات ، أنه اتضح بجلاء أن من فيدراليـا ت يوغسلافيا السابقة ، فقط صربيا والجبل الإسود ظلا متمسكين بالمذهب الشيوعى ، بينما لفظته تماما فى أول فرصة سلوفانيا ، كرواتيا ، البوسنة والهرسك ، مقدونيا .

كذلك اتضح ـ لكل من يريد أن يعرف ـ أن صربيا عازمة على تأسيس التكامل والوحدة القومية والثقافية للصرب ، بصرف النظر عن المنطقة التى يعيشون فيها .

وقد بدأ سلوبودان ميلوسفيتش قائد الحزب الشيوعى الصربى (ولكنه من الجبل الأسود) فى اضطهاد المجريين الذين يعيشون فى فويفودينا ، والألبان الذين يعيشون فى الجبل الأسود ، لاغيا من الواقع العملى ما حصلوا عليه من حكم ذاتى عام ١٩٨٩ . وفى إطار نفس الخطة ، أعلن الصرب الذين يعيشون فى كرا ينا و فى كرواتيا استقلالهم .

وردا على تلك التطورات المخيفة ، أعلنت كل من سلوفانيا وكرواتيا ومقدونيا والبوسنة والهرسك انفصالهم عن بلغراد وتأسيسهم دولا مستقلة . ففى سلوفانيا ، صوت حوالى ٨٨٪ من السكان لصالح الاستقلال فى ٢٣/ ١٢ / ١٩٩٠ ، وتبعهم الكروات فى ١٩ / ٥ / ١٩٩١ وبنسبة ٩٤ ٪ ، وعلى ذلك أعلنت كل من سلوفانيا وكرواتيا استقلالها فى ٨ / ٩ ١٩٩١ ، وتلتهما مقدونيا فى ٢٠ نوفمبر .

لماذا إذا استمرت إنجلترا وفرنسا فى تأييد وحدة يوغسلافيا ؟ ألم يكن من حق غير الصرب الانفصال وحماية أنفسهم من الشوفينية الصربية ؟ الإجابة : **عار صارخ !**

خافت إنجلترا وفرنسا ، ودول أخرى ، من دول أخرى(*)ومن دولة مسلمة فى أوروبا . وكرهوا على الخصوص أن تستعيد ألمانيا ــ التى اتحدت ثانيا ـ وضعها ونفوذها فى تلك المنطقة ، وسيطرتها على الأسواق .

وبدا للحلفاء صحة شكهم فى ألمانيا عندما اعترفت ــ وحدها تماما ـ بالجمهوريات المستقلة . لم ير الألمان استحالة فرض دولة يوغسلافيا القديمة فقط ، بل رأوا أنه لن يوقف اعتداء صربيا على سلوفانيا وكرواتيا ـ والذى بدأ فور إعلانهما الاستقلال ـ اعتبار أن ذلك مسألة داخلية .

كان موقف المانيا منطقيا ، ولكن أضعفه عدم رغبة خلفائها فى مساعدة الجمهوريات الجديدة عسكريا . ونتيجة لذلك ، لم ير ميلوسفيتش ما يستوجب القلق على خطته صربيا الكبرى ، وكم كان صائبا فى ذلك !

وحين ذلك ، فقد الناتو، وفقدت دوله الفرصة فى وأد حرب البلقان فى مهدها ، فقد كان يكفى هجوم جوى واحد على الأهداف الاستراتيجية الهامة فى صربيا ، مع رسالة صريحة واضحة بإمكان تصعيد ذلك حتى يفهم الصرب أن كوارث العدوان ستعود عليهم ، وأنهم لن يتمتعوا بنقل الحرب خارج أراضيهم. وغنى عن القول إمكان إضفاء الشرعية ـ بالقانون الدولى ـ لتلك الهجمات .

(*)ربما يعنى المؤلف ألمانيا .

وبضياع تلك الفرصة ، تلاشت احتمالات أن تفلت البوسنة والهرسك من العدوان الصربى .

ففى ٢٩ فبراير ١٩٩٢ ، صوت ٩٩٪ من الناخبين فى البوسنة للاستقلال ، وقاطعت الأقلية الصربية (٣١,٣٪ ذلك الوقت) الاستفتاء . وعندما اعترف الاتحاد الأوروبى فى ٧ إبريل بجمهورية البوسنة والهرسك دولة مستقلة ، وبعدها بأسابيع اعترفت بها الأمم المتحدة ، رد صرب البوسنة على ذلك بأن أعلنوا استقلالهم ، وهنا ظهرت «بال» لتلعب دور العاصمة ، وظهر الدكتور رادوفان كارا ديتش واللواء مالديك ، المطلوبان الآن كمجرمى حرب .

تتابعت المأساة بعد ذلك ، احتلت قوات الصرب الانفصالية بمساعدة جيش صربيا أكثر من ثلث أرض البوسنة ، واشتعلت المذابح الجماعية والتعذيب واغتصاب النساء والفتيات والعجائز ، وتدمير كل مسجد وكنيسة كاثوليكية .

بدأ تنفيذ خطة التطهير العرقى .

لم تشاهد أوروبا منذ عصرى ستالين وهتلر مثل تلك الجرائم ، ولم تشاهد أوروبا منذ أيام الملك والملكة الكاثوليكيين جدا فى إسبانيا القرن السادس عشر حربا دينية مثل هذه .

ومع هذا ، لم يتدخل العالم ــ المتحضر ــ عسكريا ، ولكن انشغل فى المساعدات الإنسانية ! وعمل بجد واجتهاد حتى يضمن للمسلمين أن يعذبوا أو يغتصبوا أو يموتوا وهم «شبعانون» .

فبدلا من أن يشق الناتو طريقه بالقوة لفك حصار سراييفو المستمر لمدة ثلاث سنوات ، قرر الناتو بكل إنسانية أن يمد سراييفو بكوبرى جوى من الأطعمة ، وذلك الكوبرى الذى يفتحه الصرب وقتما يشاء ون ويصادرون منه ما يريدون .

أما الأمم المتحدة ، فقد أرسلت قوات لحفظ السلام ، فإذا كان السلام مفقودا فكيف تحافظ عليه تلك القوات ، والتى جاءت بمرسوم لا يسمح لها بالقتال ؟ . . بل إنه اتضح بجلاء مخيف عام ١٩٩٥ أن تلك القوات لا تعتزم حتى حماية المناطق الآمنة التى فى حمايتها ، كما حدث فى سربرنشيا وزيبا .

ومن الأعاجيب أن عائلةالأمم المتحدة فرضت حظر سلاح على المعتدى والمعتدى عليه من يوليو ١٩٩٢ وحتى نهاية ١٩٩٥[*] .

(*) أدانت ماليزيا بطرس غالى شخصيا فى مأساة البوسنة ، وصرحت عدة مرات أن له صلاحيات وإن كانت محدودة، إلا أنه استخدمها بفاعلية فى مواقف أخرى وتقاعس عنها تماما فى البوسنة ، ولهذا فهى ضد إعادة انتخابه .

أما وسطاء الأمم المتحدة وأوروبا مثل سيروس فانس [أصله يونانى أرثوذكسى] ، ولورد أوين [صرح علنا أنه لن يسمح بقيام دولة مسلمة فى أوروبا] ، وستوليزج وبيلدت فقد حاولوا تحقيق السلام بتكريس وتقنين مكاسب الصرب من العدوان ، وإعلانهم أنه لايمكن أن تحل المشكلة إلا حلا سياسيا . وفى الواقع ، فإن هؤلاء الوسطاء ، ومعهم ما يطلق عليه «جماعة الاتصال بالبوسنة » ضغطوا على البوسنة وكرواتيا ليقبلا تقسيما غير عادل للدولة ، يأخذ الصرب ٤٩ ٪ من المساحة وهم فقط ٣١ ٪ من السكان .

أخطأ صرب البوسنة فى رفضهم نصيحة خبيرهم الاستراتيجى ميلوسفيتش بألا يطمعوا فى أكثر مما أخذوه ، ولكنهم كانوا يطمعون فى سراييفو ! رغم أنه لم يكن بها قبل الحرب إلا أعداد قليلة من الصرب. قبل العالم الخانق أن تسترد كرواتيا بالقوة كراجينا ، وحركت مشاهد الخوف والموت التى نقلتها شاشات التليفزيون الولايات المتحدة (*) ، فهاجمت طائرات الناتو من ٣٠ أغسطس وحتى ١٤ سبتمبر ١٩٩٥ مواقع حربية عسكرية الأمر الذى تأخر فترة طويلة مما أدى إلى ٢٠٠,٠٠٠ قتيل و٥٠,٠٠٠ اغتصاب ، وأضعاف ذلك من اللاجئين ، وعشرات الآلاف من المبانى المهدومة ، وكل ذلك فى قلب أوروبا ، وتحت سمع وبصر «القوى المتحضرة» .

اضطرت صربيا وصرب البوسنة تحت وطأة الهجمات الجوية إلى أن يقبلوا اتفاقية سلام فى صالحهم !

فمفاوضات دايتون (أوهايو) من ١ ـ٢١ نوفمبر ١٩٩٥ ، أسفرت عن توقيع اتفاقية باريس ١٤ ديسمبر ١٩٩٥ ، وبمقتضاها يتم تقسيم البوسنة ، وإنها لمسألة وقت فقط أن تنفصل جمهورية صرب البوسنة وتلحق بأمها صربيا ، ولن يكون بمقدور الاتحاد الفيدرالى البوسنوى الكرواتى أن يؤسس دولة إسلامية ، كما تصور على عزت بيجوفيتش ، فهذا التهديد الإسلامى تم إجهاضه فى دايتون . يحتاج انعدام فاعلية القوى العظمى كل تلك المدة إلى توضيح ، فالدولة عادة لا تتصرف بلا عقلانية .

أول تساؤل هنا ، كيف لم تبصر الحكومات الغربية انعدام فرصة استمرار يوغسلافيا القديمة ؟ وكيف أخطأت فهم تلك الحرب ؟

لا يصعب على أى من درس مشاعر بلجراد أيام تيتو أن يتنبأ بما سيحدث بعد ما يذهب تيتو ونظامه . بل حتى أيام تيتو كانت الكراهية المتبادلة بين الصرب والكروات

(*) بعد أن صمدت سراييفو أكثر من اللازم ، وكشفت أمام العالم حضارة أوروبا وتواطؤ الأمم المتحدة ، حتى إن كلينتون أذاع على الشعب الأمريكى بعد قراره بإرسال قوات للبوسنة ـ إننا ذاهبون لنحمى قيمنا !

واضحة كضوء النهار، كذلك العداوة القائمة على الاختلاف الثقافى، رغم اشتراكهما فى العرق وأصل اللغة. فالكروات يتبعون كنيسة روما الكاثوليكية ويستخدمون الحروف اللاتينية، وكانوا حلفاء للنمسا والمجر ضد الإمبراطورية العثمانية. أما الصرب فهم أرثوذوكس يونانيون (*)، يتبعون كنيسة القسطنطينية، ثم تحولوا إلى كييف وموسكو، ويستخدمون الحروف السيريليكية. خضع الصرب للأتراك حوالى ٤٥٠ سنة، ومنذ معركة كوسوفو بولجى ١٣٨٩، حفظت الذاكرة الصربية فى الفولكلور الشعبى تلك الهزيمة طالبة بالثأر منها.

صَعَّد سلوبودان ميلوسفيتش الشوفينية الصربية إلى القمة فى خطابه السنوى فى كوسوفو بولجى فى ٢١ يونيه ١٩٨٩ ـ بعد ستمائة سنة على المعركة (**) ـ ليبدأ فى تحطيم التوازن الهش داخل يوغسلافيا. كان سلوبودان يفتت يوغسلافيا فى وضح النهار. كيف لم تستطيع الحكومات الغربية أن تفهم الأحداث التى تتابعها بدقة؟ الرد الوحيد أنها لم تر ما لاتريد أن تراه، وأَمِلَت فى هدوء الجبهة الجنوبية الشرقية لأوروبا (***).

كذلك أخطأت تلك الحكومات ثانياً عندما عاملت تلك الحرب على أنها صراع داخلى قبلى على الطراز البلقانى المعروف، حيث الكل يحارب الكل، والكل غير منطقى، والمسئولية على الكل... ألسنا كلنا نعرف تلك المنطقة؟؟!!

حقاً إنها لوجهة نظر!

فى الحقيقة، بدا بوضوح من خطاب ميلوسفيتش المعادى للأتراك (أى المسلمين)، أن صربيا على وشك الهجوم على البوسنة فى حرب صليبية جديدة.

أعلن المسئولون الصربيون، والإعلام الصربى، والكنيسة الصربية، كذلك الإعلام اليونانى، بصراحة ووضوح هدف حرب البلقان ١٩٩٢ ـ ١٩٩٥: وهو استئصال الجيب الأخير للمسلمين فى أوروبا، ليس أكثر ولا أقل.

(*) خلال مأساة البوسنة، تبنى الإعلام اليونانى قضية عدم السماح بإقامة دولة مسلمة فى أوروبا، وبعد أن قتل الصرب مائتى ألف مسلم، دعت اليونان بطرس غالى لتسليمه جائزة قدرها ٢٠٠٠٠٠ دولارا

(**) كذلك تحتفل فرنسا بمعركة بواتيه التى هزم فيها شارل مارتل قوات المسلمين المنطلقة من الأندلس، وكانت تلك المعركة فى (١١٤هـ ـ ٧٣٢م). ويرد قادة إسرائيل على من يحتج على معاناة الفلسطينيين فى الأرض المحتلة بأن أجدادهم تعرضوا لمثل تلك المعاناة على يد فرعون منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة!

(***) أو إنها رأت فعلاً ماتريد أن تراه، ولكن لاتستطيع أن تُظهر ذلك.

وبكلمات أخرى، ما رأيناه على أرض البوسنة ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، وبعيون الصرب واليونان، حرب دينية، وهى على هذا حرب ذات وحشية خاصة.

كيف أخفقت الحكومات الغربية فى التقاط ذلك؟ لذلك أكثر من سبب. رفض البعض تصديق إمكان عودة الحروب الدينية ـ فهم أنفسهم لا دينيون ـ فكيف يحرك الدين السياسة ويُشعل الحروب؟ لا، لقد تقدمت البشرية ولايمكن لتخلف وظلام العصور الوسطى أن يعودا.

وإذا وافقنا على ذلك الفهم الخاطئ فى البداية، فلماذا لم يتبين للغرب خطأ ذلك عندما تجلى بوضوح النهار أن الصرب يذبحون المسلمين جماعياً؟

يجب أن نستبعد من البداية عدم كفاءة وقدرة الحكومات الغربية فى إدارة الأزمات (*). وبالذات دول الناتو التى طورت إلى مستوى رفيع إجراءاتها لإدارة الأزمات، بعمل مناورات شاملة مثل هيلكس، وينتكس مما أدى إلى تراكم الخبرات المستفادة. وخبرت حكومات الناتو فنون إنهاء الصراعات العسكرية من خلال التصعيد والتخفيف المعتمدين على توصيل رسائل واضحة النيات للطرف الآخر. ومن الأسس المعروفة فى هذا المجال، أن يتأكد الطرف الآخر من أن التهديد بالعمل العسكرى إنما هو نصيحة مخلصة لتجنيب ويلاته، وفى نفس الوقت هو قصير الأجل، لايعطيه إلا الوقت اللازم للرضوخ.

ولكن ياحسرتاه! فخلال حرب البوسنة، خالف اللاعبون الغربيون كل وأى قاعدة تعلموها وحفظوها ورددوها عن ظهر قلب فى تدريباتهم.... تهديدات مبهمة... والأسوأ أنها مرتبطة بآجال طويلة جعلت الصرب يفهمون أنها غير جادة، أو يأخذون احتياطياتهم ضدها.

أما أخطاء سر برنشيا وزيبا فكانت علامة على الطريقة!

أولاً، وضد الدلائل الناطقة، كان هناك التساؤل، هل الصرب جادون فى التقدم إليهما؟

ثانياً، بعد أن اقترب الصرب منهما... فات أوان الضربة الجوية!

(*) يكفينا فى ذلك نظرة واحدة للدمار الذى حل بالعراق وإعادته لحياة القرون الوسطى.

ثالثا ، سمحت قوات الأمم المتحدة لقوات الصرب باستعادة الأسلحة الثقيلة التى سلموها من قبل طبقا لقرارات الأمم المتحدة ! أكان يمكن بهذا السلوك الاستمرار فى الوثوق بالأمم المتحدة والحكومات الغربية؟؟ وبالطبع لايمكن لطرف غير موثوق به أن يدير، ناهيك عن أن يحل، أزمة أو مأساة .

الحكومات الغربية المعنية ليست بلهاء، وليست عاجزة عن التصرف أو حمقاء ، فلماذا بدت كذلك ؟

هناك جواب لطيف كريم وآخر أقل لطفاً وكرماً. الأول ، وهو الأسهل : تصرف الغرب بغرور، كما يجب أن يتوقع المرء من مجتمعات مادية ، لاتريد التضحية، خاصة إذا كانت التضحية فى سبيل تلك القبائل من البرابرة القابعة فى البلقان الكئيب . حقيقة ، تحقق بعض المثقفين من وجوب عمل شىء ، ولكنهم لم يستطيعوا عمل شىء، وهذا أحد أعراض التدهور.

ومن الطريف أن رد فعل الغرب هنا يُذَكِّر بنفس رد فعله عندما حاصر السلطان محمد الفاتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، فكما وصف « ستيفن رونكلمان»، ناشد الإمبراطور البيزنطى قوى الغرب ـ كما ناشدها بيجوفيتش الآن ـ لتساعده ضد السلطان، وأجابته قوى ذلك العصر، البابا ، فينيسيا ، الإمبراطور الألمانى، ملكا إنجلترا وفرنسا: يجب البحث عن حل سياسى مع محمد الثانى. ومن ضمن ماتعللوا به : روما الشرقية (القسطنطينية) بعيدة جداً فالتدخل يكلف كثيرا ، وربما فات وقته . وأخيرا عندما اعتزم البابا استئجار مراكب حربية من فينسيا ، أجابه الفينسيون. أنت لم تدفع حسابك القديم !

ومن المفارقات الطريفة، أنه يمكن تحريك الملايين فى الغرب لقضايا إنسانية كبرى مثل اعتقال الحكومة الصينية لأحد المنشقين، أو هل هناك خطر من التجارب النووية الفرنسية فى المحيط الهادى على البيئة [أو حتى قضايا حيوانية مثل الرفق بالكلاب أو الخوف من انقراض إحدى فصائل القرود أو الحيوانات] ، ولكن ليس لذبح مائتى ألف مسلم .

لماذا لم تتحرك منظمة العفو الدولية وغيرها من المنظمات غير الحكومية ضد الصرب؟ هل ذنب البوسنويين أنهم لا بتروليون، أو أنهم بشر، وليسوا إحدى الفصائل النادرة للحيتان أو مثل ذلك؟ أو أنهم مسلمون؟ !

ويبقى ـ بعد كل ذلك ـ رد فعل ، أو بالأحرى عدم فعل الحكومات الغربية محيراً ، فقد نقل الإعلام الغربى خاصة فى ألمانيا وفرنسا مأساة الضحايا إلى غرف المعيشة . يضطرنى هذا

لأن أقدم الحل الأقل لطفا وكرماً : الشعور المعادى للإسلام، والمغروس فى الأعماق من الفكر والعاطفة الغربية . لنفهم هذا، علينا أن نسترجع حصار القسطنطينية عام ١٤٥٣ . ففى هذا الوقت أيضا ، كان التعصب الدينى وراء لامبالاة الغرب بما يحدث فى روما الشرقية ، والتى رفضت كنيستها الأرثوذكيسة اليونانية الانضواء تحت كنيسة روما الكاثوليكية ، ومن ثم ، أصبحت كنيسة القسطنطينية من الهراطقة الملعونين ، وتستحق العقاب الذى جاء على يد السلطان محمد الفاتح .

ذلك التعصب هو السبب الحقيقى فى سقوط الغرب فى اختبار البوسنة ، وإليك البرهان : افترض استبدال الصرب الأرثوذكس والبوسنويين المسلمين أدوارهم ، فيقوم البوسنويون بالهجوم على الصرب ، احتلال أراضيهم ، ذبح ٢٠٠٠٠٠ صربى مسيحى ، واغتصاب عشرات الآلاف من المسيحيات ، هل كان غرب اليوم يلزم الصمت إزاء هؤلاء المسلمين البرابرة؟ هل يتخيل أحد أن الغرب سيكافئ المسلمين المعتدين بفرض حظر سلاح على الطرفين ؟ الإجابة دائما لا (*) .

فى أعماق كل أوروبى شعور معادٍ للإسلام ، تراكم منذ قرون ، ولا يمكن أن يتعاطف أو يقبل إنشاء دولة إسلامية فى أوروبا ، بل العكس هو لايريدها ويخاف منها .

وقصف الناتو لمواقع الصرب ـ المتأخر جداً ـ فى خريف ١٩٩٥ ليس دليلا على العكس ، فلم يحدث هذا تعاطفا مع المسلمين أو لصالحهم ، وإنما كان ليقبل الصرب [الأغبياء العنيدون] تسوية هى فى صالحهم فى المقام الأول [وخوفاً من انقلاب الموازين العسكرية لصالح البوسنة ، بعد أن ارتفعت كفاءة جيشها وعدده وتسليحه ، وبعد أن أوقفت تلك الحرب الغرب عارياً تماماً أمام أنظار العالم أجمع] .

بالطبع كان بمقدور العالم الإسلامى والعالم العربى تقديم مساعدة أكبر (**) ، ولكن يجب ألا ننسى أن المقاطعة العسكرية المفروضة على البوسنة جعلت كثيراً من المساعدات فى طى الكتمان . وفى وقت من الأوقات ، نعت الصحف التركية والسعودية قدماء المحاربين الذين ماتوا على أرض البوسنة .

(*) تحدث ضيفى الناشر الإنجليزى عن مأساة البوسنة والهرسك ، ثم أضاف : طبعا لو المسألة بالعكس لكان تصرف الغرب مختلفاً تماما ، ثم أردف قائلاً : هذه هى حقائق الحياة!

(**) قال أحد المسئولين البوسنويين : لولا أربع دول لاختفت البوسنة من الخريطة ، ثم عد أربع دول ليس بينها دولة عربية واحدة .

ولا يستطيع المرء مقاومة الإحساس بأن الكثيرين لم يتقبلوا البوسنويين كمسلمين حقيقيين، فهل كان ذلك لأنهم لايرددون كلمات إن شاء الله، ماشاء الله، الحمد لله [معلهش]بشكل كاف؟

ومن يقرأ العمل الرائع لعلى عزت بيجوفيتش « الإسلام بين الشرق والغرب» يقدر ذلك الرئيس المفكر، بل العالم الفيلسوف .

ولايخفى على أحد أن كثيرا من البوسنويين اليوم يمارسون الإسلام بصورة أشمل وأكثر التزاما من أيام يوغسلافيا السابقة .

طالما ظل الغرب ـ بسبب تعصبه التاريخى ـ يُعانى نفسياً وفكرياً من الإسلام، فلن تكون البوسنة هى آخر بوسنة . وفى الواقع فإن فى ١٩٩٥ وقبل هدنة البوسنة، تعرض شعب مسلم آخر للمذابح الجماعية، وكان فى هذه المرة شعب الشيشان(*) .

دافع ذلك الشعب عن إسلامه بقيادة الإمام منصور فى القرن الثامن عشر، والإمام شامل فى القرن التاسع عشر. ويقاتل اليوم بتصميم مذهل وتضحيات هائلة وحيدا منفرداً تماماً، وياحسرتاه، لايقدم أحد لهذا الشعب الجسور المعتز بدينه وكرامته ونفسه، لايقدم له أحد يد المساعدة سواء كان ذلك فى العالم الغربى أو العالم الإسلامى . [تحقق لهذا الشعب النصر فى نهاية عام ١٩٩٦، فعقدت روسيا معه معاهدة خمس سنوات، وسحبت جحافلها] .

تعلل الغرب بأسباب سيادة الدولة (**) (وحدة الأراضى، النظام العام) [تلك المصطلحات الجوفاء الرنانة التى يتلاعب بها كيف يشاء] .

ولكن فى عمق الأعماق، هناك الخوف من تطورات تأتى بدولة إسلامية فيدرالية فى القوقاز، تجمع الشيشان، داغستان، أنجازيا، كيركاسيا، انجوشليا، وأوستيا.

تحدث هذه الفظائع عندما يصبح التشويه والتحريف والتزوير تقليداً.

يعرف الفلسطينيون ذلك أكثر من أى مسلم الآن ! .

(*)تعدادهم ١٫٢ مليون نسمة، أرسلت إليهم روسيا مائة الف جندى وما يقرب من ألفى دبابة والمئات من الطلعات الجوية،

• وبعد حرب لامثيل لها فى التاريخ رضخ العملاق الروسى للشيشان واضطر لعقد معاهدة تحفظ ماء الوجه، وسحب جيشه.

(**) قارن بين مسألة الصين وتايوان ومسألة روسيا والشيشان. يسكن تايوان صينيون، بينما الشيشان جنس مختلف عن الروس، لغة مختلفة، ثقافة مختلفة، دين مختلف. وتهدد أمريكا الصين بإرسال أساطيلها وجيوشها إذا حاولت ضم تايوان لها، ثم تسمع أمريكا تتحلى بالصمت الجميل والدب الروسى يقاتل الشيشان، بل ويسميهم إعلامها الانفصاليين.

الفهرس

رقم الايداع : ٤٩٨٧/ ٩٧
I.S.B.N. 977 - 09 - 0382 - 5